أمالي السيّد طالب الرِّفاعي

رشيد الخيّون

ترشيحي لرئاسة الإخوان المسلمين - قصة كتاب «فلسفتنا» - كدت أصير شيوعياً
كيف تأسس حزب الدَّعوة! - توظيف عاشوراء سياسياً - الصِّراع على المرجعية
الوكالة لشريعتمداري - الخاقاني وراء نجاح الثَّورة بإيران - الصَّلاة على جنازة شاه إيران





رشيد الخيّون

أمالي السيّد طالب الرِّفاعي





مدارك

أمالي السيّد طالب الرِّفاعي

تجد في هذا الكتاب فصلاً مهماً مِن تاريخ الإسلام السِّياسي الشِّيعي والسُّني، فالسَّيد الرِّفاعي أحد الفاعلين فيه بقوة. كان أبرز المؤسسين لحزب الدَّعوة الإسلامية، بينما كاد يصبح رئيساً للإخوان المسلمين، فتصور المفارقة.

كان مشاكساً حركاً، لكن حماسة العشرينيات غير تعقل الثمانينيات. دمعت عينه فرحاً بانقلابات وها هي تدمع حزناً لحدوثها، فالعبرة في النتائج لا في المقدمات.

صار عدواً لقادة وجماهير الثَّورة الإسلامية لمجرد أنه صلى على جنازة شاه إيران، ولو كُتب للإمبراطور الرَّحيل وتاجه على رأسه لتزاحم للصَّلاة عليه الآيات العظام، لكن مِن حظه أن يُصلي عليه وهو منزوع التَّاج مكسور الصَّولجان!

تجد في ذاكرة الرِّفاعي صوتاً آخرَ، وشهادة حيَّة أخرى على زمن ما زالت أحداثه تؤجج العواطف وتوجه العقول.



ISBN 978-9953-566-52-8



Madarek Publishing House
دار مدارك للنشر

رشيد الخيُّون

أَمالِي السَيَّدِ طالِب الرِّفاعي

الكتاب: **أمَالِي السَيِّدِ طالِب الرِّفاعي**

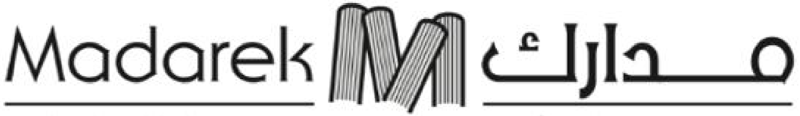
تأليف: **رشيد الخيُّون**

التصنيف: **تاريخ إسلام سياسي وسيرة ذاتية**

الناشر: دار **مدارك** للنشر

الطبعة الأولى: مارس (آذار) 2012

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-614-429-029-3



Madarek Publishing House
دار مدارك للنشر
www.mdrek.com - read@mdrek.com

دبي:
مجمع إعمار للأعمال، شارع الشيخ زايد، دبي - الإمارات العربية المتحدة
P. O. Box: 333577 Dubai - UAE
Tel.: 00971 4 361 5177 - Fax: 00971 4 361 5178

بيروت:
فرن الشباك، الطريق العام، سنتر غاريوس، بيروت - لبنان
P. O. Box: 50074 Forn Elchebbak - Lebanon
Tel.: 00961 1 282075 - Fax: 00961 1 282074

رشيد الخيُّون

أَمالِي السَيِّدِ طالِب الرِّفاعي

المحتوى

الفصل الثَّاني عشر:

الفصل الثَّالث عشر:

الفصل الرَّابع عشر:

الفصل الخامس عشر:

الفصل السَّادس عشر:

تصديق على صحة ما جاء في هذه الأمالي
وأن الدكتور الفاضل رشيد الخيّون لم يتصرف
بشيء من عنده إلا ما أشار إليه في مقدمته
لهذه الأمالي التي سجلها من إملائي عليه
في شهر تشرين الثاني ٢٠١١ في مدينة
(أبوظبي).

د. طالب الرفاعي
١٦/١/٢٠١٢

تصديق السيد الرِّفاعي على مذكراته

استهلال

ربَّما تبدو مفردة «الأمالي» غريبة، إلى حد ما، على القارئ أو السَّامع الذي لا يعرف عنها إلا أنها جاءت عنواناً لعدد مِن الكتب التُّراثية، وعلى وجه الخصوص الجامعة للأخبار والنَّوادر، أو كتب الأدب العامة. جاءت عنواناً لأكثر مِن مصنّف تراثي، وكان أشهرها كتاب «الأمالي» لأبي علي القالي، والقالي هو رابع مَن اعتبر ابن خلدون (ت 808 هـ) مصنفاتهم أُصولاً وأركاناً في فن التعليم الكتابة على الإطلاق.

قال في مقدمته: «وسمعنا مِن شيوخنا في مجالس التَّعليم أن أُصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قُتيبة، وكتاب الكامل للمُبَّرد، وكتاب البيان والتَّبيين للجاحظ، وكتاب النَّوادر لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة فتُّبع لها وفروع عنها، وكُتُب المحدثين في ذلك كثيرة»[1].

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق علي عبدالواحد وافي، القاهرة: نهضة مصر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع 3 ص 1139.

إن كلَّ هؤلاء نشأوا وتعلّموا وكتبوا وبرزوا بالعِراق، وثلاثة منهم مِن أعلام القرن الثَّالث الهجري (التَّاسع الميلادي): الجاحظ (ت 255 هـ)، وابن قتيبة (ت 276 هـ)، والمُبَرَّد (ت 286 هـ)، أما رابعهم القالي (ت 356 هـ) فعاش القرن الرَّابع، وربَّما أدرك القرن الثَّالث. كذلك اشتهر كتاب «الأمالي» لأبي عبدالله محمد بن اليزيدي (ت 310 هـ)، و«الأمالي» لأبي القاسم علي بن الحسين المعروف بالشَّريف المرتضى العلوي (ت 436 هـ)، و«الأمالي» لأبي جعفر محمد بن الحسن الطُّوسي (ت 460 هـ).

كانت طريقة الإملاء معروفة في تصنيف الكُتب، وجُمعت دواوين الشِّعر هكذا أيضاً، أن يكون للشَّاعر راوية يروي عنه شعره ويكتبه، أو يملي الآخرين أشعاره، وما كتاب «المحبر» لمحمد بن حبيب (ت 245 هـ) إلا رواية وإملاء، كذلك أن كتب ورسائل فقهية جاءت بطريقة الإملاء، منها ما جمعه طلبة المرجع الفلاني أو أحد خاصته.

ما سميناه بكتابِ الأمالي إلا لأنه كُتب بطريقة الإملاء، فمثلما الأغاني جمع أُغنية، والأحاجي جمع أحجية، والأداحي جمع أدحية، كانت الأمالي جمع أملية، وهي الإملاء[1]، ونُضيف: أمنية أماني، وهلم جرّاً. ويأتي معناها كعنوان كتاب هي: الأقوال

---

(1) أبو عبدالله محمد اليزيدي، كتاب الأمالي، تحقيق عبدالله الحسني الحضرمي، الهند: حيد آباد الدِّكن 1369 هـ، مقدمة المحقق، ص: يا.

والملخصات[1]. جئنا على هذا كي لا يُفهم مِن العنوان أنه مِن الأمل والآمال، مع أن الأمل لا يُجمع أماٍل بل آمال. ومع ذلك قد يذهب البعض ويأخذ الأمر على السِّماع أو على الجناس والطِّباق. فالسَّيد طالب الرِّفاعي، وإن كان مملوءاً بالآمال، مع أنه تجاوز الثَّمانين حولاً، ولم يسأم بعد، إلا أنه لم أسمع منه سوى الماضي وصداه، فلا شيء أملاه لي عن المستقبل المأمول.

فكرة أمالي الرِّفاعي

كنت أسمع عن الرَّجل، كأحد أبرز النُّشطاء في العمل السِّياسي الدِّيني، ومِن خلال صلاته ومشاكساته الكثيرة، في نهاية الخمسينيات، يحضر اسمه على ألسنة الذين عاشوا تلك الفترة، بعدها وفي رمضان العام 1980 أخذ اسمه يُتداول في وسائل الإعلام بقوة، وفي المجالس الشِّيعية على الغالب.

ففي لحظة أصبح نداً لقائد الثَّورة الإسلامية الإيرانية آية الله روح الله الخميني (ت 1989)، كونه صلى على جنازة شاه إيران، حتى أشارت إليه صُحف إيرانية بكافر أست، فمِن حظه أن يموت الشَّاه ولا يجدوا مَن صُلي عليه سوى إمام الشِّيعة بمصر السَّيد طالب الرِّفاعي، فمِمَّا أملاه عليَّ أن مِن سوء حظه أن يُصلي على الشَّاه وهو معزول عن ملكه، وحظ شاه إيران أن يُصلي عليه

(1) المصدر نفسه.

الرِّفاعي، بينما لو مات والتَّاج على رأسه لتنافس كبار المراجع، مِن الآيات العظمى، لإمامة الصَّلاة على جنازته، وما تمكن الرِّفاعي حضور الجنازة، ولو كان مأموماً لا إماماً.

العام 1994، على ما أتذكر، دخل عالمُ دين يعتمر العِمامة السَّوداء، علينا في مؤسسة المرجع أبي القاسم الخوئي (ت 1992)، الجناح الخاص بمجلة «النُّور» الإسلامية، راهي القوام، زادته العِمامة طولاً على طوله، تعارفنا، وكان على معرفة بعشائر النَّاصرية ومشايخها، لكن ما أن التفتُّ إلى النَّاحية الثَّانية حتى قال لي الجالس إلى جانبي: «هذا الذي صلّى على جنازة شاه إيران»! فعلى غرة اختفى تاريخ الرِّفاعي وراء هذا الحدث، مع أنه كان وراء أحداث مهمة في الحراك السِّياسي الإسلامي، وكان وراء اشتهار أشخاص وانتشار حركات، ولم يُحفظ له إلا ما حصل بلا تقدير منه ولا سعي، ولا رغبة، وهي صلاته على جنازة الشَّاه.

اكتشفت أنني بحاجة إلى توثيق العديد مِن الرِّوايات والأحداث عند العمل في كتاب «مائة عام مِن الإسلام السِّياسي بالعراق» (مركز المسبار للدراسات والبحوث 2011)، بعد أن عرفت أنه كان وراء حدث كبير في هذا المجال، وهو تأسيس حزب الدَّعوة الإسلامية، وما نُشر مِن صفحات مقتضبة له على صفحات الإنترنت لا تفي بالغرض، مع أهميتها، كان وراء قضية تُعد في وقتها مِن القضايا الكبار بالنِّسبة إلى شدة الاحتقان السِّياسي

آنذاك (1959) ما بين المرجعية الدِّينية والحكومة العِراقية في عهد الزَّعيم عبدالكريم قاسم (قُتل 1963).

حاولت الاتصال به في مقرّه بأمريكا، لكن مِن دون جدوى، فإن ما عندي مِن معلومات، مهما كانت موثقة، إلا أنها لا ترقى إلى أخذها مِن نبعها لا مِن الجداول، حتى قلقت من أنه سيفوت الأوان وليس هناك كتاب يجمع هذا الخزين بين دفتين. لأن ما قرأته، مِن موجزات على موقع السَّيد، وقد جمعها له ولده عقيل، فيه الكثير مِن النَّواقص، فما أباح به الرِّفاعي كان يشبه رؤوس أقلام، أي جاء مِن سطح الذَّاكرة وليس مِن التَّلافيف وما كنزته. ليس لدى الثَّمانيني مذكّرات فقط، بل مراجعات أيضاً، لمواقف وأفكار وممارسات، وهذا ما شعرت به وهو يُملي ذاكرته.

سعيت إليه وتوقفت لانشغالٍ وعدم جدوى السَّعي، إلى أن كان يوماً مِن الأيام، حين اتصل بي أحد الأخوة مِن أبو ظبي، ليقول السَّيد طالب الرِّفاعي يسأل عنك، فأين أنت؟! اتصلَ هو بعدها، وقال: أبحثُ عنك وأُريد رؤيتك، فسكتُّ فرحاً بما طلب، وكي أجعله هو المبادر، وفي ذلك شيء مِن اللؤم، إن لم نقل الخبث البريء، إذا كان هناك لؤم وخبث بريئين!

فالحقيقة أنا الذي أبحثُ عنه، وأنتظر ساعة اللقاء به، تقديراً لشهادته على عصر مضطرب، كثرت فيه الشَّائعات، واشتدت النزاعات، وهل هناك شائعة أكثر مِن تجهيز عبدالكريم

قاسم لحملة عسكرية على الكويت العام 1961؟ ومات الجميع بعد أن سكت الضَّابط المفترض الذي كُلِّف بقيادة الحملة، وكأنه صدّقها لما فيها مِن فائدة، لكن يأتينا طالب الرِّفاعي بأكذوبتها واختلاقها.

بعد أيام مِن اتصاله، كنت على موعد لحضور المنتدى السَّنوي لجريدة «الاتحاد» الإماراتية (19 تشرين أول/أكتوبر 2011)، صادف وجوده بأبو ظبي، فتمَّ اللقاء، وجرى التفكير الجاد لتحرير سيرة أو مذكّرات له، فعندما اتصل بي خشيت أنه سيعترضُ أو يُكذّبُ ما جاء في كتابي «مائة عام مِن الإسلام السِّياسي»، بخصوص ما يتعلق به شخصياً، إلا أنه وجد ما ورد في هذا الكتاب كان ناقصاً، مع الاعتراف بصحته، وانطلق متحدثاً عن مفاصل مهمة في الإسلام السِّياسي، الشِّيعي والسُّنّي، مفنّداً العديد مِن الرِّوايات والأخبار والشَّائعات، بل الكتب التي غدت مصادرَ فريدة لتأريخ تلك الفترة السِّياسية الحرجة.

وأنا أستمع للرِّفاعي، وهو يتدفق بوضوح، استوقفته قائلاً: إن كلَّ عبارة قلتها هي عنوانٌ لفصل مِن فصول كتاب تلك المرحلة، فلماذا لا نبدأ بالكتابة وتأليف الكتاب؟ قال: أي كتاب؟! قلتُ: أماليك! وأنا معك بالقلم وجهاز التَّسجيل، احتراساً مما لا يقدر القلم على سكبه على الورق! فقال: أترى هناك فائدة في ما قلت وما سأقول؟ فأجبته: ها أنا أوّلُ المستفيدين! ما أجده في ذاكرتك خزيناً، قد لا يشاركك آخرون به، أي أنت متفرّدٌ بها! فلنبدأ!

كان يُفترض أن أعود مِن أبو ظبي بعد انتهاء منتدى صحيفة «الاتحاد» خلال يومين، إلا أن اليومين صارا شهراً، حتى تمت أمالي السَّيد، مع رغبته في المزيد، فلديه مِن الذِّكريات مع شخوص تلك المرحلة، مِن نجفيين وبغداديين ومصريين وإيرانيين، ممَن تفرقت بهم الطُّرق وتشعبت، لكنني أقنعته أن تكون تلك الذكريات كتاباً آخر.

بعدها عُدْتُ إليه عارضاً ما أملاه عليَّ، طوال تلك الفترة (تشرين الثّاني/نوفمبر 2011)، فربَّما هناك زيادة أو نقصان، أو ما يرغب في حجبه تقيةً وتقديراً لظرف ما، فطالعها، وزوّدني بشهادته مكتوبة. فعندما كتبت عنه مقالةً في صحيفة «الاتحاد»، ضمن مقالتي الأسبوعية فيها، كل يوم أربعاء مِن الأُسبوع، أطلعته على ما كتبت قبل النَّشر، بمبادرة مني، فقال: إنه كلامي، وأنت أتيت بالقليل! وبالفعل بعد نشر المقالة اتصل به ممَن لا يثقون عادة بما يكتبه مخالفوهم، أو مَن هم ليسوا على طريقتهم سائرين، أو يعبِّرون بهذا التشكيك عن دواخل نفوسهم، قائلاً له: ورد في المقالة كذا وكذا فهل أنت على عِلم؟! فأجابه السَّيد الرِّفاعي بما أجابني: «إنه كلامي وفي جعبتي ما هو أكثر! فسكت المشكك».

لهذا فاتحت صاحب الأمالي أن يكتب شهادة يُصادق على ما أملاه، وأن ما ورد هو كلامه، لا زيادة فيه ولا نُقصان! في البداية رفض الرَّجل أن يكتب لي مثل هذه الشَّهادة، قائلاً: «وهل طلبتُ منك عرض ما أمليْتُه عليك حتى تطلب شهادتي مكتوبة، فأنا أثق بك»؟!

قلت: الأمر لا يهمني، إنما يهمُّ القارئ، ويغلق أفواه مَن سيتقوَّلون، وإن هذا الأسلوب كان متّبعاً، في ما مضى مِن الزَّمن، فعندما كان الحقوقي ووزير العدل الأسبق مصطفى علي (ت 1980) يبيّض أو يكتب ما يمليه عليه الشَّاعر معروف عبدالغني الرَّصافي (ت 1945) كتب الأخير شهادة، بأن ما ورد كان صحيحاً.

لا أُعَرّفُ في هذه المقدمة بالسَّيد طالب الرِّفاعي، فهو لم يترك مجالاً لي للبحث في سيرته أو شخصه، إنما تجد في أماليه حياتَه انطلاقاً مِن مسقط رأسه مدينة الرِّفاعي، جنوب العِراق، بدءاً مِن انتقال أسرته إلى هناك، وهم الحِلِّيون بالأصل، وحتى ميله إلى اليسار بحدود بغضه للفقر، ثم رحلته إلى النَّجف، مروراً باتخاذه مقبرة للسكن والدِّراسة، بعد أن شحّت عليه المدارس الدِّينية بغرفة لكثرة الدَّارسين، وهذا بحد ذاته مفارقة. قال لي: وهو يقرأ ويُراجع هذه المقدمة: «سيظنُّ القراء أني أمتهن القراءة في المقابر، أي أسترزق منها» قلت: أهل الظَّن كثيرون، وسيحسبونها على المستملي!

كيف تتحول المقبرة بالنَّجف إلى مكان دراسة وسُكنى، ينام ساكنها فيها ملء جفونه، ثم دخوله الحوزة الدِّينية، وما نجده مِن معلومات ثرية عن مناهج هذه الدِّراسة وأساليبها، ومَن تعرّف إليهم، فصاروا أصدقاءً ورفاقاً في العمل السِّياسي، فالانتقال إلى مصر إماماً للشِّيعة هناك، وشهدت تلك المرحلة حوادثَ جساماً بالنِّسبة إليه، تتوّجت بالتعرف شخصياً إلى جمال عبدالنَّاصر (ت

1970)، ثم محمد أنور السَّادات (اغتيل 1981)، فاللقاءِ بشاه إيران، لكن وهو جنازة بلا تاج وبلا روح، ومنها تبدأ معاناة أُخرى دامت ما يُقارب الثَّلاثين عاماً.

كنت مستأنساً بحديثه طوال الشَّهر، والرِّفاعي يمزج بين اللغة المُلائية ولغة الثَّقافة الحديثة، ووجدته لا يعرف الأحاديث والقصص المبتورة، فكم اعترض عليَّ لأني طلبت منه أن يبدأ في جوهر القضية بلا مقدمات، قائلاً بحدة: «لا تقاطعني دعني أسترسل في حديثي، فيصعب عليَّ شحذ الذَّاكرة بلا بدايات القصص، إذا أَردْتَ فاكتُبها أو لا تكتبها، لكني سأقولها». أو يرد عليَّ قائلاً: «ستأتيك النتيجة ملبلبة (كناية عراقية عن الشَّيء الجاهز)، وأنت خذ الجوهر وارمِ بالقشر»؟!

وبعد أن ينهي المقدمة، يقول: «ليس هذا الشَّاهد»! أي ليست القصة إنما محاولة استحضارها مِن بئر الذاكرة، بعدها يبدأ بجوهر القضية. وجدت طريقته صحيحة، فربَّما طلبتُ منه أن يذهب إلى الجوهر تعباً أو كسلاً مِن تحويل حروفه المسموعة إلى حروف مكتوبة، لكن تبقى القصص مبتورات بالفعل لولا طنبه في المقدمات.

كان كثيراً ما يأتي بما يُسمِّيه بحمضيات الكلام، وهو ما نسمِّيه بملح الكلام، وتلك طريقة قديمة، تبنّاها الأقدمون بغية التَّرويح عن القارئ، ويأتي في مقدمتهم ابن بحر الجاحظ (ت

255 هـ)، وأبو حيان التَّوحيدي (ت 414 هـ). كنت قد كتبت طرساً كاملاً تحت عنوانٍ «الكتابة المريحة» ضمن كتاب «لا إسلام بلا مذاهب وطُروس أُخر»(دار مدارك 2011)، أتيت فيه على كبار قصدوا إدخال ملح الكتاب كي يبعدوا عن القارئ السأم والملل. ومع تعليقي معترضاً على استرساله في حمضيات الكلام، بحسب ما يسمِّيها، إلا أنه لا يكترث باعتراض، فلا بدَّ من أن يُكمل حديثه، مع أنني أحياناً أتوقف عن الكتابة.

فعندما يطلب مني قراءة آخر كلمة كتبتها، وتأتي مفردة: كثير، يرد عليَّ قائلاً: زدها: «كثير وكثير جداً». إنه خطيبٌ مِن الخطباء المعممين، الذين تدربوا في مدرسة غير مدارسنا، يمتلكون المنابر، ويسترسلون بلا تعليق أو اعتراض، فهو يُقدم خطبةً لا محاضرة أو ندوةً! كانت عربيته صافية صرفاً ونحواً، فقد تعلموا أُصول وأركان اللغة مِن كتب معتبرة.

إلا أن الخلل اللغوي بدأ يتسرّب إلى أصحاب العمائم، مِن خريجي الحوزات الدِّينية، وصار المعمم يلحن لحاناً فجاً لم تُدرب ألسنتهم على اللغة السَّليمة، ولو لم أسمع لحون هؤلاء لم استغرب سلامة لسان السَّيد طالب الرِّفاعي، إنما صارت ألسنة المعممين أكثر تشوّهاً مِن ألسنة المذيعات والمذيعين في أغلب الفضائيات.

درس جيل الرِّفاعي للتثبت في اللغة: «الأُجرومية» لمحمد بن محمد الصَّنهاجي المعروف بابن أجروم (ت 723 هـ)، و«قطر النَّدى وبل الصَّدى» و«مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» لأبي محمد عبدالله جمال الدِّين المعروف بابن هشام (ت 761 هـ)، و«ألفية ابن مالك» لمحمد بن عبدالله بن مالك (ت 672 هـ)، و«شرح الألفية» لولده بدر الدِّين محمد (ت 686 هـ). فلا يُجتَهد في الفقه بلا ملكة النَّحو والصَّرف والبلاغة، دراسة في المقدمات قد تمتد لسَّنوات، مع أنهم يعتمرون العِمامة حال البدء في الدِّراسة.

فضلاً عن ذلك فالرَّجل درس العربية ونحوها وصِرفها أكاديمياً، عندما تهيأت الفرصة له بمصر، فبعد أن انهى مرحلة الدِّراسة في كلية الفقه بالنَّجف (1962)، التي تأسست العام 1958 واعترفت بشهادتها الحكومة العراقية رسمياً العام 1959، توجهت أنظاره إلى الدِّراسة بمصر، فحصل على الماجستير من جامعة القاهرة- كلية دار العلوم في موضوع «أُساليب التوكيد في القرآن الكريم» (1976)، والدُّكتوراه في موضوع «نحو الخليل- دراسة وعرض» (1981)، وكان المشرف على الرِّسالتين الدُّكتور علي النَّجدي ناصيف.

تأتي أمالي الرِّفاعي على مستوىً كبيرٍ مِن الأهمية، فهو الشَّاهد الحي بعد أن لفظ الكثيرون أنفاسهم، نجد فيها رواية أُخرى وصوت آخر، يكشف بجرأة الصِّراعات بين الكبار على المرجعية، على أشياء كبيرة وصغيرة. كان الرِّفاعي مشاكساً حركاً، اعترف

أنه تصرف بلؤم وتآمر في العديد مِن المواقف. لكن رِفاعي العشرينيات، مِن عمره، غير رِفاعي السبعينيات والثمانينيات، دمعت عينه فرحاً بسقوط عبدالكريم، وها هي دمعت الآن على سقوطه، يرى بمشهد قتله وإهانته مِن قبل ذلك الجندي النَّكرة فاجعةً، وهو يُحرك رأسه بحذائه أمام شاشة التلفاز.

هناك مراجعة، وإن كانت متأخرة، في أمالي الرِّفاعي، قلت ليست مذكّرات فقط، إنما تقييم أيضاً للمواقف، وبصراحة غير معهودة لدى أترابه ممَن كتبوا سيَرهم أو مذكراتهم، فقد ظلوا فيها مصرّين على ما كان قبل أربعين أو ثلاثين عاماً، ليس بينهم مَن ملك الشِّجاعة، وقال: أخطأت هنا، أو قصّرت هناك! إنما ظهروا أبطالاً على مدى العمر، يتحدثون عن الخمسينيات وكأنها الثَّمانينيات، ليست لديهم فواصل بين الأزمنة، ومشاعرهم تجاه خصومهم ظلت كما هي مثلما كانوا متشابكين معهم قبل نصف قرن مِن الزَّمان.

هكذا قرأنا ما كتبه الإسلاميون كافة. بداية مِن أولاد المراجع إلى النُّشطاء في حزب الدَّعوة، والإخوان المسلمين، هم على حق وغيرهم على باطل، هم يمتلكون الحقيقة دون سواهم! استمروا في عداوتهم مع أن الأسباب قد انتهت، وإن صدرت فتوى ضد الحزب الشِّيوعي في العام 1959 فإنهم ظلوا يتبنّونها في منتصف الثَّمانينيات، ونشروها في صحفهم، بمعنى الزَّمن ووحدة المحنة لا تعني شيئاً في عرفهم. كذلك الحال في خصومهم لم

يراجع أحد منهم وينظر إلى تلك الصِّراعات بشيء مِن الحيادية والمعقولية، فظلوا يشيرون إليهم بعبارة قوى الظَّلام، وبالجملة إن عدم نقد المواقف السَّابقة لا يعني سوى الإصرار عليها!

هذا ما تمكّن الرِّفاعي مِن التَّخلص منه، وهو يُملي ذاكرته، وأعني أنه نقل الصُّورة مثلما كانت، وأعطى رأيه فيها وهو يحمد الله أن أطال بعمره حتى هذه السَّاعة، وكأنها كانت حملاً ثقيلاً سكبه على الورق وللقارئ الحكم. سكبها، وهو يعلم علم اليقين أن وثائقَ بحجم الجبال لا تتمكن مِن إقناع متعنّت برأيه، فهو على شاكلة مَن جاء في القرآن ذكرهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾! وهؤلاء غير معنيين بأماليه لا مِن بعيد، ولا مِن قريب.

إنها معلومات وليست تحليلات وفلسفات، كان صاحبها شاهداً عياناً ومشاركاً في خلق حوادثها، لكلِّ هذا كان اهتمامنا وسعينا إلى إصدار هذه الأمالي. تدخّلنا في السُّؤال مِن أجل شحذ الذَّاكرة، ولم نتدخل في المعلومة، وما أراد نشره وما طلب إهماله.

كان ضبط الوفيات والمقاتل والتعريف بالأعلام في الهوامش مِن مسؤوليتنا، فأي خطأ أو زلل لا يُحسب على صاحب العِلم إنما يُحسب على صاحب القلم.

رشيد الخيُّون

كانون الثَّاني (يناير) 2012

مُقدّمة صاحب الأمالي

قد يُثار سؤال مؤدّاه ما السِّيرة الذَّاتية؟! أفضِّل أن يكون الجواب بالشَّكل التَّالي، كما أراه وكما أتخيله:

1 - الاعتماد على فكرة التَّعبير عن الذَّات بداية مِن الميلاد والنشأة والعائلة والبيئة الاجتماعية والجغرافية، تاريخ بداية التَّعليم، مراحله، نوع المعرفة، فروعها، صلته بالتُّراث، نظرته إليه، التجديد، والمعاصرة، وتطور الوعي، موقفه مِن الاختلاف بين القديم والحديث، التَّطور التَّاريخي للشخصية الكمي والنَّوعي. الذَّاتية الشَّخصية والآخر في الاتفاق والاختلاف، الحساسية، وتأثيرها في كلٍّ منهما في الإيجاب والسَّلب.

هذا أبرز ما يُستخدم في ترجمة الذَّات، شخصية وسيرة، والأكثر شيوعاً سواءً ما يكتبه الشَّخص عن ذاته أم ما يكتبه شخص آخر عن غيره، وكلا النَّوعين كان وإلى الآن يُسمَّى سيرة أو ترجمة قد ألّفها القرّاء في بلدان العالم كلها، لا فرق بين القديم والحديث والشَّرق والغرب.

لقد نُحت «مصطلح سيرة ذاتية في اللغة العربية مِن مصطلح مذكرات بمعنى السَّيرة الشَّخصية، وهذا الاستخدام المزدوج مستمر إلى اليوم بشكل تبادلي مع سيرة ذاتية وذكريات. وإن الجزء الثَّالث مِن الأيام ظهر في الأصل كمذكرات طه حسين، والمفترض يعني السِّيرة الذَّاتية لطه حسين بالقدر نفسه الذي يعنيه عنوان: ذكريات طه حسين»[1].

2 - إن السِّيرة الذَّاتية تحوي عناصر مِن التَّاريخ، أو الشَّأن الخاص، وقد أشرنا إلى ذلك في السُّطور المتقدمة، التي يفهم منها أنها تحمل معنى محدداً قبل ظهوره واشتهاره ما بين السَّلف مِن أمتنا العربية ما قبل الإسلام وما بعده في الشِّعر والنَّثر على حد سواء وبشكل ملحوظ، وكثر ظهوره في عصورنا المتأخرة. قال الدُّكتور الغامدي: «إن السِّيرة الذَّاتية تسجيل صادق وقصدي لمرحلة زمنية مضت (أو على الأقل لعدد مِن السَّنوات) والتجارب والأفعال وآثارها المباشرة والبعيدة على الفرد... ولم يكن هناك أي قواعد صارمة أو تقاليد تحكم شكل أو مضمون السِّيرة الذَّاتية»[2].

للمزيد عن السِّير الذَّاتية لعدد مِن الكتّاب والأدباء المصريين وغيرهم، ابتداء بـ«الأيام» لطه حسين، التي صدر الجزء الأول منها

(1) تيتيز روكي، في طفولتي، ترجمة طلعت الشَّايب، القاهرة: 2009، ص 126 بتصرف بسيط.

(2) الغامدي، أطروحة الدكتوراه، 1981، ص 41. انظر أيضاً: في طفولتي، مصدر سابق، ص 132.

العام 1929؛ والثَّاني 1939، وانتهاء بِسِيَرٍ صدرت بعدها، وهي كثيرة، مثل: «حياتي» للأستاذ أحمد أمين المصري (أضفت المصري لإخراج الأستاذ أحمد أمين العراقي الكاظمي كي أبعد عن القارئ التَّوهم بين الشخصيتين)، نشره 1950 - 1952، وكان عمره آنذاك ستين عاماً، وتوفى في العام 1954 وميلاده في 1886. و«طفل مِن القرية» للأستاذ سيد قطب (1906- 1966)، تاريخ النشر 1946. ويعتبر الكتاب دراسة شاملة وعميقة، حافلاً بالتَّجارب الشَّخصية. و«سطور مِن حياتي» لمحمد قرة علي، نشره في العام 1988 (بيروت – لبنان)، والكتاب حافل بالتَّجارب الشَّخصية والاجتماعية.

هذا وقد شهد القرن العشرين ازدهاراً كبيراً في كتابة السِّير الذَّاتية والمذكرات في عالمنا العربي، نختتمها بالأستاذ ميخائيل نعيمة (1889–1988)، الكاتب والنَّاقد والأديب في كتابه «سبعون»، ألّفه بعد بلوغه السَّبعين مِن العمر، ونَشره في العام 1959، والكتاب متكامل السَّرد، وفي منتهى الرَّوعة.

هذا النَّوع مِن الكتابة يختلف، ليس مِن عصر إلى آخر فقط، إنما مِن شخصية إلى أخرى لاختلاف الأعراف والتَّقاليد والنَّشأة البيتية والحالة الاقتصادية. ولما كانت نقطة الانطلاق مِن كتاب «الأيام» المذكور قبل سطور لنأتي على قول بعض الكُتاب فيه: «إن الأيام هي التي أثرت أكثر مِن أي عمل آخر في فن السِّيرة الذَّاتية في الأدب العربي الحديث، وإن الكثير مِن الكُتاب قد ساروا على درب طه حسين محاولين تحقيق مثل النَّجاح الذي حققه».

«الأيام» عبارة عن سرد أيام الطُّفولة ومراهقة الصِّبا، ومِن السَّهل أن يُشكل وحدة أو توحداً بينه وبين مؤلفه الفتى، وقد كان شكلاً جديداً وأصلاً بمقاييس زمانه ولغته العربية.

ومِن الأوائل الذين قلّدوا هذا النَّوع مِن العمل أديب كبير في عصره، هو مؤلف كتاب «طفل مِن القرية»، الذي أهداه إلى صاحب الأيام، قائلاً: «يا سيدي أيام كأيامك عاشها طفل مِن القرية، في بعضها مِن أيامك مشابه، وفي سائرها اختلاف. اختلاف بمقدار ما يكون بين طبيعة وطبيعة، واتجاه واتجاه... ولكنها، بعد ذلك كله، أيام مِن الأيام». وسيد قطب مؤلف «طفل من القرية»، الذي أصبح قطباً في جماعة الإخوان المسلمين ومِن أكابر مفكريهم، ولعلَّ قطب، مثلما أتصور، يعتبر ما قاله قبل عشرين عاماً مِن استشهاده ينقص مِن مقامه الإسلامي.

يُعتبر «طفل مِن القرية» مِن أصداء «الأيام»، كما جاء في إهداء المؤلف، ومعظم النُّقاد ومؤرخي الأدب يعتبرون هذا العمل أول سيرة عربية في هذا النَّوع مِن السلك الأدبي. وليس لزاماً علينا الاتفاق معهم في ذلك الذي لا مجال لسرده هنا. كلُّ الذين تركت مذكراتهم صدىً ودوياً في عصرهم وما بعده، اجتزأت على فترة محددة، أو فترات، مِن حياتهم، وكان الحديث عنها لا أقول إنه ناقص، بل أقول بجزم ويقين إنه ليس مستوفياً قصة حياتهم في تلكم الفترات بالذَّات. لكن عملهم هذا قد غاص في أجزاءِ شديدة الحيوية، وإن كان الكثير منها ينقصه نوع الوحدة أو التَّماسك.

وإن كان بعضهم جعل «الأيام» عملاً ناجحاً باعتباره قصة حياة تبدو مزيجاً مِن الصورة الشَّخصية والسِّيرة الذَّاتية(1). ومع الاحترام للعمل وصاحب الرأي ولصاحب الرَّأي فيه، أعتبره عملاً غنياً وروائياً خالصاً وإنجازاً رائعاً. لكن شهرته والنَّجاح الذي حققه لا يعود إلى مصداقيته.

إنما التَّعويل في ذلك كلُّه أجده تحقيقاً لا تقريباً يعود إلى مكانة طه حسين الاعتبارية بمقاييس طلابه والمتزلفين تمشياً مع ألقابه: الباشوية والوزارة، وعمادة الأدب العربي، ورئاسة المجمع العلمي «مجمع اللغة العربية» بالقاهرة، ومكانته الشَّهيرة بين المجامع العلمية العربية مِن يوم بداية الإعلان عنه في ثلاثينيات القرن العشرين.

مِن كلِّ هذا احتفى كتاب «الأيام» بشهرته المبالغ فيها، وما ذكرته وإن كان غاية الوضوح لكلِّ عالم ومثقف غير تقليدي لا يُقلل مِن قيمة «الأيام» باعتباره عملاً إبداعياً رائعاً، له نظائره وأشباهه في منجزات الآخرين الفنية. وما ذهبت إليه هو نفسه ما حرره الأستاذ سيد قطب بقوله: «إلى صاحب الأيام الدُّكتور طه حسين بك -قبل أن يحمل لقب الباشوية- إنها يا سيدي أيام كأيامك عاشها طفل مِن القرية في بعضها مِن أيامك مشابهة، وفي سائرها عنها اختلاف. اختلاف بمقدار ما يكون بين جيل وجيل،

(1) سيد قطب، طفل من القرية 1946، ص 43.

وقرية وقرية، وحياة وحياة، بل بمقدار ما يكون بين طبيعة وطبيعة، واتجاه واتجاه... ولكنها -بعد ذلك- أيام مِن الأيام»[1].

فالأهداء محدد المعاني، يأتي بها بمقدار لا يزيد فيشط، ولا ينقص فيحط. وبهذا التماسك جعل نفسه بعيداً عن الإفراط والتَّفريط، وسار في الجادة الوسطى، لكنه ولا غيره بإمكانه إنكار فضل السّبق لصاحب «الأيام» على مدى الأعوام. وهذا يذكرني بقول ابن مالك، صاحب نظم الألفية في علم النَّحو، عن شريكه في الاختصاص بعلم اللغة العربية الشَّهير بابن معطي، الذي سبق إلى قول «الرَّجز» المعبر عن قواعد «النَّحو» ما يُنظم بدلاً مِن النثر لسهولة حفظ الأول وتذكره:

وهو بسبق حائزٌ تفضيلا مستوجباً ثنائي الجميلا

فالأسبقية لزاماً على أرباب الفنون والمعارف والحِرف المختلفة، لها حق التَّقدير والثناء، لأن كلَّ جديد انطلق عن التَّليد. فالانجاز السَّابق عدة وإعداد للاحق. وبهذا قامت وازدهرت العلوم والفنون والثَّقافات في كلِّ العالم المتمدن شرقاً وغرباً، وبه وعليه نشأت الحضارات الإنسانية. فصاحب «طفل مِن القرية» يكاد يكون توافقاً أو توحداً في ما بيني وبينه بالنِّسبة إلى صاحب كتاب «الأيام»، واحترام إنجازه بعيداً عن الغلو في المدح.

(1) المصدر نفسه، ص 143.

عبدالرَّحيم علي

لمنزلة هذا الرَّجل أودُّ الإطناب عند الحديث عنه، فيمكن اعتبار ما قام به هذا الإنسان نوعاً فريداً مِن تاريخنا المعاصر ليس هناك ما يشبهه، وعلى وجه الخصوص في السير الذاتية، مع ضياع ما كتبه، أو عدم ظهوره إلى النور، فالرجل قُتل وما زال تراثه مُضاعاً.

يمكن اعتبار عبدالرَّحيم علي هذا غريباً فهو لم يكن عربياً في جذوره، إلا أنه كان قومياً عربياً مِن قمة رأسه إلى أخمص قدميه. وكان يقول لي: «العربية انتماء إلى لغة وثقافة، وليس إلى عِرق وعنصر». وكثيراً ما سمعته يقول: «كلُّ مَن تكلم العربية فهو عربي». وينسب هذا القول إلى النَّبي (ص)، وقد شاهدت والده محمد علي إذا تكلّم تغلب عليه اللكنة التُّركية.

لي تجربة شخصية مع عبدالرَّحيم علي، كنت أراه أيام فترة الشَّباب شاذاً وغريب الأطوار، ومثيراً للدَّهشة، ومِن ملاحظاتي على ذلك:

1- إنه شاب ذكي له القدرة على مواصلة دراسته حتى نهاية سنوات الجامعة، وما بعدها الماجستير والدكتوراه، لكنه توقف عند الصف الثَّالث المتوسط، وهو آخر عهده بالدِّراسة النِّظامية.

2- صدرت له مؤلفات في وقت مبكر، أتذكر منها «الترجمة القرآنية»، وقد أهدى كتابه هذا إليّ، فكان يستحق الاحترام والتَّقدير

في نظر المُهدى إليه، واعتبره جديداً ونموذجاً في زمنه وموضوعه، الذي لم يأخذ حقه كما يجب في الدَّرس القرآني المعاصر. ثم تطور الأخ عبدالرَّحيم نوعاً ما في تجربة التأليف، فصنف كتابه الأدبي عن شاعر عراقي كبير، تناول فيه أدبه وسيرته الذَّاتية مثّل فيه خطوة إلى الأمام عن حياة الشَّيخ عبدالمنعم الكاظمي، وكان لهذا الكتاب أهمية خاصة في حينه.

3- يمكن القول إن هذه المرحلة في كتابات عبدالرَّحيم بمثابة طفرة في تاريخ تسجيل الحدث اليومي في زمنه، كان، كما علمت منه، يُسجّل يومياته تباعاً، لكن بطريقة معاصرة تخالف الطريقة التقليدية المرتبطة بالجبرتي في يومياته، أيام الحملة الفرنسية على مصر، أو يمكن اعتبار ما قام به عبدالرَّحيم علي أشبه ما يكون بأعمال رفاعة الطَّهطاوي، المترجم والرائد الإحيائي، الذي كتب عن الحضارة الأوروبية بعد أن قضى خمسة أعوام إماماً (1826-19831) لأول بعثة طلابية مصرية إلى فرنسا في عهد محمد علي، ومع ذلك يظل لعبدالرَّحيم ريادة السِّبق في عصره.

4- المغامرة الأخيرة لصديقنا عبدالرَّحيم علي (رحمه الله تعالى)، واللعنات تُصب على قتلته، هي انتقاله مِن كاتب يوميات إلى صاحب أسفار تاريخية وأعمال تجاوزت الجغرافيا العراقية والعربية أحياناً، مثل الكتابة عن الصِّلات بين النَّجف والقاهرة، والكتابة عن المجدد في الدَّرس الأُصولي للفقه والتَّشريع رائد الاجتهاد وزعيم حركة «المشروطة» الإمام الأخوند محمد كاظم

الخراساني، وكتابه الآخر عن شيخ أصحاب المعاجم في تراجم الأعيان العلامة الطَّهراني المحسن الشَّهير بلقب أغابزرك، صاحب «الذَّريعة إلى تصانيف الشِّيعة، وأعلام الشِّيعة ونقباء البشر، التي يمكن اعتبارها نوعاً فريداً في عالم الصَّادرات النَّجفية».

مِن بين الذين ترجم لهم الأستاذ عبدالرَّحيم طالِب الرَّفاعي، وكان عدد الصفحات، مثلما أبلغني، في سفرته الأُولى والأخيرة إلى القاهرة تتجاوز المائة صفحة في الطِّباعة الحديثة. قال لي: إني كتبت عن الرِّفاعي ما يثير دهشتك ويُسرك كثيراً كثيراً، وستعلم أن جذور أخوتنا الشَّبابية لا تزال كعهدك بها، وما نتج منها في هذه التَّرجمة ما هو إلا أثر يعتبر نموذجاً لتلكم الأيام والليالي، التي قضيناها سوية بالنَّجف الأشرف.

قال لي: «أتذكّر يوم كنت تسخر وتهزأ حين ترى قصاصات الجرائد والمجلات في يدي»؟ قلت: أتذكر ذلك جيداً، وأنت كنت تقول لي: سيدنا ستعرف قيمة ما تسخر منه بعد فترة مِن الزَّمن. وفعلاً سجلت على نفسي الآن خطأً كبيراً بعد أن رأيت ضخامة عمل تلك القصاصات، وأثرها في مجال كتابة التَّاريخ وتراجم الأعلام.

إن موضوع التَّساؤل معك يا أخي عبدالرَّحيم متى نتناول مؤلفاتك بأيدينا، فقد عرفنا تركيزك وكيفية اهتمامك الذي تكشف عن بُعد نظرك، وضحالة نظرتنا إليه في البدايات الأُولى، وكم تكون سعادتي غامرة يوم أرى مؤلفاتك على رفوف مكتبتي

الخاصة، فأُسجل انطباعي الجديد بعد الوقت الذي تصرم مِن رحلة العمر.

أقول إن الذي كتبه عبدالرَّحيم محمد علي، كما أعرفه، يفوق ما كتبه الشَّدياق في كتابه السَّاخر «السَّاق على السَّاق»، وما كتبه الأستاذ طه حسين في كتابه «الأيام»، وإن حقَّق نجاحاً كبيراً. وأين هذا مِن اسهامات أخينا عبدالرَّحيم، التي لم تنشر لعدم العثور عليها حتى الآن، وإنما ذكرت «الأيام» لشهرة صاحبها، وإلا فالذين قاموا بمحاكاتها كثيرون حتى هذه الأيام لا يتسع مجال موضوعنا لتناولهم تفصيلاً.

فعمل عبدالرَّحيم لم يتأسس على السِّيرة الذَّاتية له، بل تجاوزها إلى إسهامات أُخَر مِن نوع مختلف عن قصة حياة، في الوقت الذي أتذكر فيه الجهد الذي بذله الفقيد في الكتابة عن حياتي أجد نموذجاً مِن العلاقة مع التراث، الذي يتناسب وما ترسخ فيه من أصالة، وما أسهم فيه مِن أبناء عصري ومدينة النَّجف الأشرف، وبلادي الأوسع العِراق، ومَن أعرفهم مِن المعاصرين في البلدان الأُخر. هناك وثائق وعلائق تشدني إلى تراث عبدالرَّحيم محمد علي الضائع إلى الآن.

في الحقيقة أراني قد اتخذت سبيل الإطناب غير المُمل في تصوري وتقديري - وليس الإسهاب - بالنِّسبة إلى مقدمة التَّقديم للكتاب المشتمل على ما أمليته مِن ذكرياتي، التي أخذت عنوان

«الأمالي»، وهي ليست كلّها، إنما عكست جانباً مهماً من حياتي، ولو أطلقت العنان لكانت مجلدات إذا أخذنا منعطف الاستفاضة اتجاهاً لنا في ذلك. لقد عاصرت في مسار حياتي أجيالاً متعاقبةً، وأحداثاً لها أصداؤها في دنيا النَّاس، والكثير مِن تلكم الأحداث وأصحابها على أهميتها لم تؤد كصور ومضامين.

مما لا شك فيه أن للنسيان، وتقادم الزَّمان، أثراً كبيراً، ولا بدَّ للقادرين على إخراجها على النَّحو الصَّحيح أو الأقرب إليه أن يبادروا إلى ترسيخ ذلك بأقلامهم المباشرة، أو الاستعانة بالآخر ما دام المجال واسعاً وفسحة العمر فيها بقية. ولا يدري الإنسان ماذا يأتي به الغد، فالأيامُ حافلةٌ بغير المتوقعات لحظةً بلحظة، لا ساعةً بساعة، ولا يوماً بيوم، والشَّواهد على ذلك لا تخفى على أحد. وكفى بقول أبي الحسن التُّهامي ذكراً ووعظاً[1]:

بينا ترى الإنسان فيها مخبراً   وإذا به خبر مِن الأخبار

ولإسهامي في كتابة ما يُسمَّى السِّيرة أو المذكّرات، أو ما اتفقنا عليه بعنوان «الأمالي»، ووقوفي على منظومة، مما كتبه الآخرون في هذا الحقل بالذَّات، حفّزني على الإطالة – وربَّما يراه غيري استطراداً، مَن يدري لعلَّ الآخر على صواب، وأرجو أن يكون كذلك. فللنَّاس في ما يقولون أو يعشقون مذاهب شتى.

---

(1) أبو الحسن علي بن محمد بن فهد التُّهامي (ت 416 هـ)، قالها راثياً ولده الصَّغير، ومطلعها يقول:

حُكم المنيّة في البرية جارٍ   ما هذه الدُّنيا بدار قرار

وأنا شخصياً أرى أن الكثير مما اعتبره الدُّكتور رشيد الخيُّون سرداً تاماً، ليس كذلك نصاً مستوفياً، بل اعتبره مبتوراً، وأنا شخصياً أرى الكثير مما يعتبره القارئ، وربَّما الدُّكتور الخيُّون كذلك، أنه سردٌ مستوفٍ فإني أراه حفاظاً على الحقيقة لم يؤدِ كلَّ ما استوعبته الذاكرة في حينه بشكل يحظى برضاي التَّام. وليس مِن جرَّ النَّار إلى القرص، أو التَّرويج والدِّعاية اعتبر ما سجله الدُّكتور الخيُّون في جلسات محدودة بمدينة أبو ظبي عاصمة دولة الإمارات العربية المتحدة هو دون ما يجب أن ينتشر مِن مذكراتي، أو يظهر إلى النَّاس الذين يتوقعون أن في صندوقِ ذاكرة الرِّفاعي أكثر قياساً بالآخرين مِن معاصريه، وهو توقع لا أُخفي ارتياحي به لحظة سماعه مِن غيري.

سمعت هذا الرَّأي مِن أخي العلامة الشَّهيد محمد مهدي الحكيم بشكل لافت في مجلس عام، في منزل المهندس محمد علي الشَّهرستاني بلندن، لا أتذكر اليوم تحديداً مِن شهر كانون الأول (ديسمبر) 1985 وكان السَّيد الحكيم يعني ما يقول، وتصرّفه ينم عن غرض مقصود كشف عنه بقوله: أخي سيد طالب – أو قال أبو باقر – حرام عليك! قلت له: أبو صالح ماذا تقول! قال: أقول: حرام عليك إذا لم تكتب عن التَّاريخ المشترك بيننا، وأنت أقوى القادرين على كتابته لعلمي بما منحك الله تعالى مِن قوة الذَّاكرة، وأن عواقب الدَّهر وصروفه غير معلومة لنا، أسرع يا أخي في وقت قريب، وأكتب كلَّ شيء عن ذلك العهد تعرفه. هذا مضمون كلام

أخي الحكيم الشَّهيد بدقة وأمانة أفرضها على نفسي في كلِّ شهادة أُدلي بها للتَّاريخ.

كان السَّيد جودت القزويني يحضّر رسالته للماجستير في كلية دار العلوم – جامعة القاهرة قد حالفني التوفيق بمعرفته، ويكثر مِن زياراتي في دار سكناي بالقاهرة، وقصة هذا الإنسان عجيبة، فقد كان الجزء الأكبر مِن وقته لا يصرفه في دراسته الخاصة بحقل اختصاصه، بل يصرفه في أعمالٍ كلاسيكية. على سبيل المثال جمعَ المخطوطات الخاصة برجال أُسرته كجده الأعلى السَّيد مهدي القزويني وغيره مِن علماء وشعراء الشِّيعة، وقد صدرت له بعض المؤلفات المحترمة عن الجدِّ موضوع اهتمامه الأكبر قبل تخرّجه مِن الجامعة، كان راوية لبعض الشُّعراء، ويحفظ الكثير مِن الشِّعر، وهو في الوقت نفسه شاعر لم ترسخ قدمه بعد في فن الشِّعر.

ختام القول عنه وفيه إنه كان موسوعياً في معرفة رجال عصره مِن أهل علم وسياسة وأدباء وخطباء وشعراء، فقد جمع عدداً وفيراً مِن تراجمهم بخط أيديهم، ونشر منها ما يخص السِّيرة الذَّاتية في كتابه الخاص بالشَّيخ عزِّ الدِّين الجزائري، ومخطوطات نضعها بعناوين متعددة كالأدب المنسي، وروض الخميل، وأخيراً رجال القزويني في عشرين مجلداً، وغير ذلك مِن الدراسات والمؤلفات المتنوعة بقلم الدُّكتور جودت القزويني.

نتحول بالحديث إلى ما يخص مذكّراتنا في هذا السِّياق، قلت قبل سطور: قد حالفني التَّوفيق بمعرفته، ويبدأ الحديث مِن هذه النُّقطة. أطلعني ناصحاً ومشجعاً أنه مستعد لكتابة مخزون ذاكرتي المكنون في صدري ويتولى نشرها بعنوان: «مذكرات طالب الرِّفاعي». ولما كانت له كلُّ تلك القدرات والمواهب الذَّاتية والمكتسبة، وهذه المشاعر الأبوية الطَّيبة تجاهي لم أُخيّب ظنه برؤية حِسن الظَّن فيه، ولستُ ممَن يرفضون الاعتراف بالجميل إذا كان مِن أهله، وفي المقابل هذا كلُّه أغراني بفكرة نشر مذكراتي من دون تردد، وبصيغة الـ«أنا» أبديت الموافقة التَّامة، وقلت له ابدأ رحلتك ومشوارك معي على بركة اللّٰه تعالى.

لقد كان الأمر هكذا باختصار شديد، وقلتُ له اسأل معتمداً على ذاكرتي فهبَّ ودأبَ كعادته مع غيري في توجيه الأسئلة، ومِن جهتي لم أرفض له سؤالاً، وقد أوضحت له الكثير حال الإجابة.

ومِن الجدير بالذِّكر أن هذه الرحلة بدأت في العام 1977 بالقاهرة، وبملاحقة شديدة في توجيه السؤال وتلقي الجواب حالاً. وهنا تحققت أمنية الشَّاب بهذه الفرادة التَّاريخية التي لا يجدها في حقبتها الزَّمنية عند غيري، وهي فرادة شملت كلَّ ما يتعلق بتشكيل «حزب الدَّعوة»، وتاريخه وقادته الأوائل، وتطور مراحله إلى حين هجرتي إلى مصر ومستقري بالقاهرة، ممثلاً لمرجعية السَّيد محسن الحكيم، وإماماً للشِّيعة، وهو اللقب الذي خصّني به الأزهر الشَّريف.

وُجهت إليّ الدَّعوة في العام 1969 لحضور المؤتمر الثَّالث لعلماء المسلمين، كعضو مراقب، وكنت أحضر كل الجلسات العامة والخاصة، وكانت الدَّعوات توجه إليّ باسم كبار رجال الدَّولة المصرية، ويُكتب في البطاقة هذا العنوان «إمام الشِّيعة بالقاهرة». ظل هذا الحال بداية مِن هجرتي مِن العِراق (1969) في أوائل تشرين الأول (أكتوبر) إلى هجرتي مِن مصر في الخامس مِن كانون الأول (ديسمبر) 1985.

لقد استوعبتُ وشهدتُ التَّغيرات الكبرى، التي فرضت نفسها على الحركة (حزب الدَّعوة) وقادته وكوادره الأوائل مِن تموز (يوليو) 1959، أي تأسيس الحزب حتى 7 شباط (فبراير) 1969، أما الذي حصل بعد هذا التَّاريخ للحزب وقادته والرِّجال المتعلقين به فلم أربط شيئاً مِن حديثي بها، وتخلّيت عنها بالمرةِ، أي أقصد عدم التَّحدث في ما يتعلق بما جرى بعد هجرتي وعن مجرياته لا عن الدَّعوة.

عشت بالقاهرة للوظيفة التي كُلِّفت بها مِن جهة أكبر مراجع الدِّين للشِّيعة في عصره الفقيه الإمام السَّيد محسن الحكيم، وبعد وفاته كسبت ثقة المرجع التَّالي له الإمام أبي القاسم الخوئي، وغيره مِن المراجع، وبالخصوص آية الله السَّيد محمد كاظم شريعتمداري، وآية الله السَّيد هادي الميلاني، والأخير توفى قبل الانقلاب على النِّظام الشاهنشاهي.

بدأَتْ كتابةُ السَّيد جودت القزويني عني في تلك الحقبة الزَّمنية، نحو سنتين أو أكثر هو يسأل ويتلقى الإجابة، ويسجلها في الحال، الأمر الذي جمع فيه مادة كثيرة. وبعد أن أنهى رسالته الدِّراسية غادر القاهرة، وفي ما بعد رجع إليها موجّهاً وجهه صوبي بقصد تكملة ما بدأه أولاً، وقد امتلكت اليقين في نفسي بأن المادة قد أشرفت على المقدار الكافي، الذي يجعلها جاهزة للطِّباعة والنَّشرِ، ولم أكن منزعجاً مِن تأخير ذلك على عادتي في الكثير مِن الأُمور التي ترتبط بحياتي، أقول على الطريقة المصرية: «في التَّأخيرة خيرة». مَن يدري؟

استقر السَّيد جودت بسوريا، وتزوج كريمة الحاج جعفر الدُّجيلي، ثم سافر إلى مدينة الضَّباب لندن، وعرفت أخيراً منه عزمه على مشروع الحصول على شهادة الدُّكتوراه. التقيت به أثناء مروري بلندن، في الخامس مِن كانون الأول(ديسمبر) 1985، وتكرر اللقاء أكثر مِن مرة، ووجهت له أسئلة خاصة حول مذكراتي، فكان يُجيب قائلاً: هي بالحفظ والصَّون، ويصعب عليَّ في الوقت الحاضر تقديمها إلى المطبعة، وفهمت منه أنه يريد مني إضافة على ما لديه. استقر هو بأوروبا، وكان مِن نصيبي الاستقرار بأمريكا الشِّمالية بمدينة توليدو أوهايو.

حين وصل السَّيد جودت إلى أمريكا بزيارة خاصة قصدني، ومكث عندي ليلة ويومها، وأعلمني أن مجيئه كان مشروع عمل وليس زيارة تقليدية. وفعلاً سجّل ثلاثة أشرطة مِن مذكراتي ملأها كلَّها

بأجوبة عن أسئلته، التي طرحها في حينه عليَّ، ومِن ثم عاد من حيث أتى.

اكتشفت، بعد أخذه هذه المعلومات الجديدة، أن المادة ستكون نقلةً جديدةً وجيدةً أيضاً على مستوى الإبداع في المشاهد والشَّواهد؛ التي ما تزال تحتفظُ بها المذكرات بشهادة الآخرين، خلال ما كنت أسمع ولا أتهمُّ أحداً منهم بالتزلّف في ما يطرحه على مسمعي في وقته. ولا أخالني مبالغاً إذا قلت: لو أنها صدرت وأخذت محلّها على رفوف المكتبات وتلاقفتها أيدي أهل الرَّأي والفكر بالمواصلة مع الدُّعاة الإسلاميين مِن حزب الدَّعوة وغيره كالإخوان المسلمين وحزب التَّحرير، فكانت ضرباً مِن الكتابة الجامعة الصحيحة المتميزة على الكثير مما طُرح في شارع الكتب الحديثة، فتأخيرها كان سبباً في عدم التَّخلص مِن أخطاء كثيرة وقع فيها الذين كتبوا عن تاريخ الدَّعوة، فالسّبق الزَّمني وحده كان كفيلاً بذلك كلَّه.

وهكذا بقيت المذكراتُ حبيسةَ مدفنها في أدراج وصناديق القزويني حتى حان لها الفرج لتخرج إلى المطبعة، ومنها إلى النُّور؛ ومِن دون اختيار أحدنا تفعل الأقدار ما لا نملك دفعه أو منعه حتى عن أنفسنا. ففي لحظة بائسة تتعرض المطبعة لحريق خلال حرب (2006) في جنوب لبنان، يوم هاجمت الدَّولة الصُّهيونية مواقع «حزب اللّه»، فأكلت النَّار ما في المطبعة أو معظمه، من مخطوطات ومؤلفات، ومِن ضمنها مذكراتي ذات الحظّ البائس،

حُرقت نسختها الأصلية التي لا أمتلك غيرها، فدخلني حزنٌ شديد، وحتى لو كررتها، في ما بعد، فإن ذلك النَّص الأول، الذي كانت بدايته في العام 1977 مِن المؤكد أني لا أستطيع صياغته نفسها لتقادم الزَّمن وبُعد العهد عن الحدث.

انشغلت بالكتابة مِن جديد، وقمت بتسليم الكثير منها نصاً للسيد الدُّكتور جودت القزويني، فتجمّعت عنده مادة غزيرة، وفي العام الماضي ذهبت إلى بيروت للغرض نفسه، وتكررت زيارته، وكان الحديث يجري ويتجدد عن أَنْفَسِ ما أملكه «مذكراتي»، وأقول له: يؤلمني تأخيرها كلَّ هذه المدة، فمتى يُتيح اللّه تعالى لها الفَرج، وتخرج قريباً إلى النُّور، فهناك أصدقاء كثيرون يحبون قراءتها، ومنهم مَن يعتبرني أكثر مِن مقصّر، وكنت أسمع مِن القريب والبعيد على أنها أوهام. فأقول: هذه ليست أوهام إنها حقائق تؤكد مسؤوليتي الأدبية والتَّاريخية معاً. وفي كلِّ الأحوال فإنني أجد نفسي أكثر عذاباً لأني لست قادراً على أن أحوَّل البعيد قريباً، وهنا يأتي السُّؤال: لماذا هذا التَّأخير؟

أقول: باختصار هناك ظروف صعبة جداً يحمل همومها السَّيد المعني بأمر إخراج المذكرات، ولا يمكن لي أن أفرّط به أبداً، فهو مِن أبنائي وأحباب قلبي، وكلُّ ما يحصل له بالتَّأكيد هو ضريبة قلبه الطَّيب، ومذكراتي وإن كانت مِن ضحايا هذا القلب ابتداءً بحريقها وانعدام أهم ما فيها، مع دعائي وخالص تمنياتي

لولدنا الأعز الدُّكتور جودت، فهو بحق يستحق هذا، وأكثر مِن هذا مني. أرجو ألا أكون أحرجه بما سيطلع عليه في وقت قريب بمشيئة الله تعالى.

لقد حسبت حِساب الزَّمن، وأني لا أملك لنفسي موتاً ولا حياةً ولا نشوراً. أجل لما حدثني الدُّكتور الفاضل رشيد الخيُّون، الكاتب الشَّهير في الصَّحافة العربية، وهو مِن أفضل مَن يمتلك حرية الكتابة ونظام النَّقد المنهجي في التَّاريخ والسِّياسة وحقول أُخرى منذ ربع قرن وزيادة، حدثني أن يعمل تحقيقاً معي بخصوص كتابة «مذكراتي»، واختار لها عنواناً لم أعترض عليه «الأمالي»، ليحوّلها إلى كتاب يخرج في موسم معرض «أبو ظبي للكتاب». صمتُّ طويلاً لأفكّر في الأمر، وفي النِّهاية اتفقنا على تحديد الزَّمان والمكان، واعتبرت إتاحة هذه الفرصة توفيقاً جديداً، لعله يُخفّف عني همَّ المذكرات، الذي حملته على أكتافي زمناً طويلاً.

إنني أعتبر نفسي محظوظاً باللقاء الذي أمليت فيه شرائط «كاسيت» عدة، تعود إلى زمن بعيد مِن مخزون ذاكرتي، تناولت فيها أموراً غير مسموعة أنفرد بها، وسوف تكون شائعة بين النَّاس، أخذها الأستاذ رشيد الخيُّون، وجمع مادتها وصبها في قراطيس لتكون بعد أيام كتاباً مقروءاً على مستوى إنجازاته المطروحة في سوح الوراقة.

أقرُّ أنه نقلها بأمانة، كما ذكرتها مشافهةً مِن دون أن يزيد في المادة المسجلة شيئاً مِن عنده، إلا ما يجعلها أفضل بإضافة بعض الهوامش المهمة تفسيراً لكلمة أو توضيحاً لفكرة أو دلالةً على مصدر، وهذا يندرج في عمله الفني، وقد قام بذلك استجابةً لعصرنة الإخراج ولحاجة في نفسي قضاها، وهذا ما حدث ليجعل الكتاب بالتَّأكيد أفضل دقة، وأكثر جمالاً وروعةً.

هذا ولم أجعل مجالاً للعواطف والميول الشَّخصية في ما تذكرت وأمليت، بل حاولت أن أجعل كلَّ حدث في مكانه الصَّحيح، بعيداً عن المجاملة والمحاباة، المطلوب أن يصل المخلصون إلى فكرة جرئية أن يضعوا حداً للإنتهازية والانتفاعية في الدِّين، مِن قِبل الَّذين تربعوا على قمة الهرم الاجتماعي والسِّياسي، بل اصبحوا ولاة للأمور، يتدخلون في كلِّ شيء حتى صار شرع الله ألعوبة بأيدهم كالطُّلقاء وأبناء الطُّلقاء، في حين أن أبا ذر الصادح بكلة الحق عاش غريباً ومات شريداً منفياً بالرَّبذة.

وضعت هذه السُّطور أمام القارئ المثقف الحرِّ، الذي لا يخضع للمؤثرات، ولا يعبأ للضغوط الاجتماعية، وها أنا أقول: إني وضعت التَّكليف الشَّرعي والأمانة العلمية فوق كلِّ أعتبار، بل فوق كلِّ شيء، أضرب بكل مخالفة بما جاء به غيري مخالفاً عرض الجدار، وعلى ذلك أرسيت سفينتي على شاطئ الحق والسَّلام.

ليس لدي شيء آخر أقوله إلا عميق شكري وامتناني للدُّكتور

الفاضل رشيد الخيُّون على ما أسداه مِن خدمة لمذكراتي، التي هي الآن بين أيديكم أعزائي القُرّاء. والحمد للّه أوّلاً وآخر.

الطَّالب رحمة ربه ومغفرته
طالب الرِّفاعي

18 كانون الثَّاني (يناير) 2012

الفصل الأول

النَّشأة الأُولى

قال: «من أين تريد البداية؟ أَأُطنبُ أم اختزل! أَأَبدأُ من الرِّفاعي الطِّفلَ والصِّبي، أم مِن النَّجفَ حيثِ اعتمار العمامة»؟ قلتُ من أول خطوة في هذه الحياة، نشأتك الأُولى! فحنى رأسه وسألَ: «أتكتبُ أم تُسجل»! قلت: معاً. ما يفوت القلم يدركه جهاز التَّسجيل! فكانت مدينة الرِّفاعي مسقط رأسه هي محطتنا الأُولى في الأمالي. فبسمل وتعوّذ وتوكّل، وتلمّس عمامته، وأخذ يتدفّق بالكلام كالسَّيل، ولم يصمت إلا عند أذان الظَّهيرة، فنهض وهو يقول معتذراً: كلُّ نداء يؤجل إلا هذا النِّداء، فقد حان وقت الصَّلاة.

كيف تحصل المصادفات وتقرر المصائر، مع أن السَّيد الرِّفاعي ضمن تديّنه، أنه لا يعتقد بالمصادفات، فكلُّ شيء معدٌّ مسبقاً في هذا الكون، مع عدم إغفاله لقاعدة مذهبه: «لا جبر ولا تفويض»! وجرى حوارٌ قصيرٌ بيني وبينه في هذا الشَّأن، فقلت له: تتحكّم بالإنسان مصادفات كثيرة، يراها عابرة، لكنها تبقى جزءاً من الحتمية بالنِّسبة للآخرين، وكان قد أشار إلى أنه كاد يكون شيوعياً لولا الإلتفاتة أو العناية الإلهية، فغضّ النَّظر عن ملاحظتي، قائلاً: «قلت كدتُ أصير شيوعياً، ولو صرت لاعتقدت بالمصادفة، لكنني نجوت بجلدي منها». فحرك يده، وسألني: «هل فتحت المسجل»؟! قلت: وهذا القلم باركر 51 كما تراه! فرجوته التَّركيز على الفكرة.

قال: لا تختلف بلدة الرِّفاعي عن بقية القُرى والنَّواحي والأقضية العِراقية، وسابقاً وحتى الثَّلاثينيات، مِن القرن الماضي،

كان اسمها الكرادي، نسبة إلى بيت الكرادي، وهم مِن أهل قضاء سوق الشُّيوخ، جنوب مدينة النَّاصرية، كانوا يملكون أَراضيَ زراعية فيها، وفي الإقطاعيات الأُخر، التي كانت فيها تعود لآل السُّوز وآل خيرالله، فهم يملكون أراضيَ واسعة فيها أيضاً. وأنا عمري خمس سنوات وهي تُعرف بالكرادي.

كانت الكرادي آنذاك مجرد قرية تابعة لناحية قلعة سكر، ولما علت الأخيرة إلى مرتبة قضاء صارت ناحية تتبع لها أيضاً. فالتقسيم الإداري بالعِراق كان وما يزال متخذاً التقسيم الإداري العثماني[1]، وكل منطقة تُقسم إلى وحدة إدارية كبرى تُسمى لواءً (محافظة)، وتتبعها وحدات إدارية عدة تعرف كلٌّ واحدة منها قضاءً، والقضاء بدوره يُقسم إلى وحدات إدارية عدة، الواحدة منها تُعرف بالنَّاحية، والنَّاحية تشرف على قُرى عدة... وهكذا.

كان للوجيه المعروف موحان الخيرالله، وهو شيخ عشيرة الشُّويلات، نوعٌ مِن الطُّموح، وكانت مضارب تلك العشيرة تُحيط بالكرادي (الرِّفاعي)، والنَّاحية كانت تتوزع على الصوبين، وأقصد على صوبي أو شاطئي نهر الغراف، الذي يغرفُ ماءَه مِن نهر دجلة،

(1) بحسب قانون الولايات العثمانية، الذي طُبق بالعراق العام 1869، بأمر من الوالي مدحت باشا (اغتيل 1883) قُسم العراق بموجبه إلى عشرة سناجق (ألوية أو محافظات)، من الشمال إلى الجنوب بما فيها المنطقة الشمالية، والبَصْرة أحدها، وهي: سنجق بغداد، سنجدق شهرزور، سنجق السليمانية، سنجق الموصل، سنجق الدليم، سنجق كربلاء، سنجق الديوانية، سنجق البَصْرة، سنجق العِمارة، سنجق المنتفك (أنظر: جميل موسى النجار، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد، القاهرة: مكتبة مدبولي 1991 ص 130 عن جريدة الزوراء العدد الثاني، المؤرخ في 12 ربيع الأول 1286هـ 1869).

وهو نهرٌ قديمٌ شُقَّ لإرواء تلك الأراضي، وتقع عليه بلدات عديدات، وربما أشهرها بلدة الحي المعروفة. كان الشُّويلات على الصَّوب الذي تقع فيه المدينة، أما الصَّوب الآخر فيقطنه آل ركان، وهم مِن بني إرجاب، أي الرِّكابي، وهو لقب معروف بالعِراق، والأصل مِن هناك.

كانت هناك منافسة واضحة للعيان بين موحان الخيرالله وآل مشلب، وهم شيوخ آل حُميد، ويلتقون مع عشيرة الخيرالله الشُّويلات في أصل واحد. وكان موحان شخصية معروفة، ونائباً دائماً، تقريباً، في البرلمان العِراقي، أو مجلس الأُمة، مثلما كان يُعرف في العهد الملكي (1921-1958).

أما آل مشلب، فكان كبيرُهم ياسين المشلب إنساناً بسيطاً، لكنه شخصيةٌ عشائريةٌ فذّة في قضاء قلعة سِكر وما يتبعها، فما كان يحلو لموحان الخيرالله أن تكون السَّيطرة في المنطقة لشيوخ آل حُميد المشلب، فاستغل صلاته برئيس الوزراء ياسين الهاشمي (ت 1937)[1]، آنذاك، ليجعل مِن الكرادي وحدة إدارية على مستوى قضاء، يتبع لواء النَّاصرية مباشرة، ويفك ارتباطه بقلعة سِكر.

(1) ياسين حلمي سُليمان ياسين الهاشمي (1884- 1937)، درس الإعدادية ببغداد، ثم التحق بالمدرسة العسكرية باستانبول، خدم في الجيش العثماني، وشارك في الحرب العالمية الأولى، وقلّده الألمان وساماً، وعُين رئيساً لأركان حرب حاكم سوريا العسكري في حكومة فيصل الأول هناك، عاد إلى بغداد 1922، وتولى مناصب عديدة: متصرف الناصرية، ووزير في وزارات عدة، ثم رئاسة الوزراء أكثر من مرة، كان كتوماً نظيف اللسان، مال إلى الفكر القومي الوحدوي (ميري بصري، أعلام السياسة في العِراق الحديث بيروت: رياض الريس للكتب والنَّشر، ص 94 وما بعدها).

كان عمري آنذاك خمس سنوات، فأنا مِن مواليد 1931، ولما سألت عن سبب تسمية مسقط رأسي الكرادي بالرِّفاعي قيل لي: إن رئيس الوزراء آنذاك أراد إحياء اسم السَّيد أحمد الرِّفاعي[1]. والأخير رجل صوفي، عُرفت الطَّريقة الرِّفاعية باسمه، وكان قد توفى هناك ودُفن في منطقة تُعرف بأم عبيدة، وهي بعيدةٌ عن منطقتنا، وظلّ الأهالي يسمّون القضاء باسمه القديم الكرادي لسنوات طويلة، حتى أخذت الألسن تعتاد التَّسمية الحكومية الجديدة «الرِّفاعي»، ثم انتسبنا إلى اسم المكان، وصار لقباً لنا.

كان جدي السَّيد قنبر قد جنّده العثمانيون في جيوشهم، في القرن التَّاسع عشر، في الحرب التُّركية الرُّوسية، عاد هو وعشرة مِن المجندين معه مِن العِراقيين، بعد أن قُتل وهلك الباقون، وقصَّ ما شاهده مِن مشاهد في تلك الرِّحلة المهلكة، وعاد سيراً على الأقدام مِن روسيا وحتى العِراق. حدّثتني إحدى جداتي بما سمعته منه عن رحلته تلك، وأقول جداتي لأن جدي قنبر كان مزواجاً، وأنا وعيتُ على عشر مِن زوجاته.

---

(1) أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن أبي العباس المعروف بابن الرِّفاعي (578 هـ)، صوفي معروف، سكن البطائح (الأهوار)، بقرية أم عبيدة، والتفّ حوله خلق عظيم مِن الفقراء، والطَّائفة المعروفة بالرِّفاعية والبطائحية منسوبة إليه، ودارت قصص عجيبة عنه وعن أتباعه، بأنهم يركبون الأُسود، ويأكلون الحيات وهي حيَّة، وينزلون في التنانير وهي تتضرم بالنَّار، ولم يكن له عقب، فتولى أولاد أخيه مشيخة الطَّريقة والولاية على تلك الناحية آنذاك (ابن خِلكّان (ت 681 هـ)، وفيات الأعيان، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية 1948 ج 1 ص 154).

أتت أُسرتنا مِن الحلّة، إحدى حاضرات الفرات الأوسط المعروفة، ونحن منها في الأصل، حتى إن بيتنا ما زال هناك في منطقة المهدية، وجدي قنبر هو الذي هاجر مِن الحلّة، كان فاراً مِن السُّلطات العثمانية خشيةً أخذه إلى الحرب، أي فرار مِن الجندية، وسكن في منطقة «قيم الركاع»[1]، أي بلدة عفك (عفج) المعروفة، والتَّابعة إلى الحلة، وسكن هناك هو وأولاده، وكان حينها متزوجاً مِن زنوبة ابنة خاله.

ظل عمي عبود، وكان معمماً وعِمامته سوداء، لأنه مِن السَّادة آل البيت، مقيماً هناك، وتزوج مِن خالة السياسي العِراقي عبدالمجيد عباس[2] وهو مِن قلعة سِكر، وارتحل عمي إلى آل بدير، قريباً مِن الشَّطرة، وتزوج وله ذرية ما زالت هناك، وجاء أولاد عمنا وسكنوا آل بدير، وكنّا سادة المنطقة، فمنا كان رئيس البلدية، ومنا المختار حتى الآن، والحديث في هذا الشَّأن يطول.

المدرسة الابتدائية

حدث لي بسبب عمي السَّيد عبود موقفاً يتعلق بتعليمي في المدرسة، فقد حصل أن سافر عمي السَّيد حمود إلى عفك، حيث يُقيم أخوه هناك، فسأله: هل أدخلتم الأولاد في المدارس؟ فأجابه

(1) كناية عراقية مشهورة «قيم الركَاع مِن ديرة عفچ» عن اليأس مِن نفع ما، لأن منطقة عفچ كان أكثر أهلها حفاة، فلا يجد الأسكافي (الركَاع)، أي رزق له فيها (عبود الشَّالجي، موسوعة الكنايات العامية البغدادية، بيروت: مطبعة دار الكتب 1983 ج 2، ص 513).

(2) عبدالمجيد عباس الحيدري، وزير المواصلات، أو الاقتصاد لست متأكداً، في العهد الملكي، ومندوب العراق في الأمم المتحدة في العهد نفسه.

بالنَّفي. فغضب عليه وعنّفه تعنيفاً شديداً. فعمي عبود كان قد أدخل ولده السَّيد هاشم في المدرسة الرِّيفية. عاد عمي حمود إلى الرِّفاعي فأمر أخاه الأصغر السَّيد هاشم بأن يأخذنا صباحاً لتسجيلنا في المدرسة. فجاءنا قائلاً: طالب، صالح، حسون (عمي الأصغر) تحضّروا، غداً تذهبون إلى المدرسة، وكان آنذاك قد فُتحت مدرسة الرِّفاعي الابتدائية، فتحت قبل العشرينيات، ولعلها في العام 1918، واتخذت بناية الخان محلاً لها مستأجرة مِن قبل الدَّولة.

كان معظم المعلمين مِن أهل الكرادي، مِن فئة الموامنة (المعممين)، مِن الدارسين في المدارس الدينية والكتاتيب، وبعضهم مِن المنتدبين إلى مدرسة الرِّفاعي. كان أي شخص يعرف القراءة والكتابة يُعيّنُ معلماً. فحتى كلية الحقوق، التي فُتحت في العام 1908 ببغداد كانت تقبل مَن حصل على شهادة الشَّيخ شُكر، وهو شيعي مِن أهل بغداد، وكان لديه مكتب لتعليم القراءة والكتابة، وبهذه الشَّهادة دخل كلية الحقوق صالح جبر[1] وآخرون.

كان الشَّيخ شكر معروفاً آنذاك، حتى إن المؤرخ عبدالعزيز الدُّوري (ت 2010) قال لي، في لقاء معه: «نحن في عاشوراء نذهب إلى مجلس التَّعزية، الذي يقيمه الشَّيخ شكر في داره، وأن النِّساء

(1) محمد صالح جبر (1895- 1957) سياسي عراقي، تولّى مناصب عدة: متصرف في عدة ألوية، ووزير للمعارف والمالية والعدل وللداخلية ثم رئاسة الوزراء في العهد الملكي، من أهل الناصرية – الشطرة، درس في المدرسة الرشدية بالناصرية، ثم المدرسة الجعفرية ببغداد، فكلية الحقوق، توفى وهو يُلقي خطاباً في مجلس الأمة (بصري، أعلام السِّياسة في العراق الحديث 2 ص 209 وما بعدها).

كنَّ يرتدينَ الثياب السُّود». كان شكر مشهوراً آنذاك وهو كالعميد بالنسة إلى عصره، ولديه كتاتيب عدة لتعليم القراءة والكتابة، وكان يكتب في الورقة التي يصدرها للمتعلم: أشهد أن فلاناً تخرج مِن الكِتاب عندي.

أخذنا عمي هاشم إلى المدرسة، وكان عمي حسون يكبرني بأربع سنوات، وأخي صالح يصغرني بسنتين، فسجّلوا عمّنا، وأنا صرتُ في الشُّعبة (أ)، والشُّعبة أقل درجة من الصَّف الأول، ربما لنا تشبيهها بالرَّوضة. ثم لما بدأتُ متقدماً في التعليم، وفي غضون شهرينِ صُرتُ أقرأ وأكتب. كان معلمنا يأتى بتلميذ يكبرنا سُناً لضبط الشُّعبة ويُعلمنا أيضاً، وأتذكر أنهم أتوا بشخص اسمه خضير عباس.

فقال لي: قمْ أكتب اسمك! فكتبته صحيحاً، وكتبت كلَّ ما طلب مني كتابته. فأخبر مدير المدرسة يوسف أفندي بذلك، كي أتجاوز الصُّفوف وأعبر إلى الصَّف الرَّابع، وكان للمدير سمعة ومنزلة في المنطقة، بل كنت أراه يُعادل الوزير درجةً مِن وزراء الأمس لا اليوم. لكن المدير رفض اقتراح عبوري إلى صفوف متقدمة. وربما يطول الحِديث عن إكمال المدرسة الابتدائية، لذا أتركها وآتي إلى مرحلة أُخرى تلتها.

كدتُ أصبح شيوعياً

كنت جامحاً إلى الفكر اليساري، أو الاشتراكي الشِّيوعي آنذاك، بدافع أنه يُنصف الفقير وينصر العامل والفلاح، وهما

الشِعار. صار هذا الميل لديَّ عن طريق أصدقائي بالرِّفاعي، لا أتذكر أسماءهم. كان ذلك في الأربعينيات مِن القرن الماضي، فكانوا يذكرون أن هذا الفكر الشِّيوعي يقف إلى جنب الإمام علي بن أبي طالب[1]، وعمار بن ياسر[2]، وأبي ذر الغفاري[3]، وكيف أن الشِّيوعية تُطالب بالعدالة الاجتماعية وتُنصف الكادحين، مع أني كنت أعشق الإمام الحسين، وهو عندي «شيوية عن رَبنا» (يضحك). فلما قرأت كراس «الشِّيوعية عدوة الأديان» للشَّيخ محمد مهدي الخالصي (ت 1963) تقيأت الشِّيوعية، وانتهى ذلك الميل تماماً، بل انقلبتُ إلى ضدها عدواً لها، مِن دون أن أقرأها لا لمحاولة القناعة بها، ولا بعد رفضي لها.

حتى إن معلمي في الابتدائية كان يقول عني: «سيّد طالب وطني مو (ليس) شيوعياً»! فكنت حينها، وأنا في عمر ستة عشر عاماً لدي قلم باندان (حبر) أحمر، وفيه حبر أحمر رغبة في الإعلان عن نفسي شيوعياً أو مؤيداً بلا انتماء، وكنت أظهر لصديقي كاظم أطيمش أن الشِّيوعيين يريدون تطبيق عدالة علي

---

(1) ما هو معروف عن الإمام علي بن أبي طالب (اغتيل 40 هـ) أنه عاش متقشفاً، وأن كنيته بأبي تراب كنّاه بها النبي، وتنسب له كلمة شهيرة: «لو كان الفقر رجلاً لقتلته»، ولم تدرج في كتاب نهج البلاغة، لكن هناك ما يماثلها: «الغنى في الغربة وطن والفقر في الوطن غربة»(نهج البلاغة والمعجم المفهرس، بيروت: دار المعارف للمطبوعات 1990 ص 362).

(2) شخصية معروفة بالفقر والإخلاص، قُتل في معركة صفين (37 هـ)، موالياً لعلي بن أبي طالب.

(3) أحد الثائرين على المال والجاه، نفي إلى صحراء الربذة في زمن عثمان بن عفان، وتوفى فيها السّنة 32 هـ.

بن أبي طالب، مِن دون أن أقرأ أي كتاب شيوعي، وكاظم نفسه لا يعرف شيئاً عن ذلك. وفي يوم مِن الأيام رأى عندي قلماً أحمرَ ويكتب بحبر أحمرَ، فقال للمعلم: أستاذ أشوف سيّد طالب صاير شيوعي! فقال له: معقولة سيّد طالب يصير شيوعي! سيّد طالب وطني وطني.

ملت هذا الميل إلى الشِّيوعية، بعاطفة الخلاص مِن الفقر، ورغبة جامحة في تحقيق العدالة، فأبو ذر الغفاري (ت 32 هـ) في هذا المعنى لا يكون إلا شيوعياً. كنت إذا رأيت مريضاً فقيراً أبكي على حاله، وكان لي صديق اسمه لفتة بن صحن، وهو مِن رفاق الطُّفولة وزملاء المدرسة الابتدائية، وتجمعُنا المدرسة والفقر في الوقت نفسه، فأبي كان أفقر إخوانه، بينما عمي سيد محمود وعمي سيد هاشم كانا يعدّان ثريين بالنِّسبة إلى والدي. كانت الحكمة التي يردّدها والدي هي: «إصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب»! كان دائماً يقول لي: ولدي طالب: لا تفكر بالغد. هكذا كان والدي يحاول تجاوز فقره، ومع ذلك لم ننمْ في يوم مِن الأيام بلا عشاء، مثلما يُقال، لكننا فقراء.

كنا أنا ولفتة بن صحن نذهب إلى مزارعَ تُزرع في أيام الصَّيهود، وهو موسم قلة الماء، في نهر الغراف، تزرع الذرة واللوبياء والبطيخ وغيرها، نذهب ونشتري «عجد» أو ساق ذرة بفلسين فقط، وهذا كلَّ ما كنا نملكه. نجلس على حافة الشَّط (نهر الغراف)، وعندما يأتي تاجر للشراء نرى المزارعين يهرعون إليه

مرحّبين، ويقدمون له ما في مزارعهم، حتى بلا مقابل. نراقب أنا ولفتة مثل هذه المشاهد بسخط، فقلت في ذلك شعراً، وأنا في ذلك السِّن: «ليش الفقر (الفقير) ما يراد.. ومحقر (محتقر) بكل بلاد.. ليش الفقر (الفقير) ما يردوه ومِن يقبل أهله يطردوه...». هذا ما أتذكره مِن تلك القصيدة الشِّيوعية الصِّرفة!

مِن جملة الخميرة التي شجعتني، في ذلك الوقت، أن أحاول الاتجاه إلى الشِّيوعية أو الاشتراكية هذا البيت الأبوذية القديم:

الدِّنيا وياي مغتاضة وصالح (مِن الصُلح)
وراحة ما شفت بيه وصالح (خير ونعمة)
تبني قصور لرويح وصالح (اسم)
وآنه بيت الكَصب حسرة عليَّ

كان رويح وصالح تاجرين ثريين، وهما مِن تُجار مدينة الشَّطرة، التابعة إلى النَّاصرية، وكنت أحفظ هذا البيت الأبوذية مِن الطُّفولة، وقد قيل قبل أن تظهر النَّظرية الشِّيوعية أو تتأسس دولة لها. مختصر القول: إن الشِّيوعيين دخلوا عليَّ مِن باب علي بن أبي طالب وأبي ذر الغفاري ومعاناة الفقر والحرمان، وهو باب لا يرد الدَّاعي إليه، لكنني أفلتُ منه بجلدي!

بعد حين، وكنت متنصلاً مِن أوهام الطُّفولة والصِّبا بأني مع الشَّيوعيين وقد اعتمرت العِمامة، ذهبت إلى النَّاصرية، وسكنت عند شخص لي معرفة سابقة به، وهو رجل بارك لي اتجاهي

الدِّيني الجدِيد، وكان قارئاً على الإمام الحسين، وابن اخته غني شُكر الذي أُعدم بسبب انتمائه إلى حزب الدَّعوة، في ما بعد، وطلبوا مني أن أعطيهم ثيابي كي يغسلوها، ومنها العمامة أيضاً. فقلتُ: العمامة لا، لأنها إذا فُلت لا أعرف كيف أعيد لفَّها فلا داعي لغسلها. فقال مضيفي ملا محمد: هذه بسيطة نرسلها إلى الشَّيخ عباس يلفّها لك. فوافقت.

بعد أن جفت الملابس أخذ ملا محمد قماش العمامة كي يلفّها الشَّيخ عباس، وهو والد محمد باقر النَّاصري، الذي بالنَّاصرية حالياً، ويطرح نفسه مرجعاً هناك. فسأله الشَّيخ عباس: عمامة مَن هذه! فقال: عمامة السَّيد طالب الرِّفاعي. فقال له: لا ألفّها له لأن سيّد طالب شوعي (شيوعي)، ولا تكذّبني، فأنا أعرفه شوعي[1]! ولما سأله ما هو الدَّليل على شوعية سيّد طالب في نظره! قال: رأيته بعيني يحمل كتاباً لونه أحمر! والشوعيون هم أصحاب هذا اللَّون!

على أية حال، بعد جهد جهيد لف الشَّيخ عباس عمامتي وأتى بها ملا محمد. فلما سألني الملا: ما قصة الكتاب الأحمر الذي لاحظك الشَّيخ عباس تحمله. فقلت: اسأل ابن أُختك؟! وأعني غني شُكر، الذي بدأ ناشطاً مع «حزب التَّحرير الإسلامي»، وانتهى في «حزب الدَّعوة الإسلامية»، وقام بتلخيص كتاب «فلسفتنا» لمحمد باقر الصَّدر، وصدر مطبوعاً.

(1) الشيوعية أو الشيوعي تلفظ في اللهجة الدَّارجة عادة: شوعية أو شوعي.

فالكتاب كان كتابَ غني وليس كتابي، وهو «نظام الحُكم في الإسلام»، مؤلفه الشَّيخ تقي الدِّين النَّبهاني، مؤسس «حزب التَّحرير»، وكان لون غلافه أحمرَ. أقول: ولك قياس استنتاجات علمائنا المساكين! إذا أُخذت العقائد على الألوان لا الأفكار!

الفصل الثَّاني

الهجرة إلى النَّجف

ما فات كان من متعلقات الطُّفولة والصِّبا، وفي لحظة لا بدَّ لهذا الباكي على الحسين من تحديد الانتماء وإشهاره، فما كان حوله سوى أهل اليسار، وقرأ كتاباً فرسم له طريقاً أخرى، ولم يبق مأسوراً لصاحبه، فسرعان ما كشف حقيقة إعجابه، وتخلّى عنه. قلت له: أتينا إلى مرحلة تحمّل المسؤولية، وقد حدّدت بنفسك مع تشجيع الآخرين أن تكون عالماً دينياً، فكيف تركت الأهل، وما هي وجهتك! أودُّ أن تراجع بنفسك ما أمليت عليَّ، فربَّما لا تريد نشر هذه الكلمة أو تلك، لكن الخط كما ترى متشابكاً، فندع هذا إلى آخر المراحل، ويأتيك ما أمليته مطبوعاً، فقال: «سلّمتَ أمري»!

كان يرفض وضع السِّماعة على أذنه، مع ما أشعر من إرهاق عند الكلام معه، لكن الإلحاح بلا تلبية يهمل الطَّلب، وما لنا إلا إتمام المهمة حتى النِّهاية. تكلّم وأخذ مع قوة نبرة الكلمات يطرق على الطَّاولة، فاضطررت لسحبها من أمامه وهو يتكلم، فرأيت الحَيرة أخذته، يريد شيئاً يضرب يده به، وهو يتكلم كي يحافظ على إيقاع كلماته، فقدمت إليه وسادة، لكنها لم تف بالغرض، فتركها بلا شعور وسحب الطَّاولة الخشبية الصَّغيرة، قليلاً قليلاً، ووضعها أمامه، فسلمت أنا أمري أيضاً، واعتمدت على القلم.

قال: بعد إتمام المدرسة الابتدائية آتي على رحلتي إلى النَّجف، لغرض الدِّراسة في حوزتها الدِّينية، وذلك في العام (1950-1951)، يعود الفضل في انتقالي إلى مدينة العِلم لشيخ البلد، أو الشَّخصية البارزة، وهو إسماعيل السُّوز، وكان صاحب

ديوان ومكتبة خاصة بالرِّفاعي، وكنت أتردد على ديوانه، فلاحظ ما لديَّ مِن إمكانية الحديث والاستماع، فقال لمَن يعتني بديوانه: إذا أراد سيد طالب كتباً مِن مكتبتي فلا تمنعه مهما كانت! كذلك كان الإنكليز، بعد احتلالهم العِراق، قد انشأوا، في الثَّلاثينيات والأربعينيات مِن القرن الماضي، مكتبات عامةً في النَّواحي والأقضية، فكنا نذهب إليها ونقرأ الكتب والصُّحف العربية.

أتذكر أني قرأت في مكتبة البلدة كتاب أبي الحسن المسعودي (ت 346 هـ) «مروج الذَّهب وجواهر المعدن»، و«ديوان البهاء زهير». أستمرت المكتبات البريطانية مفتوحةً حتى الخمسينيات مِن القرن الماضي، وهذا ما فتح لي آفاقاً على الثَّقافة والمعرفة. لكن قراءة كتاب الشَّيخ عباس القُمي[1] «الكُنى والألقاب»، في ثلاثة مجلدات، كان له تأثيرٌ بليغٌ في حياتي، وزاد مِن طموحي في طلب العلم. تناول كلَّ عالم بلقبه أو كُنيته وترجم له، مِن الشِّيعة والسُّنَّة على حدٍ سواء، ليس هناك مِن فروق.

لقد اكتشفت في هذا الكتاب، من ترجماته، أن آباء العديد مِن هؤلاء الكبار كانوا فلاحين أو أصحاب مهن لا علاقة لها بالعلم والعلماء؛ بمعنى ليس مِن الضَّروري أن يقتفي المرءُ طريق آبائه، فمثلاً كان والد المرجع الكبير السَّيد أبي الحسن الأصفهاني (ت 1946) فلاحاً.

---

(1) عالم دين إيراني، ولد بقم، واشتهر في كتاب مفاتيح الجنان، وكتابه الكُنى والألقاب، توفى بالنجف 1940 ودُفن فيها، وقيل صلى عليه المرجع الكبير في زمانه أبو الحسن الأصفهاني.

كذلك كان أهلُ العديد مِن العلماء أُناساً عاديين، ليسوا مِن أهل العلم والثَّقافة، بل إن والدي كان يتميّز على آباء بعضهم، وكان نجاراً، وهل بالضَّرورة أن أصبح نجاراً على قول الباري: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[1]، لا شأن لي بالعلم والثَّقافة مثلاً، لهذا تولَّد لديَّ الطموح في الدِّراسة، وأن أحذو حذو أولئك الكبار مع اختلاف مع الآباء وما حققوه لحياتهم مِن تفوق في العلم.

كان عمري سبعة عشر عاماً، ويصطحبني أبي إلى مجلس أو ديوانية إسماعيل السُّوز، وأسهر معهم حتى منتصف اللَّيل، فسمعت مِن السُّوز باسم لفت نظري ورنَّ في مسمعي، وهو اسم السَّيد محمد باقر الصَّدر، وكان إسماعيل هذا يزور النَّجف كثيراً، وينزل ضيفاً على الشِّيخ محمد علي الخمايسي[2]، والأخير هو عالم أو فقيه منطقتنا الرِّفاعي، يأتينا لشهور معينة مِن السَّنة، تمتد مِن شعبان وحتى ذي الحجة، وبضمنها أيام شهر رمضان، وما فيه مِن عبادات وأجواء دينية تحتاج إلى حضور عالم دين بيننا.

نضجت فكرة السَّفر إلى النَّجف للدراسة في حوزتها الدِّينية، وحينها شاورت الشَّيخ محمد علي الخمايسي في الأمر، فقال مشجعاً: «سأخذك معي» عندما أعود إلى النَّجف. وأخذ يبشر بيَّ ويُطري على توجّهي العلمائي، بأن سيد طالب سيذهب ويدرس

(1) سورة البقرة، آية 170.

(2) كان وكيلاً للمرجع السَّيد محسن الحكيم بمنطقة الرِّفاعي، وتتلمذ على يد الشَّيخ محمد رضا آل ياسين.

بالنَّجف، وسيصير عالم دين، وبهذا ثبتت في ذهني الفكرة لتصير واقعاً في ما بعد.

لكن هذا يتوقّف على موافقة والدي ووالدتي بالسَّفر أولاً، وباعتمار العِمامة، وأصير مِن الموامنة ثانياً، فالفكرة المأخوذة عن الموامنة أنهم يبحثون عن رزقهم هنا وهناك، أي ما يأخذونه في مجالس التَّعازي، وما يمنحه لهم الآخرون. بصريح العبارة أن صورهم في ذاكرة والدي مثل الشَّحاذين، وسيأتي الحديث كيف قَدِم والدي إلى النَّجف وقرر إعادتي إلى الرِّفاعي تحت ضغط أعمامي.

أما الوالد فلم أجد صعوبةً كبيرةً في إقناعه بالسَّفر، وهو إنسان بسيطٌ ولم يعارضني كثيراً، وكان طلبه مني بالعودة وأنا بالنجف تحريضاً مِن الآخرين. لكن الصعوبة مع والدتي، فأنا ولدها البِكر، وسمَّتني بطالب لأنها طلبتني مِن الله، فكانت قبل ولادتي لا يعيش لها أطفال.

على أية حال، تمكنت مِن إقناع والدتي، بأن الأمر يتعلق بالدِّين والإمام الحسين، فعملت لي إزاراً أحمل أغراضي فيه، وسافرت مودعاً مِن قبل الأهل والأصحاب، وكأني مغادرٌ بلاٍ عودة، أو إلى بلاد بره مثلما يُقال. كنت قبل التَّوجه إلى النَّجف قد أُعجبت بالشَّيخ محمد مهدي الخالصي (الابن)[1]، إلى حد العِشق، وأنتظر اللَّحظة التي أزور فيها مدرسته، التي كنت أسمع عنها أنها «مدينة العِلم»

(1) نجل محمد مهدي الخالصي، صاحب ثورة العشرين، ونفي مع والده إلى إيران، وظل هناك بين 1922 و1949، توفى بالكاظمية في السَّنة 1963.

على اسمها. ولأني سمعت عنه الكثير، وكراسه «الشِّيوعية عدوة الأديان» هو الذي سحبني مِن قناعاتي السَّطحية بها، قبل التفكير في الدراسة الدِّينية. تعرفت إلى اسم الشَّيخ الخالصي أول مرة عن طريق إسماعيل السُّوز أيضاً، فهو أحد أصدقائه، ويبعث بمنشوراته إليه، وكنت أَطّلعُ عليها، ومنها كراسه المذكور ضد الشِّيوعية.

إعجاب بالخالصي ونفور

حُبّاً بلقاء الشَّيخ الخالصي توجّهتُ، قبل النَّجف، إلى مدينة الكاظمية[1]، حيث المدرسة الخالصية وخطبة الشَّيخ في الجامع الصَّفوي، داخل الصَّحن الكاظمي، مكثت بالكاظمية عشرة أيام، وأخذت أتردد على «مدينة العِلم»، لكني وجدتها خرابة، وظهر أن الشَّيخ نفسه هدّها، ولم يجعل منها مدينة علم، ولا هي بالجامعة ولا بالمدرسة، وبعد سماع محاضراته رأيت لاً نصيباً لي في تلك البلدة، أي الكاظمية مقر الخالصي، وانتهى هذا الإعجاب أيضاً بلا عودة، لأسباب لا أريد الوقوف عندها، فاهتزّت الصُّورة التي كانت في ذهني عنه.

بعد أن أفرغتُ نفسي مِن مودّة للشِّيوعية ومِن خصمها الشَّيخ الخالصي، في الوقت نفسه، يممت وجهي إلى كربلاء، المدينة التي شغلت ذاكرتي وذاكرة الأجيال في قصة مقتل الإمام الحسين

---

(1) مدينة تقع غرب بغداد، على شاطئ دجلة من جهة الكرخ، كان اسمها القديم مقابر قريش، وسُميت الكاظمية نسبة لدفينها الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ت 183هـ).

ووجود ضريحه فيها. كان يعيش فيها أخوال آل السُّوز[1]، ويسمونهم بآل الرَّشتي، وهم مِن آل السَّيد كاظم الرَّشتي[2] صاحب الجماعة المعروفين بالشَّيخية أو الكشفية[3]. فنزلت بكربلاء في بيت الرَّشتي، بمعرفة آل السُّوز، وأخذت أتردد على المدارس الدِّينية، وعلى الخصوص المدرسة المهدية، وكان قيّمها، أو المسؤول عنها، الشَّيخ عبدالحسين الدَّارمي، وهو أحد الأخيار المعروفين هناك. لكن لم تعجبني كربلاء كدار سكنى ودراسة، فغادرتها إلى النَّجف، وهي محطتي الأخيرة في طلب العلم.

الوصول إلى النَّجف

كان يوم وصولي النَّجف يوماً كئيباً، فقد صادف وفاة المجتهد الشَّيخ محمد رضا آل ياسين[4]، والمدينة مقلوبةٌ على رأسها معطّلة الأسواق، وقد نزلتُ ضيفاً على دار الشَّيخ محمد علي الخمايسي، وكنت أذهب إلى الجامع الهندي، أتفرّج على الحلقات الدِّراسية التي تُعقد عادةً فيه، وأنا أرتدي العقال والكوفية (الشماغ)، قبل

---

(1) لبيت آل السُّوز فروع عدة، ببغداد يمثلهم عبدالجليل وعبدالحسن السُّوز، وبالرِّفاعي حميد السُّوز، أخذ الأخير أرضاً بالكرادي وصار إقطاعياً، وبرز منهم إسماعيل السُّوز.

(2) كاظم الرَّشتي (ت 1843)، تلميذ الشَّيخ أحمد الأحسائي (ت 1826)، أو الشيخ الأوحد، عاش بكربلاء، ويعد المؤسس الثاني للجماعة المعروفة بالشيخية، مع أنهم يعدون أنفسهم جعفرية اثني عشرية، لكن الخلاف مع الشيخ أحمد كان حول تبني الفلسفة، أو اهتمامه بفكر ملا صدرا الشِّيرازي.

(3) نسبة إلى الكشف والإلهام.

(4) أحد كبار المجتهدين العرب في زمنه، توفى بالنَّجف، السَّنة 1951.

اعتمار العِمامة، ومِن ذلك كوّنت صداقات مع شباب يترددون على الجامع المذكور، ومنهم كان الشَّيخُ عبد الحسين الحويزي وآخرون.

قال لي الشَّيخ محمد علي الخمايسي: لا فائدة مِن وجودك الآن بالنَّجف، لأن شهر رمضان على الأبواب، وخلاله تتوقف الدِّراسة. فأرى أن تسافر معي إلى مدينة الرِّفاعي على أن نعود سوية إلى النَّجف في ذي الحجة. سافرنا معاً مِن النَّجف إلى الحلّة، ومِن هناك ركبنا القطار، ووصلت إلى أهلي بعد غياب طال نحو شهر عنهم، قضيته بما يشبه التجريب والاختبار أو المعاينة، بالكاظمية وكربلاء ثم النَّجف.

خلال تلك الفترة أخذت أعمل عند عمي السَّيد حمود في محله بالرِّفاعي مقابل أُجرة يومية، فجمعت مبلغاً يتراوح بين 14 و15 ديناراً، وكان مبلغاً ذا قيمة آنذاك. وسافرت قبل الشَّيخ محمد علي الخمايسي، وقد زوّدني بعنوان داره، وأوصى أولاده بيَّ، وأنا أعرفهم أيضاً مِن قَبل، فهم يأتون إلى الرِّفاعي بين فترة وأخرى، بحكم علاقة والدهم بالمدينة، إضافة إلى مكوثي أياماً عدة بينهم.

اعتمار العِمامة

وصلتُ النَّجف، ونزلت في دار الشَّيخ الخمايسي، وكنت أتردد على بيت الشَّيخ عباس الرُّميثي[1]، فله قريب كان يُقيم

(1) الشيخ عباس بن عبود الرميثي، ولد بالرميثة التابعة إلى السماوة، ويُعد أحد أبرز المجتهدين العرب بالنجف، وتوفى في السنة 1959.

بالرِّفاعي، وهو صاحب دكان، ومتزوج مِن ابنة الشَّيخ الرُّميثي، وكان الأخير مِن المجتهدين العرب الذين يُشار إليهم بالبَنان. بعدها وصل الشيخ الخمايسي، وكان يوم عرفة، وقلت له: أعتمرُ العمامة بيدك في هذا اليوم المبارك (عَرفة)، فاعتمرتُ العِمامة أول مرة في حياتي، وكنت أتيت بقماشها الأسود معي مِن الرِّفاعي. وكان بالنَّاصرية محل خياطة فليح، لصاحبها فليح حسن، وهو خال طالب فليح الشَّاعر على ما أظن، فذهبت إليه فخاط لي جبة، فأخذتها وقماش العِمامة معي إلى النَّجف، فاعتمرتُ العِمامةَ ولبستُ الجبةَ، وهي خياطة فليح، فماذا تريدها أن تكون غير (مخربطة)، ويومها ذهبت مع الشَّيخ الخمايسي إلى كربلاء، ونزلنا في بيت الرِّشتي.

وجدت نفسي وأنا أسير بالعِمامة والجبة كأني طاووسٌ تماماً، وكنت في ذلك الوقت أفكر، لغروري بعمامتي، أنه لو أعطوني تاج ملك العِراق فيصل ما قبلت به بديلاً منها، وما خلعتها لأجله، فكانت تعني شيئاً كبيراً بالنِّسبة إليّ في تلك الأيام.

أما الآن فلم أشعر بتلك الطَّاووسية مع عمامتي، أو عمتي، بحسب لهجتنا الدَّارجة، وأقول فيها ما قاله محمد حسن الصَّوري (ت 1998)، في عمامته للأديب المصري المعروف إبراهيم عبد القادر المازني(ت 1949): «هذه التي منعتني فسقي ورزقي»! عندما سأله عن عِمامته، التي خلعها مبكراً، وهي غير عمائم أهل مصر، فاستغربها. فراح المازني كاتباً مقالةً في تلك العبارة.

مِن العادة أن يضع العِمامة على رأس الطَّالب أحدُ المجتهدين، أو أحدُ معتمري العمائم مِن ذوي المكانة في الاجتهاد، وهي غير مشروطة في الدِّراسة الدِّينية. فربما هناك حلاق يعتمرها مثلاً، لكن بالنِّسبة إلى طلبة العِلم لا بدَّ من أن يضعها على الرأس عالم دِين، ويمكن للطالب أن يعتمرها بنفسه أيضاً، بمعنى ليس هناك تقليد ثابت أو صارم في اعتمارها أول مرة.

كان أغلب طلبة العِلم اللبنانيين يذهبون إلى السَّيد محسن الحكيم ليضع العَمائم على رؤوسهم، ويمكن أن تُعتمر فرادى أو جماعات، وفي الحالة الأخيرة يجري هناك حفل بالمناسبة، وهذا يخصُّ الميسورين مِن طلبة العِلم فقط، لكن مثل سيد طالب الرِّفاعي فليس له مَن يُقيم حفلاً، فقد أتيت مِن واقع فقير إلى حد ما!

وكالعادة تكون العِمامة السَّوداء للسادة، مِن ذرية النَّبي، والعِمامة البيضاء للعامي، وعِمامتي سوداء، ومنذ العام 1951، وحتى هذه اللحظة لم أضعها عن رأسي لأي سببٍ مِن الأسباب، سواء أكنت بالنَّجف أم بأمريكا أم بلندن، فهناك مِن أصحاب العمائم مَن يرتدي، بحسب الظروف، بذلة أُوروبية مثلاً. لفّ عمامتي الأُولى الشَّيخ الخمايسي، وما زلت لا أُجيد لفها، فعندما تُغسل أبحث عمَن يلفّها لي، لأني منذ البداية اعتمدت على غيري بلفها، وبقيت هكذا.

عِمامة الشَّيخ حمد

هذه حمضيةٌ مِن حمضيات الكلام، أسرد فيها قصة عِمامة ملا حمد آل يُسر، وقد ذاع صيت عِمامة هذا الرَّجل عبر قصيدة نظمها فيه الشَّاعر وشيخ العشيرة ثامر آل حمودة (ت 1987). كان الشَّيخ حمد صديقاً لي بالنَّجف، وهو مِن سوق الشِّيوخ، وفي أحد الأيام دعاني إلى منزله، وكان معمماً وقصير القامة وبطين، وحينها كانت قصيدة «مبارك يا حمد» قد شاعت في الآفاق، وأتذكر ونحن على مائدة الطَّعام عنده.

قال لي: «سيد طالب ترى أحرّمها». فقلت: ما هي؟ قال: أنت تعرفها! ويعني قصيدة ثامر «مبارك يا حمد». فقلت له: هذه شاعت وذاعت وسارت فيها الرُّكبان، وهي تُقال في كلِّ محفل سواء أحرّمتها أم لم تُحرّمها! والسبب الذي جعل الشَّيخ (رئيس عشيرة) ثامر ينظم هذه القصيدة بحق ملا حمد آل يُسر، أن الأخير كان قارئاً على الحسين، في مجالس بسيطة، ويُعطى مقابل ذلك أجراً أو هدية متواضعة جداً، فحصل أن سافر إلى النَّجف، ومكث فيها ثلاثة أشهر، وعاد بعدها إلى سوق الشِّيوخ معتمراً العِمامة.

كانت لدى آل حِسن عشيرة ثامر آل حمودة مناسبة ما، أو كانت ليلة جمعة، فقال ثامر: حضّروا (الجاون)[1]، كي يقرأ ملا

(1) أسطوانة مجوّفة تصنع من الخشب، تشبه الهاون لكنها أكبر ومن الخشب لا من الحديد، يدق في داخلها الرز لعزل قشوره الحمراء.

حمد مجلساً على الحسين، والجاون كان يستعمل مكان المنبر أو الكرسي. فقال ملا حمد: لا أقرأ، لأني صرتُ عالماً! كونه عاد مِن النَّجف معتمراً العِمامة، وكان يعتمر العِقال والكوفية مِن قبل. فاغتنم الشَّيخ ثامر الفرصة ونظم فيه قصيدته، التي أحفظ منها، أو هي كاملة لا أعلم، لأن الزَّمن قد طال عليها:

امبارك يا حمد من صرت علامه
وبدلت (العِقال) بلبس العمامه
بدلت العكال البيه جنت محلاك
كسرته شلون كسره ومايله ليمناك
اشها الدولاب كلي الدولباك وجاك

ابن جكنوم[*1] غرك حِسن هندامة

شكولن للي يكلي حمد شنهو الجاه
اتعارض لو فطينه (حسد) اتعارضت وياه
ثلث تشهر ضبط ماصارن لممشاه
وفرد طمسه طمس بالعلم للهامه

إلى آخر القصيدة. المِلا أو الشَّيخ حمد آل يُسر، دخل في ما بعد، مع المعممين الذين أُدخلوا إلى دورات تدريبيّة في التَّعليم،

(1) * ابن جنكوم هذا كان نائب عريف في الجيش العِراقي، تقاعد وسافر إلى النَّجف، واعتمر العِمامة أيضاً، اسمه ضايف آل جكنوم، وكان طويل القامة، والعِمامة غير لائقة عليه، وهي تزيد في طوله طولاً.

أيام الزَّعيم عبدالكريم قاسم، وعُين معلم ابتدائية بالنَّاصرية، وحصل على قطعة أرض، وبالجملة أُموره تحسنت كثيراً، عما كان عليه عندما كنا نلتقي بالنَّجف، وكنت أول ما التقيته العام 1951، وعرفت أنه توفى مِن فترة طويلة (رحمه اللّه).

محاولة لترك النَّجف

بعد مضي ثلاثة شهور على قدومي إلى النَّجف، زارني والدي سيد داود (ت 1984)، في مقر سكني في المقبرة، ففرحت به كثيراً، لكني وجدت في نفسه كلاماً لم يحدثني به، إنما شعرت به. بعدها صارحني ما في نفسه قائلاً: «بويه طالب أنا لم أعترض عليك عندما أتيت للدِّراسة بالنَّجف، لكن الآن أشعر بضغط عليَّ مِن الآخرين، وهذا يدعوني إلى إعادتك معي إلى الرِّفاعي، وأنهي هذا الأمر».

فسألته: مَن الضَّاغط عليك؟ قال: أعمامك وأولاد عمك. فسألته: وأنت ما هو رأيك؟ قال: أريد عودتك. فهم يقولون: راح يصير مجدي (مكَدي)، مثل بقية أصحاب العمائم، الذين تُجمع لهم النُّقود مِن الدَّكاكين. فلا أريدك أن تصير مثلهم. فقلت له: سأكون طوع إرادتك.

عزمت على العودة مع والدي إلى الرِّفاعي، فليس لي معاندته، ثم ذهبنا إلى الصَّحن الحيدري أو العلوي، وبالصِّدفة التقينا بالسَّيد باقر سليمون، وهو شيخ الشَّيخ أحمد الوائلي، وكان

سليمون يأتينا في كلّ شهر صفر، يقضيه بالرِّفاعي، حتى زيارة الأربعين في العشرين منه، وله صِلة طيبة بوالدي، وهما مِن عمر واحد. فجلسنا معاً في الصَّحن، وكانا فرحين ببعضهما، فهمستُ في أذن السَّيد باقر، مِن دون أن يسمع والدي: إن والدي عازم على إعادتي إلى الرَّفاعي وحرماني مِن طلب العِلم! فحفظها الشَّيخ وكأني لم أخبره بشيء.

بعد أن شرّق الحديث وغرّب بينهما التفت السَّيد إلى والدي جاداً: يا سيد داود كم أنت كبير عند اللّه! فهذا ولدك سيصير عالماً وثوابه كله لك، وستدخل الجنة بسببه. وأخذ يتحدث معه بأكثر مِن هذا. فما هي إلا لحظات والتفت والدي لي قائلاً: بوي طالب خليك في الدِّراسة وأنا مسافر. وبهذا أنقذني السَّيد باقر سليمون، ولولاه لتغير مجرى حياتي تماماً، وكان اللِّقاء به بحكم المصادفة، فكم مِن صدفة خير مِن ألف ميعاد.

الفصل الثَّالث

الدِّراسة والحياة بالنَّجف

كان متردداً في ذِكر حياته في المقبرة، لما عُرف عن ساكنيها، أو المترزقين مِن الدُّعاء على القبور، فقال لا بدَّ مِن تمييز ذلك، فأنا اضطُررت إلى السُّكنى، مثلما اضطر غيري إلى مطالعة دروسه فيها، وربَّما ألف النَّجفيون مشهد الجنائز، والقبور المحيطة بالأحياء السكنَية، ومعايشة الأموات والأحياء، لكنه قدم مِن بلدة قد لا تألف مثل هذه المشاهد.

لذا سأله شيخه بعد أن وجد له الغرفة المقبرة: إذا لم تستوحش! لثلاث سنوات وصاحبنا ساكن الأموات من دون استيحاش، وبدأت رحلته في الدِّراسة. قال: لنتكلم عن أحَداث أُخر، قلت: لا بدَّ مِن التسلسل والتدرّج. ومِن عادته أن يعطي ملخصاً، بلا تسجيل وكتابة، ثم يقول: «أمفيدٌ هذا أم لا»؟! بعدها: يقول: «لنبدأ وبتوسع». رن تلفوني فغضب، وقال: «قطع سلسلة أفكاري اغلقه»! وعدنا مِن البداية، فالمقاطعة بالنسبة إليه إلغاءٌ لما تقدّم.

قال: في السَّنة الأُولى هيّأ لي الشَّيخ محمد علي الخمايسي مدرّساً يُدرّسني كتاب «قطر النَّدى وبل الصَّدى» لابن هشام، الكتاب المعروف في قواعد العربية، وهو أحد الكتب التي يدرسها الطَّالب في المقدمات. لكن الأهم هو إيجاد السَّكن، فليس مِن المعقول أن أبقى ضيفاً في دار الشَّيخ الخمايسي لسنوات قادمة، ولا في دار الشَّيخ عباس الرُّميثي، وفكرت إذا لم أحصل على سكن سأعود أدراجي إلى الرِّفاعي.

أخذ الشَّيخان، الخمايسى والرُّميثى، يبحثان لي عن سكن مناسب بين الغرف الخاصة بإسكان الطَّلبة في المدارس الدِّينية، فلم يجدا لي مكاناً فيها البتة، كلّها كانت مملوءة، وكلُّ غرفة مِن غرفها يشترك فيها اثنان أو ثلاثة طلاب، وحجومها لا تتحمل أكثر مِن هذا العدد. كنت أقبل بأي سكن بسبب ظروفي وتلهفي للدِّراسة.

السُّكنى في مقبرة

بعد جهود في البحث عن مكان أوى إليه وجد لي المكان، لكنه مقبرة لا مكان بيت سكن، ففاتحني الشيخان الرُّميثي والخمايسي بوجود غِرفة مفروشة وفيها سرداب (غرفة تحت الأرض) داخلها مقبرة أُسرة آل ياسين، وقالا لي: إذا لم تستوحش فيها أو لديك القابلية على السكن فيها فهي موجودة! وصادف أن توفى الشيخ محمد رضا آل ياسين (1951)، في السَّنة التي وصلت فيها إلى النَّجف، وما زال أقاربه وأصدقاؤه يتوافدون على المكان، فمن المحبب الاستمرار في زيارة القبر في السَّنة الأولى على الأقل.

أخذتُ المفتاح وذهبت أبحث عن مقبرة آل ياسين بين العدد الهائل مِن المقابر في وادي السَّلام[1]، وهي تُعدُّ مِن أكبر مقابر

(1) مقبرة النَّجف الشهيرة، يقصدها الشيعة مِن مختلف بقاع العالم لدفن مواتهم في ترابها، وعلى الأكثر بدأ الدفن بهذه الكثافة منذ العهد البويهي، حيث دفن فيها عضد الدولة، ومن بعد أخذت جنائز الملوك والسلاطين الشيعة تنقل إليها، وورد في كتب الأخبار الشيعية العديد من أحاديث فضلها، وهي الآن شاسعة تكاد تكون أكبر مقبرة في العالم. وللسيد هبة الدين الشهرستاني (ت 1967) موقف معروف من نقل الجنائز من الأماكن البعيدة إليها، بسبب الآثر غير الصحية، كان ذلك العام 1911، وكل ذلك مثبت في مجلته «العلم».

العالم، إذا لم تكن هي الأكبر، فمعلوم أن الشّيعة مِن أنحاء العِراق كافة، بل ومِن بلدان أُخر يدفنون فيها موتاهم. أعجبتني الغرفة، فهي مفروشةٌ ويعلوها سطح للنوم مساءً في فصل الصَّيف، وعلى العموم، وفي تلك الضَّائقة وجدتها مكاناً مناسباً. كان المشائخ يأتون كلَّ يوم جمعة يجلسون فيها مواساةً لدفينها، في تلك السَّنة، الشَّيخ محمد رضا آل ياسين.

أخذت أنام في الصَّيف فوق السَّطح بلا فراش، أضع طابوقةً كمخدة تحت رأسي وألتحف عباءتي، فليس فيها فراش يُحمل، كذلك ليس فيها ماء، إنما ينقطع ولا يأتي إلا عند الفجر، وعليَّ الاستيقاظ مبكراً، أو أظلّ مساهراً، كي أحظى بالحصول على الماء، وما إن يأتي أكتفي بملءِ الإبريق منه لاستخدامي البسيط ليوم كامل. مع أن الماء الذي يأتي عبر الحنفية أجده مخلوطاً مع الطِّين، وظل الحال هكذا بالنَّجف حتى إنشاء إسالة الماء الحديثة، وذلك في فترة متأخرة، وبعد أن تركت السُّكنى في تلك الغرفة.

حينها قمت بشراء كتب مِن المزاد أو الحراج الأسبوعي، في كلِّ يوم خميس مِن الأسبوع، وصاحبه الشَّهير بالكُتبي، مِن فضلة النُّقود التي جلبتها معي مِن الرِّفاعي، فملأت المكان الذي حولي داخل الغرفة بالكتب، فسعر الكتاب آنذاك مهما كان غالياً لا يتعدى الخمسين فلساً.

أكملت دراسة «قطر النَّدى» في قواعد العربية، وكتاب «ألفية ابن مالك» وأنا ما زلت مقيماً في المقبرة. ولاحظت أن السَّيد

عبدالحسين الرُّفيعي قد ذكرني في كتابه عن النَّجف، فما إن وقع الكتاب بيدي قلت: لا بدَّ من أن الرُّفيعي ذكّرني به، وكانت صلتي لسنوات به وطيدة داخل النَّجف[1]، فلما تكلم عن مقبرة آل ياسين قال: كان يسكنها طالب الرِّفاعي. وبهذا دخلت المقبرة في تاريخي وأنا دخلت في تاريخها، فقد سكنتها نحو ثلاث سنوات.

كنت قد درست «قطر النَّدى» في أربعة شهور، و«ألفية ابن مالك» في غضون سنة واحدة، ثم أخذت أدرس الكتب الأُخر الخاصة بالمراحل المتقدمة حتى تقدمت إلى دراسة كتاب «اللُّمعة الدِّمشقية» للشَّهيد الأول[2]، بعد أن انتقلت للسكن في مدرسة القوام.

كنت في غرفة المقبرة أعيش منفرداً، مع استغلالها مِن بعض الطَّلبة لكن للدرس فقط، أما في مدرسة القوام فصار لي شريك في الغرفة، وقد حصلت على مكانٍ في تلك المدرسة عن طريق السَّيد حسين بحر العلوم، الذي أصبح مرجعاً في ما بعد، وسكنا معاً في غرفة واحدة، لأن في نظام المدرسة أن المتأهل، أي المتزوج، ويكون لديه بيت بالنَّجف يجب أن يجلب شخصاً معه في الغرفة،

---

(1) يقصد كتابه: النجف الأشرف ذكريات ورؤى وانطباعات ومشاهد، لندن: دار الحكمة 2009.

(2) اسمه الكامل محمد بن جمال الدين مكي العاملي، يتحدر من جزين مِن جبل عامل، أُعدم السَّنة 789 هـ، بدمشق في العهد المملوكي، واللُمعة الدمشقية تُعد من بين أبرز مؤلفاته في الفقه.

فمن العادة أن يستخدمها وقد لا يبيت فيها، فاختارني السيد حسين شريكاً، وبقيت ساكناً في تلك الغرفة حتى زواجي الأول.

أتممت قراءة «المعالم» و«الفصول» فيها، اللذين أرشدني إلى قراءتهما السيد محمد باقر الصَّدر، و«الفصول» هو كتاب صدر الدِّين الصَّدر، والد السَّيد موسى الصَّدر، درست الكتاب على مدرّس إيراني، وكان مِن العادة أن المدرّس لا يأخذ أُجوراً على تدريسه، لأنه نفسه كان قد درس مجاناً على يد آخرين، فصار ذلك تقليداً في الحوزة الدِّينية.

مراحل الدِّراسة الحوزوية

أولاً المقدمات: وهي المرحلة الأُولى في الدراسة الدِّينية، وتعلّق عادة بكتب اللُّغة العربية، لأن معرفة اللغة وقواعدها لها أهمية في الفقه والتفسير. تبدأ هذه المرحلة بدراسة كتاب الأُجرومية، وعُرف الكتاب بمؤلفه ابن الجارم، وهو كتاب نحو مختصر، يليه كتاب «قطر النَّدى وبلّ الصَّدى» لابن هشام. كان الكتاب الأخير صعباً بالنِّسبة إلي آنذاك، كأنه نظرية أنشتاين، وأصعب ما فيه هو بحث الجوازم والنَّواصب، وهما أعقد ما في الكتاب. كنت يائساً مِن اجتيازه، وشعرت أنا الوحيد الذي تواجهه تلك الصُّعوبة، لكن ظهر لي أن الجميع يعانون المعاناة نفسها، حتى إن أحدهم نظم فيه قائلاً:

يلقطـر يا كتاب سـني   النِّواصب والجوازم شيبني

كنت أدرس النَّواصب والجوازم عند أكثر مِن مدرّس، ويشرحها لي ولم أفهمها، وكنت مِن شدة علاقتي بالعِلم ورغبتي في الدَّرس أجلس في الصَّحن الحيدري باحثاً عمَن يشرح لي ما لم أفهمه منها عند الآخرين. ومَن يُطلب منه ذلك ليس له أن يرفض، بل هو واجبٌ عليه، هكذا كانت التَّقاليد السَّائدة في الحوزة الدّينية. وبعد جهد جهيد تمكنت مِن هضم كتاب «القطر»، وصرت أشرحه لطلاب آخرين بعد أن كان عندي مِن أشكل الكتب.

على الطُّلاب في المقدمات أن يقرأوا مع «القطر» و«الألفية» كتاب فقهي، وحينذاك كنت أُقلد السَّيد عبد الهادي الشِّيرازي (ت 1962) فقرأت رسالته العلمية، فلا بدَّ مِن الفقه، فبعد حين، وعند العودة إلى الرِّفاعي وحتى في الإجازات ليس هناك مَن يسألني عن مسائل «قطر النَّدى» النَّحوية إنما النَّاس تسأل عن المسائل الفقهية، أي في الحلال والحرام، ويريدون بدورهم جوابات مِن صاحب العِمامة.

بعد رسالة الشيرازي بدأتُ بقراءة التَّبصرة، وهو كتاب العَلامة الحلي[1]، وهو مِن علماء القرن الثَّامن الهجري. بعد

(1) الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي (ت 726 هـ)، واشتهر باسم العلامة الحلّي، أحد أبرز علماء الحلّة، عاش فترة الغزو المغولي، اشتهر بكتابه: منهاج الكرامة في إثبات الإمامة، ورد ابن تيمية عليه في كتاب: منهاج السُّنَّة.

التَّبصرة نقرأ كتاب المحقق الأول الحلي[1] «شرائع الإسلام»، وهو أستاذ العلامة وخاله، وكان كتاباً ضخماً ومطبوعاً طباعة حجرية، وتأخذ دراسته فترة طويلة، ومِن العادة والتقليد في الحوزة الدِّينية إنه إذا انتهيت مِن دراسة كتاب تصبح مدرّساً فيه للآخرين، وعليك تقدير المسؤولية، والجد في الدَّراسة.

في مرحلة المقدمات يُضاف درس، إلى جانب كتاب «ألفية ابن مالك» في اللغة، يُسمى المنطق، وكنا نقرأ كتاباً صعباً وهو حاشية الملا عبدالله، حتى حلَّ لنا المشكلة الشيخ محمد رضا المظفر (ت 1963) عندما صنّف كتابه المعروف في المنطق، فأخذ الطَّلبة يدرسونه بدلاً عن الكتاب السَّابق.

توجّهنا نحن الطَّلبة العرب إلى دراسة كتاب المظفر، في مادة المنطق، أما الطَّلبة الإيرانيون فظلوا على دراسة حاشية الملا عبدالله. بعد ذلك يتمّ الانتقال إلى دراسة كتاب اللُمعة بجزأيها، ويأخذ منا هذا الكتاب وقتاً طويلاً، يصل إلى السنتين أو الثلاث سنوات، ونقرأ أيضاً كتاب «جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع»، للسَّيد أحمد بن إبراهيم الهاشمي (ت 1943)، وكتاب المختصر لمسعود بن عبدالله للتفتازاني (ت 791 هـ)،

(1) أبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن بن يحيى بن الحسن الحلّي (ت 679 هـ) نسبة إلى مدينة الحلة، وهو خال العلامة الحلي، وكان من أبرز فقهاء عصره، واشتهر بالمحقق الحلي أو المحقق الأول، أما المحقق الثاني فهو علي بن الحسين بن عبدالعالي العاملي الكركي (ت 941 هـ)، الذي أدّى دوراً في توطيد الدولة الصفوية.

وهناك المطول وهو «تلخيص المفتاح»، على الغالب يقرأ الأخير الإيرانيون، والعرب على الغالب يقرأون المختصر. لأن الإيراني طويل البال صبور، لأنه تعود على حياكة السِّجاد، وهو يحتاج إلى الصَّبر[1]. أما نحن العرب فليس لدينا هذا الطَّبع، ونريدها ركضاً، كي يصير العديد منهم حمد العّلامة، مثلما جاء في قصيدة ثامر آل حمودة.

بعد الانتهاء مِن هذه الكُتب، يُقرأ كتاب «معالم الأُصول» للشيخ حسن بن زين الدِّين المعروف بالشّهيد الثَّاني[2]، وهو كتاب في أُصول الفقه، فقبل ذلك كان طلبةُ الحوزة يقرأون كتاب المختصر لابن الحاجب، وهو كتاب في الفقه السُّنّي، وقيل إن صاحب المعالم وجد حاجةً لتصنيف كتابه كي يحلَّ محل كتاب ابن الحاجب. لأهمية كتاب المعالم أتذكر أن شيخي محمد أمين زين الدِّين قال: «الذي يفهم كتاب المعالم ويحلّ رموزه ورمز اللمعة أجيزه في الاجتهاد».

ثانياً السُّطوح: انتهينا مِن مرحلة المقدمات، وبعدها يبدأ الطَّالب في المرحلة الثَّانية واصطِلح عليها باسم «السُّطوح»، وتبدأ في قراءة كتاب «الكفاية في الأُصول» للأخوند محمد كاظم

---

(1) هناك مثل متداول عن طول بال الإيرانيين وصبرهم يقول: «الإيراني يذبح البعير بقطنة»!

(2) الشيخ زين الدين بن علي الجباعي العاملي (اغتيل 965 هـ).

الخراساني[1]، والكتابُ صعبٌ للغاية، وهو عبارةٌ عن رموز لا تُطاق دراستها ولا تُحتمل، لكننا كنا مجبورين على دراسته، فليس هناك بديل منه في هذا الجانب مِن علم الأُصول. إلا أن الكتاب الثَّاني الذي يُدرس ويُقرأ، بعد الكفاية، في هذه المرحلة هو «فرائد الأُصول» للشَّيخ مرتضى الأنصاري[2]، وكان سلس العبارة.

بعد الانتهاء مِن هذين الكتابين في علم أُصول الفقه، يكون الطالب قد أنهى السُّطوح، ويكون عُدَّ إلى حضور المرحلة التي تليها. كنا نقرأ كُتب الفقه السُّني للمطالعة، مثل كتاب أُصول السرخسي، وأُصول ابن الحاجب، وأُصول الخلاف لأُستاذ الحقوق في جامعة القاهرة، لا أتذكر اسمه. كذلك هناك طلبة مِن أهل السُّنة يدرسون في الحوزة الدِّينية بالنَّجف، فأنا أعرف أحد الموصليين السُّنيين مثلاً يدرس في مدرسة كاشف الغطاء.

ثالثاً البحث الخارج: في هذه المرحلة لا يوجد كتاب ندرسه مع الأساتذة، إنما يبدأ بكفاية الأستاذ، أي علمه مِن الصَّدر لا مِن كتاب معين، تُعرض المسألة ويناقشها الأستاذ عند أساطين الأُصول مثل: صاحب الكفاية الخراساني، والمرزا محمد حسين النَّائيني[3]،

---

(1) مجتهد كبير، تزعّم الحركة الدستورية العام 1906 بالنجف، وأشير إليه بأبي الأحرار، التي أسفرت عن إعلان الدستور في الدولة الإيرانية، توفى السنة 1911.

(2) مرجع شهير عند الإمامية، صاحب كتاب المكاسب، توفى السَّنة 1864.

(3) مجتهد معروف، عُرف بكتابه: تنبيه الأمة وتنزيه الملة، وكان أحد أقطاب الحركة الدستورية العام 1906 بالنجف، توفى السَّنة 1936.

وضِياء العِراقي[1]، ومحمد حسين الأصفهاني[2]، وهم أساطين علم الأُصول بلا منازعين، ومِن خلال ذلك نتعرف إلى آرائهم، والأستاذ المحاضر في بحث الخارج يُدخل رأيه بين آرائهم.

درستُ في بحث الخارج علِى يد السَّيد أبو القاسم الخوئي(ت 1992)، وهو عالمٌ في علم الأُصول منذ الخمسينيات مِن القرن الماضي، وكان هو المبرز في هذا المجال، وعلى يد السَّيد محسن الحكيم، في علمِ الفقه. وكنا نلجأ في هذه المرحلة إلِى كتاب الأخير «حقائق الأُصول» في حلِّ رمز كتاب «الكفاية في الأُصول» علِى ما أتذكر. مِن المعلوم أن الفرق بين الأُصول والفقه، هو أن الأُصول تعني علم استنباط المسائل، أي تكون مجتهداً وصاحب رأي، لأن النَّاس يطلبون الرأي في هذه المسألة أو تلك، وكان يُطلق على مَن لا رأي له «مسألة كو» بالفارسية.

كان أبو القاسم الخوئي يُدرّس عادة في مسجد الخضراء، ودرسه لا يتجاوز الثَّلاثين دقيقة، لكنه خلالها يطرح علماً وفيراً، ينحدر مِن صدره كالسَّيل، وكان السَّيد الحكيم يُدرّس في مسجد الرَّأس، والسَّيد عبدالهادي الشِّيرازي يُدرس في مسجد التُّرك (تحت السُّوباط)، فلكلِّ عالم مسجد يُقدم فيه درسه، وليس هناك ضوابط في حضور وغياب الطلبة بشكل عام. كانِ المجتهدون يختلفون في بحث الخارج، لكلِّ أستاذ طريقته أو أُسلوبه، لكن

(1) أقا ضياء العراقي مجتهد معروف توفى السَّنة 1942.

(2) ولد وتوفى بالنجف بالتزامن مع وفاة العراقي السَّنة 1942.

المعروف أن الأستاذ يبدأ في عرض المسائل ثم تفنيدها أو تأييدها، واحدة واحدة، والطَّلبة يُناقشونه حولها.

ليس هناك صفوف في الدِّراسة الحوزوية، إنما هناك كتب هي التي تُميز بين مرحلة وأُخرى مثلما تقدم الحديث عنها تفصيلاً. مَن ينتهي مِن بحث الخارج يكون مجتهداً، وتستمر الدِّراسة فيه سبع سنوات عند السيد الخوئي مثلاً، وقد حضرت الدَّورة الثَّانية بعد الأُولى التي بدأ فيها بالتَّدريس في البحث الخارج.

هناك عُطل بلا حدود، رمضان ووفيات الأئمة، ووفيات العلماء، وعاشوراء. لكن على ما يبدو أن هذا التَّقليد تحوّل إلى الدَّولة مؤخراً، وصارت العطلة في هذه المناسبات كافة.

بعد بحث الخارج يصل الطَّالب إلى درجة الاجتهاد، ويأخذ طريقه إلى المرجعية، على أن تكون له رسالة فقهية، لكن آخرين على الرَّغم مِن باعهم في الاجتهاد والعِلم والأستاذية لا يرغبون في التَّصدي للمرجعية، أو لا يُحالفهم الحظ للارتقاء إلى سدّتها. هناك ممَن يتوقفون عند حدٍّ في العِلم لا يصلون إلى درجة الاجتهاد والأستاذية، يبقون علماء دين، ويتولون وكالات للمراجع مثلاً.

بالنِّسبة إليّ أنا لم أكتب رسالة فقهية، فأول مرة وصلت إلى النَّجف ذهبتُ إلى ضريح جدي أمير المؤمنين، ووقفت عند رأسه وقلت: «مولاي أنا جئت أطلب علماً فلا توصلني إلى المرجعية». فقد كنت حينها أعتقد أن مَن يعتمر العِمامة سيصبح مرجعاً، وأنا

أخاف مِن المرجعية، لذا صار مساري مختلفاً. بينما اشتهر مِن زملائي وأترابي في الاجتهاد، منهم: حسين بحر العلوم، والسَّيد عزّ الدِّين بحر العلوم، والسَّيد علاء بحر العلوم.

أما المرجع الحالي السَّيد السِّيستاني فقد دخلتُ إلى الدِّراسة في الحوزة بالنَّجف قبله، لكنه كان دارساً مِن قبل، فلما كنت أدرس كتاب «قطر النَّدى» في مرحلة المقدمات أتى هو وباشر الدراسة في مرحلة السُّطوح، وسبقني إلى البحث الخارج، أقول: جاء جاهزاً مِن حوزة قُم، وقد درس على يد السَّيد حسين البروجردي (ت 1961). كتب السَّيد السِّيستاني رسالته الفقهية، أول مرة، في مئة وعشر صفحات فقط. في خصوص السَّيد عاتبني جماعتان: جماعة أخذت تلومني لأني قُلت: إن السِّيستاني أفضل مني، وأُخرى تعصبت ضدي لأني قُلت إنه دخل النَّجف بعدي، وهكذا.

الفصل الرَّابع

الإخوان المسلمون والتَّحرير

كان متألماً ممَن أرخ لحزب الدَّعوة، والحركة الإسلامية على العموم، وجعل له صِلة تنظيمية كاذبة بالإخوان المسلمين وحزب التَّحرير، قائلاً: همْ يرمونها هكذا بلا تدقيق وتحقيق، فما بين الصَّداقات والتَّنظيمات مسافة. لذا وجدته قد ركز على تلك الصِّلات، فلم تحجز المذهبية بينه وبين تلك الجماعات. قال: «سأفجر قنبلة في هذه الجلسة، وعليك التركز معي، فأنا كدت أصبح رئيساً لحزب الإخوان المسلمين، لكني لم أكن عضواً أو منتظماً»! فقلت: كيف تصبح عِمامة سوداء رأساً للإخوان؟! قال: «دعني أسترسل وسيأتيك جوابَ ما سألت عنه، فلا أعطيك الإجابة مبتورة، بلا مقدّماتها أو مستهلاتها».

كنت أخشى أن وقت أذان العصر يداهمنا، ونحن في المقدمات، لكننا قطعنا شوطاً. فجأة ترك ما نحن به وأخذ يتحدث عن صديق له وهو الكاتب عبدالرَّحيم محمد علي، فحاولت سحبه إلى ما نحن فيه، إلا أنه لا يريد أن يسمع، ثم علّق قائلاً: «يصعب عليَّ أن يمرَّ ذِكر هذا الصَّديق مِن دون أن أطنب عنده». فقلت: ربَّما يكون خَلل في تسلسل الحوادث! فقال: لا يهمني ذلك فعبدالرَّحيم في صلب الحوادث، فاستسلمتُ، فصار لصاحبنا فرع لكن ليس في هذا الفصل، إنما في تقديم صاحب الأمالي.

قال: لم يكن هناك قبل العام 1958 نشاط حزبي إسلامي شيعي منتظم، يُعرف باسم حزب الدَّعوة، هذا تاريخ أنا شاهدٌ عيانٌ عليه، أجزم على ذلك كوني أحد المؤسسين، لا ناقل رواية

أو باحث في كتاب. أما ما قيل عن تأسيسه وأُرِّخ له بقبل انقلاب 14 تموز (يوليو) 1958، أي العام 1957، فهو مجرد كلام في كلام، لا أساس له مِن الصَّحة. نعم كانت هناك إرهاصات بسبب انعكاسات الأحزاب الإسلامية السُّنية على السَّاحة العراقية، وبعض الشَّباب مِن أبناء الشِّيعة ممَن انتظم فيها، على الرَّغم مِن اختلاف المذهب، مثل «الإخوان» و«حزب التَّحرير». أما كفعل إسلامي شيعي محض فلا وجود له قبل نشاط عزِّ الدِّين الجزائري[1]، وتنظيمه «الشَّباب المسلم».

لم أنتَم إلى جماعة «الشَّباب المسلم»، لعدم قناعتي بمؤسسها، فليس مِن المعقول أن أنتمي إلى هذه الجماعة وأنا أعرف تمام المعرفة أن الجزائري كان إنساناً بسيطاً في المعلومات وفي التَّفكير، ربما كان مخلصاً، أو لديه شيء مِن العلمية، ورجلاً متديناً، لكنه ليس لديه ما يُلبي طموحي آنذاك في العمل الإسلامي. لعل ذلك كان في العام 1955، وكان عزُّ الدِّين يتردد عليَّ في مكان سكني مدرسة القوام بالنَّجف، التي انتقلتُ إليها بعد الغرفة المقبرة، مثلما مرَّ بنا الحديث.

كان السَّيد محمد مهدي الحكيم (اغتيل 1988)، وهو أحد المتطلّعين إلى عمل سياسي إسلامي آنذاك، يعرف تمام المعرفة أن الشَّخص الذي له صلات وصداقات مع الأحزاب السُّنَّية،

---

(1) أسس جماعة الشباب المسلم، نجل الشيخ محمد جواد الشبيبي، توفى بلبنان العام 2005.

«الإخوان» و«التَّحرير»، هو طالب الرِّفاعي. ولتلك الصِّلات مع الأحزاب السُّنّية، التي لم تكن تنظيمية على الإطلاق، كان عزُّ الدِّين الجزائري يُحذِّر الآخرين مني، بأني خطر عليهم. فحينها كنت أعرض على الجزائري ما أحصل عليه مِن نشرات إخوانية، رغبة في عمل إسلامي ما، لكنه قام يُشهّر بيَّ على أني أدعو إلى الأحزاب السُّنّية. مع أن ذلك التصور لا أساس له في الواقع، فأنا لستُ منتظماً في تلك الأحزاب، ولا أدعو الآخرين للانتظام في صفوفها، إنما كانت لي صداقات مع عدد مِن أعضائها.

حينها حدّثني السَّيد مهدي الحكيم بأنه قرأ كتاب «فلسفة الثَّورة» لجمال عبدالنَّاصر (ت 1970)، وأنا لم أقرأه حتى هذه اللحظة، وفلسفة الثَّورة تعني الخطوط العامة لجمال عبدالنَّاصر، أما النَّص فهو على أغلب الظَّن مِن كتابة محمد حسنين هكيل، الإعلامي البارز ورئيس جريدة «الأهرام» في الفترة النَّاصرية.

كان الحكيم يقول لي بعد قراءته للكتاب المذكور: «يصح أن هؤلاء العسكر يستطيعون القيام بحركة يغيّرون بها نظام الحُكم، ونحن الإسلاميين والمسلمين والمرجعيات لا نستطيع العمل لإيجاد سبيل لتحقيق نظام إسلامي. كنا نتبادل مثل هذا الكلام، نتبادل الرأي»! حينها قلت له: «أنا وأنت لا نستطيع عمل شيء، مع وجود المرجعيات. إن مرجعية والدك (السَّيد محسن الحكيم) لو أنت أعلنت العمل الحزبي لا أظنها ستحميك»! لكلِّ ذلك كان ما نطرحه أو نفكر به، هو مجرد أمانٍ لا أكثر ولا أقل.

كان معنا في تداول هذا الشَّأن وتبادله صاحب الدَّخيّل، ومحمد صادق القاموسي، وكان اتجاه الأخير اتجاهاً أدبياً، ولا أعتقد أنه مارس عملاً إسلامياً سياسياً مثلما نراه نحن. نعم أنه كان رجلاً محترماً والاهتمام في الشَّأن الأدبي كان طاغياً عليه، وله شعرٌ رصين، لكنه ليس لديه فكر أو نشاط إسلامي.

حصل أن جاءني السَّيد مهدي، وقال لي: «أنا تحدثت مع السَّيد الوالد (السَّيد محسن)، ولتكن هذه الخطوة الأُولى بيني وبينك لا تُذِعْها». وأردف قائلاً: «إن السَّيد (ويعني والده) يختار أشخاصاً مثل عبدالزَّهرة فخر الدِّين، وهو رجل متدين من تُجار النَّجف المعروفين مثلاً، وآخرين في كلّ بلدة عِراقية، ويطرحون أنفسهم للعمل في الانتخابات (العهد الملكي)، فيصعدون إلى البرلمان، أشخاص عددهم يزيد على العشرين شخصاً، فإن هؤلاء إذا طُرح في البرلمان شيء غير إسلامي سيصوتون ضده، وهؤلاء مِن ثُقات السَّيد الوالد، ومنهم سيكونُ لديه وزنٌ إسلاميٌّ داخل البرلمان، الذي يصوغ القوانين والأنظمة». امتدحت للسيد مهدي ما ينوي عليه والده مِن عمل، لكنها لم تُطرح على أرض الواقع، ولم تُنجز، وبقينا على ذلك لم نتقدم خطوة واحدة.

شِيعة في أحزاب سُنيّة

استمرّت علاقاتي بالأحزاب الإسلامية السُّنَّية، مثل «الإخوان المسلمين»، وصلات مع مؤسسهم والمتقدم بينهم آنذاك الشَّيخ

محمد حامد الصَّواف[1] مباشرة، وكان يشرف على جمعية فلسطين، وكنت أزوره في مكتبه ونتحدث، ولاحظت أنه كان يُسَرُّ بزيارتي كوني معمماً شيعياً.

كذلك كانت لي صلات بـ«حزب التَّحرير»، في بداية الخمسينيات، مِن دون الانضمام إلى تنظيمهم، اتصلت بعبدالقديم زلوم[2]، وهو أول مبعوثٌ شخصي لمؤسس الحزب المذكور الشَّيخ تقي الدِّين النَّبهاني[3] إلى العِراق، وهو مدرِّس فلسطيني يحمل الجواز الأُردني، وصل العراق بصفته أُردنياً، وأخذ يدعو داخل العِراق إلى «حزب التَّحرير»، حينها التحق به جماعة مِن أهل السُّنَّة، وأذكر منهم المحامي فاضل السُّويدي وأخاه عبدالقادر السُّويدي، وكانا في الأصل مِن «الإخوان المسلمين». وانتمى أيضاً لـ«حزب التَّحرير» الشَّيخ عبدالعزيز البدري (قُتل 1969) عن طريق فاضل السُّويدي، وكان انتماؤه عاطفياً إلى أبعد الحدود، وهو عالم دين وخطيب، ويُصدر مجلة «الهدى» الإسلامية.

كذلك التحق بعبدالقَديم زلوم وانتسب إلى «حزب التَّحرير» مِن الشِّيعة محمد عبدالهادي السُّبَيتي، وكان قبلها منتسباً إلى

(1) ينسب له إدخال تنظيم «الإخوان المسلمين» إلى العراق عندما كان يدرس بالقاهرة الفقه، وهناك كان يحضر دروس أو محاضرات حسن البنا فأُعجب به، هاجر مِن العراق نحو 1959 وعاش بالمملكة العربية السعودية، وتوفى السَّنة 1992.

(2) عبدالقديم يوسف زَلوم فلسطيني، صار نائباً لرئيس «حزب التحرير»، ثم تولى رئاسته بعد وفاة مؤسسه النبهاني، توفى السَّنة 2003.

(3) فلسطيني، مؤسس «حزب التحرير»، توفى السَّنة 1977.

«الإخوان المسلمين»، وهو نجل عبدالله السُّبيتي، وجده لأمه عبدالحسين شرف الدِّين، مِن أسرة علمية وأعيان جبل عامل بلبنان، وبعد حين أصبح السُّبيتي مسؤولاً عن فرع التحرير بالعراق، ثم خرج منه وصار بعد حين رئيساً لـ«حزب الدَّعوة الإسلامية».

كان لقاء السُّبيتي بمبعوث «حزب التَّحرير» عن طريق الإخواني سابقاً والتحريري لاحقاً فاضل السُّويدي، وكان الأخير يحمل كتاب مؤسس الحزب تقي الدِّين النَّبهاني «نِظام الحُكم في الإسلام»، وكان هذا الكتاب يُدرّس على شكل حلقات للجماعة الذين اتصلوا بالحزب، وحينها كان السُّبيتي في السنة الثَّانية في كلية الهندسة.

انتمى أيضاً، مِن الشِّيعة، إلى «حزب التَّحرير» الدُّكتور جابر العطا (ت 2011)، وكان في البداية قومياً مستقلاً، يوم كان يعيش بالنَّجف، ولما ذهب إلى بغداد تأثر بفكر «الإخوان المسلمين»، فانطلق معهم في دعوتهم وانتظم في كشافتهم. وبحكم علاقة عطا بالسُّبيتي، وأن الاثنين كانا معاً مِن «الإخوان»، اتصل عطا بزلوم. بعد التَّعارف، ومرور الأيام، درس عطا على يدي كتاب «معالم الأُصول» و«اللُّمعة الدِّمشقية»، عندما يأتي إلى النَّجف، وكان آنذاك ببغداد في السَّنة الثَّانية مِن كلية الطِّب، وبعدها تخرج طبيباً.

هناك أسماء شيعية عديدة كانت قد انتظمت في «حزب التَّحرير»، فمِن غير المذكورين أعلاه، انتظم فيه مِن الشِّيعة:

الشَّيخ عارف البصري، وأخوه عبدعلي البصري، والشَّيخ سُهيل السَّعد، وعبدالمجيد الصَّيمري، وعبدالغني شُكر من أهل النَّاصرية، وهادي شعتور، وهو مِن سوق الشِّيوخ، جنوب النَّاصرية.

ذكرني السُّبيتي لـ«حزب التَّحرير»، على أن ثقافتي إسلامية سياسية، وكنت خلال الصَّيف أُقيم بمدينة الكاظمية، وهناك مدرسة تُسمّى مدرسة الجوادين، وكانت لي غرفة فيها، ومعتمدها الباحث العِراقي المعروف أحمد أمين، وهو شيعي عِراقي، وصاحب كتاب «التَّكامل في الإسلام»، وأُعطيت لي غرفة أفضل مِن غرفته، وكان الشَّباب، الذين انخرطوا في «حزب التَّحرير»، مثل السُّبيتي وجابر عطا، يجتمعون في المدرسة ويناقشون أوضاعه الحزبية.

لما كان السُّبيتي ينشط ضمن «الإخوان المسلمين» يأتيني بنشراتهم، وكنت أقرأها كلها، وأنا بالكاظمية، فصارت عندي خميرة إسلامية سياسية، وبحكم ترددي على الأستاذ أحمد أمين تكوّنت لي علاقة معهم. كنت شاباً معمماً مِن النَّجف، وفي ذلك الوقت في العشرين مِن عمري، وهناك تعرفت بجابر عطا على الرَّغم من أننا نحن الاثنان مِن النَّجف، وكنت أراه، لكنه كان حينها يميل إلى حزب «الاستقلال القومي».

خطّط السُّبيتي وجابر عطا على كسبي إلى نشاطهم الحزبي التحريري، أي في «حزب التَّحرير»، فأنا معمم ونجفي (خوش صيده لحزب التَّحرير). فحدثاني عن حزب جديد يُعرف بـ«حزب

التَّحرير»، وأن الموفد إلى العِراق، مِن قبل الحزب، عبدالقديم زلوم يريد رؤيتي. فسألاني: هل لديك مانع في أن تلتقي به؟ فقلت: على العكس أُرحّبُ بلقائه، وأحبُّ الاطلاع على نشاط هذا الحزب وأفكاره.

ثم قالا يُريد أن يعقد حلقةً دراسية في غرفتي، حيث مدرسة الجوادين، فرحبت بالفكرة. وبالفعل في حدود السَّاعة الرَّابعة أو الخامسة عصراً حضر عبدالقديم زلوم إلينا، وكان يعمل مدرّساً في ثانوية الكرخ ببغداد، ويسكن في فندق الكرخ، على ما أتذكر. كان الحاضرون أنا وجابر عطا ومحمد عبدالهادي السُّبيتي، الذي أدار الحلقة زلوم، ومِن ذلك التَّاريخ عُقدت لي صداقة معه، وأخذت أزوره كلما سنحت الظُّروف وأتيت لزيارة بغداد.

كتاب النَّبهاني

تقدم السُّبيتي في قيادة «حزب التَّحرير»، وكان يذهب بين كلِّ فترة وأُخرى إلى الأُردن للاجتماع بالمؤسس تقي الدِّين النَّبهاني، واستمر داخل الحزب نحو أربع سنوات. كان الشَّيخ النَّبهاني يصدر الكتب، ومِن بعض ما أصدر كتاب «الخلافة»، شجب فيه بيعة الغدير، وشجب رأي الشَّيعة فيها، وضعف الأحاديث التي قالت بها.

شعرتُ مِن خلال قراءتي للكتاب بأنه توجه اتجاهاً «تيمياً»، نسبة للشَّيخ أحمد بن تيمية (ت 728 هـ). كتب النَّبهاني ذلك مع أن في حزبه عدداً مِن الشِّيعة، ومن بينهم قياديون، والأمر لا يتعلّق

بالمذهب الشِّيعي إنما يتعلّق بحزبه نفسه، وسيؤثر كثيراً في عمله داخل العِراق، ذلك لوجود كثافة سكانية شيعية.

إثر صدور كتاب «الخلافة» أخذ السُّبيتي يُناقش مؤسس الحزب النَّبهاني، وقد قصده إلى الأُردن، وكان مِن طبيعته صارماً حاداً في نقاشه، وكذلك النَّبهاني كان عنيداً لا يتنازل عن آرائه، وفي ذلك النِّقاش التقى العنيدان. أصرَّ النَّبهاني على رأيه، ومِن جانبه السُّبيتي إذا أراد التعبير عن شيء لا يعجبه أو رفضه يقول مباشرة: «هذا كُفر»! ولما لم يستطع التخفيف مِن غلواء النَّبهاني في هذه القضية بالذات ترك «حزب التَّحرير»، كان ذلك على ما أتذكر في العام 1955.

عندما عاد محمد عبدالهادي السُّبيتي إلى بغداد، بعد مقابلة النَّبهاني، التي أدَّت إلى تركه «حزب التَّحرير»، ذكر ما حدث لجماعته مِن الشِّيعة المنتظمين في الحزب، فاستقال جابر عطا مِن الحزب، وتبعهما في الاستقالة هادي شعتور. وحاولتُ مِن جانبي زرع بذرة الشَّك عند الشَّيخ عارف البصري، بمعنى إفساد رأي، كي يخرج هو الآخر مِن «حزب التَّحرير»، وبدوره سافر البصري إلى البصرة وأخذ يؤثر في المنتمين إلى التحرير هناك مِن الشِّيعة، وقد لاحظ المعتمد، أو الذي يقود التَّثقيف بأفكار الحزب بالبصرة، الشَّيخ عبدالعزيز البدري أن هناك انقلاباً لدى الأعضاء الشِّيعة ضد الحزب نتيجة ما كتبه مؤسسه تقي الدِّين

النَّبهاني. بهذا انتهى فصل وجود الشِّيعة داخل حزب سُنّي هو «حزب التَّحرير».

اجتماعٌ بالنَّجف

أتذكّر أن مؤتمراً عُقد في مدرسة القوام بالنَّجف، خريف 1959، ففاتح محمد عبدالهادي السُّبَيتي أهلَ بغداد مِن الإخوان، مثل فاضل السُّويدي وأبا علي حسين الدَّبوني، وكان الأخير أنشط إخواني إسلامي بين جماعته، بحسب التحرك والكلام. كان مِن عادته ارتياد مقهى الأعظمية، ويتحدث علانيةً في الشَّأن الإسلامي، وضد الحكومة العِراقية في العهد الملكي بلا تحفّظ.

كنتُ أستغربُ مِن تصرّفه هذا، فكيف تتركه الحكومة العراقية آنذاك هكذا، فلا أدري هل كان متواطئاً معها، إلا أنه ترك التنظيم الإسلامي جملةً، وكان آنذاك طالباً في الخامس الثَّانوي، وماتت والدته فحصل على إرث، ثم سافر إلى سوريا لدراسة الحقوق في جامعتها، وهناك انقطعت أخباره عنّا، فسألت السُّبَيتي عنه فقال: إنه ترك العمل الإسلامي.

حضر إلى مؤتمر مدرسة «القوام» أو اللقاء، أبو علي حسين الدَّبوني وفاضل السُّويدي وصاحب دِخَيِّل ومحمد هادي السُّبَيتي مِن طرف إسلاميي بغداد، سُنَّة وشِيعة، وكنا مِن طرف النَّجف: طالب الرِّفاعي، ومهدي الحكيم. يومها شعر القوميون بهذا النَّشاط، فأرسلوا إلينا عبدالرَّحيم محمد علي، صاحب الكتابات

المشهورة آنذاك، وهو يبدو لي أفضل مَن كتب عن تاريخ المرحلة بالنَّجف على شكل يوميات، وبعد قتله لا نعلم بمصيرها.

اجتمعنا في مدرسة القوام كإسلاميين سُنَّة وشِيعة، فكانت العلاقة بين الإسلامين الشِّيعي والسُّنِّي جيدة، وليس هناك تضارب. آنذاك لم يوجد لدينا، كحزب شيعي، كتاب نتثقف به، فعمدنا إلى التَّثقيف بكتب «الإخوان المسلمين». أقولها حقيقة: إن أوّلَ تعرّفنا إلى الإسلام السِّياسي كان عن طريق «الإخوان»، وهم أرضيتنا في العمل السِّياسي. إن ما قيل عني كوني كنت مِن «الإخوان المسلمين»، أو «حزب التَّحرير» هو نتيجة صلاتي وعلاقاتي معهم، وهذا ما أخطأ به السَّيد حسن شُبَّر في كتابه عن الأحزاب الإسلامية في العراق، وهذا غلط في غلط، فهو لم يكن باحثاً إنما وضع معلومته على السِّماع لا أكثر.

التفكير بعمل شيعي

مِن المعلوم أن مَن يمارس العمل السِّياسي الحزبي يشبه السَّمك، لا يعيش خارج الماء، فلا بدَّ من أن يعمل في حزب، ولهذا أخذ السُّبيتي وجماعته يحومون حولي، وكانت عِمامتي هي العِمامة الوحيدة التي صاحبها له صلات وعلاقات بالأحزاب، لكن مِن دون انتماء، فصارحني السُّبيتي وجابر العطا، بأنه لا بدَّ من تأسيس عمل إسلامي جديد، وأن أستعد لتحمّل مثل هذا العمل على نمط غير نمط «حزب التَّحرير». قلت لهم: أنا شخصياً لا أصلح لهذه المهمة.

فسألاني: مَن يصلح لهذه المهمة؟ فقلت: إذا كنا نبحث عن شخصٍ قياديٍّ ويكون رمزاً للعمل فهو السَّيد محمد باقر الصَّدر، وكنت أُشير إليه في هذا الأمر منذ ذلك التَّاريخ. وقلت لجابر العطا: شدوا حيلكم، ولنقترب من الصَّدر ونؤثر فيه، وكنت أود أن يبقى هؤلاء خارج الأحزاب السُّنية آنذاك، أما الآن فهذا الشُّعور انتهى، ولم يبق منه شيء مِن تلك الحساسية المفرطة، فمثلما قلت هم مثل الأسماك لا بدَّ مِن مياه حزب يعيشون فيها.

كلما أتى جابر إلى النَّجف أصحبه معي لزيارة باقر الصَّدر، حتى نشأت علاقة بينهما، وأخذنا نُكرِّر الزِّيارات ونطرح معاً قضايا إسلامية، حتى أخذ الصَّدر يميل إلى الفكر الإسلامي خارج الفقه والمساءلة الدِّينية الصَّرفة، شعرتُ بذلك مِن خلال طرحه وما يُصرّح به أمامنا. وقويت الوشائج إلى تبادل الزِّيارات في التَّعازي والأفراح، وكنا أنا وجابر لا نفترق خلال زيارته إلى النَّجف، لكن عملنا ظل في هذه الحدود، ولم يتطور مِن تلك الهواجس عملٌ إسلامي منظم قبل 14 تموز (يوليو) 1958.

ترشيحي لرئاسة الإخوان

قُلت كانت علاقتي بجماعة «الإخوان» تمتدُّ إلى أوائل الخمسينيات، مِن القرن الماضي، والصِّلة كانت بالمؤسس محمد محمود الصَّواف، وكنت أتردد على جمعية فلسطين التي يتبنّونها، وقراءتي لمنشوراتهم، وأن محمد هادي السُّبيتي كان على

صِلة بهم وبـ«حزب التَّحرير الإسلامي». أما علاقتي بالـ«حزب الإِسلامي العِراقي»، وهو حزب «الإخوان المسلمين» فرع العِراق، فأَقصّها كالآتي:

في أحد الأيام، مِن العام 1960، أتيت إلى الكاظمية قادماً مِن النَّجف الأشرف، وكان السَّيد محمد باقر الصَّدر هناك، وكان مقصد زيارتي إليه، بعد زيارة ضريحي الإمامين الجوادين: موسى بن جعفر وحفيده محمد الجواد. ذهبتُ إليه ولحظتها جاء أحد مسؤولي تحرير مجلة «الأضواء» بالنَّجف ليأخذ كلمة الصَّدر، وهي تُنشر تحت عنوان «كلمتنا» بلا اسمه، وبعد توقفه عن كتابتها أخذ يكتبها السَّيد محمد حسين، ثم كتبها أبو إبراهيم الشّيخ محمد مهدي شمس الدِّين (ت 2001)، وبعد الغداء مكثت مع الصَّدر حتى العصر، ونقلنا مجلسنا إلى الحديقة، وكان البيت أعطاه له أحد مريديه طوال فترة وجوده بالكاظمية.

نحن في هذه الأثناء، وإذا بخاله الشَّيخ مرتضى آل ياسين يدخل علينا، فنهضنا لاستقباله، وما إن رمقني ببصره الشَّريف قال: سيد طالب! شكو عندك هنا هذا مو مكانك! لحظتها أستغربت مِن هذا الأُسلوب وهذه اللهجة، مع أن الشَّيخ في منتهى الأخلاق واللُّطف! ثم قال: مكانك «الحزب الإسلامي»، عجّل إلى هناك، فالآن مؤتمره يُعقد بالأعظمية.

مباشرة نهضتُ وذهبتُ إلى مكان انعقاد المؤتمر، فأخذت سيارة أجرة ووصلت، وإذا بمكبرات الصَّوت تلعلع، كان ذلك بعد

إجازة تأسيس الحزب العام 1960، وكان عبدالكريم قاسم أجازهم في يوم واحد هم والحزب الشِّيوعي البديل، جماعة يوسف الصَّائغ، وليس الحزب الشِّيوعي العراقي الذي كان أمينه العام سلام عادل[1].

دخلت إلى المؤتمر وإذا أجد الشَّيخ جليل شختور، وهو شيعي مِن سوق الشِّيوخ ابن الشَّيخ يوسف شختور، أحد علماء مدينة سوق الشِّيوخ، وهو مِن الإسلاميين أيضاً. ووجدت أحد الحلاقين وهو مِن مدينتي الرِّفاعي، وليس له لا بالعير ولا بالنَّفير، واسمه شنان، يعتمر العِقال والكوفية، وكنت أعرفه مِن الرِّفاعي، فقلت له: شنان ماذا تفعل هنا! وعرفت أنه في «الحزب الإسلامي العِراقي»، أي مِن «الاخوان المسلمين» أيضاً، وهو الآخر شيعي بطبيعة الحال، وهو على ما يبدو جرفه التَّيار ضد الشِّيوعيين أيضاً.

دخلتُ قاعة المؤتمر، فاستُقبلتُ استقبالاً حاراً حافلاً، وأنا بعمامتي السَّوداء وجبتي، وصادف أن انتهت كلمة المتحدّث مِن على المنصة، فأخذوني مِن الباب إلى المنصة مباشرة لأُلقي خطاباً في المؤتمر، فهذه فرصة كبيرة كوني عالماً شيعياً، وبمواجهة عبدالكريم قاسم، ويشارك في مؤتمر «الإخوان المسلمين»، إنها فرصة لا تعوّض. كان مستهل كلمتي الآية الكريمة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[2].

---

(1) اسمه الصَّريح محمد حسين الرَّضي، مِن النَّجف، قُتل تحت التعذيب على يد سلطة الحرس القومي، بعد انقلاب 8 شباط 1963.

(2) سورة المائدة، آية: 48.

انطلقت مِن الآية ومكبرات الصَّوت تصدح، والقائمون على المؤتمر كانوا مسرورين أيما سرور، وقد ذكرتُ هذه الحكاية عند رواحي إلى مصر، بعد حين، للشَّيخ طه جابر العلواني، فقال لي: أنا الذي قدمتك في تلك المناسبة، وأنا الذي صعدت معك إلى المنصة، وما كنت أتذكر اسم مَن قدمني عندها.

فقلت: «شهد شاهد مِن أهلها». لأنه كان ضمن جماعة «الإخوان المسلمين». هناك منقبة للشِّيخ العلواني، فقد حكى لي أنه عرض عليه الضَّابط عبدالغني الرَّاوي، فتاوى لتطبيق الشَّريعة بالشِّيوعيين المعتقلين[1]، بعد انقلاب 8 شباط (فبراير) 1963، استحصلها مِن كبار علماء الدِّين، الشيعة والسُّنَّة، فلو نُفِّذت تلك الفتاوى لكانت كارثة، وقلت للشَّيخ طه: جزاك اللّه خيراً، وقد سلّمني نشرة بهذا الخصوص.

أخذتُ أفسّر الآية المذكورة، وطال الخطاب نحو الخمسين دقيقة، وكان بحسب ما سمعته مِن الحضور وما بان مِن سرور على وجوههم موفّقاً، لم أُهاجم أَحداً إنما كانت كلمتي إسلامية دينية بحتة، ولم أتحدث عن شِيعة وسُنَّة، بل حصرت الحديث

---

(1) كان ذلك في تموز (يوليو) 1963 إثر محاولة انقلاب قامت بها عناصر عسكرية محسوبة على الحزب الشيوعي العراقي، وقد ذكر تلك الفتاوى عبدالرواي في رده على طالب شبيب، في جريدة «الزمان» (لندن 1999)، وذكرها الشيخ طه جابر العلواني في كتابه الردة والمرتدون، وذكر خبرها هاني الفكيكي في كتابه: أوكار الهزيمة. سنأتي على رأي السيد طالب الرفاعي بها في ما بعد.

في محاسنِ الشَّريعة الإسلامية والنِّظام الإسلامي. لما نزلت مِن المنصةِ أُخذت بالأحضان والتَّقبيل والتَّرحيب المنقطع النَّظير، فقد أشعروني بما لم أكن أتوقعه، فقلت حينها: جزاك اللّه يا شيخنا المرتضى، لما أشار عليَّ بحضور هذا المؤتمر، بل أمرني بالحضور.

بعدها كنت عِندما أسيرُ في الشَّارع ببغداد، أو أزور مجلساً مِن المجالس، يتقدّم أُناس يسلمون عليَّ، منهم أكراد مثلاً، ويقولون: نشكرك على كلمتك في مؤتمر الحزب. مرَّت فترة قصيرة، وعقدوا مجلساً لاختيار رئيس لـ«حزب الإسلامي العِراقي»، ولم أكن أعلم بذاك أن اسمي كان مرشحاً لهذه المهمة.

كنت جالساً في غرفتي الكائنة في مدرسة القوام بالنَّجف، زارني الصَّديق القديم معن العجلي، وهو شيعي دخل مع «الإخوان المسلمين»، ومِن بعد ذلك تحوّل إلى المذهب السُّني، وهو يتحدّر مِن عشائر سوق الشِّيوخ مِن حجام وعجيل فخذ منها، وعلاقتي به ظلت وثيقةً جداً، وكان يعتمر العِقال وكوفية بيضاء دائماً، التي يلبسها على الغالب أهل السُّنة والجماعة مِن المناطق الغربية، جاء إلى النَّجف ودرس فلسفة وهو على المذهب السُّنّي، وهو رجلٌ تعلّم القراءة والكتابة متأخراً، أي كان عمره نحو العشرين عاماً، كان ذكياً فتعلّم وأجادَ، وسريعاً صار كاتباً، وبرزت لديه قدرات بيانية وعلمية رفيعة. كان يقول لي: نحن أُصولنا كانت سُنية والتَّشيع كان طارئاً علينا.

بدأ العجلي قومياً مستقلاً، حتى سمَّى ولده المهلب، تيمناً بالمهلب بن الصُّفرة[1]، القائد العربي المعروف، وبقية أولاده أيضاً بمثل هذا الاسم، ولما صار سُنِّياً سمّى أحد أولاده عُمَر. فأعتقد أنه بالاحتكاك بين القوميين والإخوان المسلمين ظهرت لديه القناعة في التَّحوّل إلى المذهب السُّني، أو الفكرة السَّلفية.

لم يعترضه، بعد تحوله، أحدٌ لا بالنَّجف ولا بسوق الشِّيوخ جنوب العِراق، بل على العكس كان محترماً ويجالس كبار علماء الشِّيعة، مثل الشَّيخ محمد جواد الجزائري، بينما كان الأخير أحد الأساتذة في الحوزة الدِّينية، وكانت له علاقة بالمجتهد عباس الرُّميثي، واستمرت علاقته معي كما هي مِن قبل، وظلت حياتُه مِن طعام وسكن في بيوتنا. كنا نختلف معه، لكن الإخوانيات ظلت قويةً بيننا.

ظلَّ العجلي يتردد بين العِراق والبحرين، وقبل خمس سنوات، أي نحو 2006، التقينا بدولة الإمارات العربية المتحدة، ودعاني وذبح لي ذبيحة تكريماً لي، وكان نازلاً عند ولده عمر، واستمر على سُنِّيته، وراح إلى بيت الماجدي هنا، ويداوم على الجلوس في مجلسهم، وطلب مني أن أعمل في السِّياسة، وأدعو إلى نفسي، ثم دعوته، لكني وجدته يبالغ بيَّ كثيراً، حتى قال: أنت الذي يجب أن يكون مرجعاً، وليس السَّيد السِّيستاني، وهذا ما لا أقبله لنفسي.

---

(1) أحد قادة الأمويين البارزين تولى خراسان للحجاج بن يوسف الثقفي، وحارب الخوارج، وتوفى السَّنة 82 هـ.

بعد الإطناب عند صديقنا معن العجلي نواصل الحديث. جاءني في غرفتي الخاصة وإذا به يضحك مباشرة بلا مقدمات، فقلتُ خيراً إن شاء الله تضحك يا أبا المهلب! قال: جئتك بخير الدُّنيا والآخرة. ثم قال: قبل ذلك قُم والبِسْ ثيابك، فالسَّيارة تنتظرنا. فسألته: ما القصة! قال: الآن مجلس الحزب الإسلامي ينعقد ببغداد، فلما بحثوا في اختيار رئيس للحزب اتفقوا على اختيار طالب الرِّفاعي رئيساً. فالمجلس يبقى ينتظر مجيئك، وهو في حالة انعقاد حتى يبايعوك.

قلتُ: يا معن هذه قضية كبيرة وخطيرة في الوقت نفسه على شخص مثل طالب الرِّفاعي. قال: هم اختاروك، وأنا جئت أبلغُك ومعي سيارةُ أحد كبار الجماعة الخاصة تنتظرك مع سائقها، وهي مدة المسافة من النَّجف إلى بغداد. فأخذتُ أفكر بمخرج، فالمسألة ليست سهلةً، أن حزباً سُنِّياً يختارُ معمماً شيعياً رئيساً لهُ! هذا لم يحدث في التَّاريخ أبداً. ففهمت أنهم اختاروني انطلاقاً مِن خطابي في قاعة مؤتمر الحزب.

أخبرت معن: انتظرني لعشرين دقيقة أذهب إلى الشَّيخ مرتضى آل ياسين وأعودُ إليك. فلا بدَّ مِن الاستشارة لأني بالأساس، بعمامتي ووضعي الخاص، أُمثّل جهة، ونحن كنا قد شكّلنا «حزب الدَّعوة»، وعلاقتنا مع «الإخوان المسلمين» جيدة، نحضرُ مناسباتهم، ويحضرون مناسباتنا إلى آخره. وعندما كنا نذهب إلى مناسباتهم نجدهم رافعين صور الإمام علي بن أبي

طالب والإمام علي الرِّضا وما تيسَّر مِن صور الأئمة. لكن تريد الحقيقة، أنا الآن اعتبر تلك الحركات كليشيهات سياسية لا أكثر، فكلُّ القضية كانت موجهة ضد عبدالكريم قاسم.

ذهبتُ إلى الشَّيخ مرتضى آل ياسين، وقلت له: أنا في حَيرةٍ مِن أمري، عُرضت عليَّ قضية ترشيحي لرئاسة مجلس «الحزب الإسلامي العِراقي»، فبماذا تنصحني! قال: أنت حُرٌّ في هذا الأمر، وإذا ترى في نفسك القدرةَ فلك الأمر، وأنت حرٌّ نفسك. فوجدت الشَّيخ مرتضى لم يرجّح لي القبول أو الرفض، فأبقاها على مسؤوليتي. لما صارت على مسؤوليتي، قلتُ في نفسي: لا أستطيع تحمّلَ هذه المسؤوليةَ، فسأُحرق حرقاً بالنَّجف عن طريق الألسنة والأقلام، أي سيحرقني الشِّيعة كوني صرت رئيساً لحزب سُنّي.

عدتُ إلى معن العجلي، وكان ينتظرني في غرفتي، وقلتُ له: اشكر لي جماعة «الحزب الإسلامي» على هذه الثِّقة وهذا الاختيار والتَّرشيح، لكني لا أجدُ في نفسي القدرةَ ولا القابلية على تلبية طلبهم في أن أكون على رأس الحزب، أولاً لصغر سني، قياساً بكبر المهمة، وقلة تجربتي، وأنت تعرف لو قبلت بالمهمة سيفترق قومي في أمري، فربَّما هناك فريق يوافقني ويؤيدني، لكنه سيكون الأقل.

قلت: بينما الأكثر سينالني بالرِّماح والصَّوارم، وأنا ليست لي قدرةٌ على المجابهة، وجماعة «الإخوان المسلمين» اختاروني لشيعيتي وعِمامتي، وأنا لستُ قائداً للشِّيعة، إنما أنا طالب الرِّفاعي

الفرد، فإذا أرادوا أن يتمَّ الأمر فليكن عبر طريقة أخرى، وهي أن يُقدّمَ طلبٌ إلى المرجعية الدِّينية، ثم الأخيرة تُكلّفني به.

أما أن أكون أنا بصفتي الشَّخصية قائداً شيعياً لطرف آخر، وعلى مسؤوليتي فهذا صعبٌ عليَّ. فردَّ قائلاً: أنت الشّجاع والجريء! فقلت: ليست هناك شجاعة، وأشكرك على هذا الإطراء يا أبا المهلب، وأي رئيس للحزب يأتي سأكون سانداً له، ونحن معكم في معسكرٍ واحد ضدَّ الكفر والإلحاد.

عاد معن إلى المؤتمرين، وحينها اختار الحزب الإسلامي عبدالرَّزاق نعمان السَّامرائي رئيساً للحزب، وانتهت القصة إلى هنا.

محاولة إنقاذ سيّد قُطب

لما صدر الحكم بعقوبة الإعدام على القائد الإخواني المشهور سيّد قُطب (أُعدم 1966)[1] بمصر في زمن جمال عبدالنَّاصر، دَخَلَنا ما دَخَلَنا نحن في «حزب الدَّعوة» من الحزنِ والأسى، فقُطُب أحدُ أبرز القادة والمفكرين الإسلاميين. فأخذنا نُفكّر ماذا نعمل في هذه القضية الخطيرة على العمل الإسلامي، وأن سيّد قُطب أُخذ وحُكم بالإعدامِ لأنه إسلاميٌّ لا لشيءٍ آخر، لم يكن تاجرَ مخدراتٍ، ولا لأي قضية أخرى، وعنوانه الإسلامي يهمّنا.

(1) كان سيد قُطب مسجوناً في المرة الأولى، وحكم بالإعدام 1964، وتشفّع له عبدالسَّلام عارف (قتل 1966) وأُطلق سراحه، ثم أُعيد وحكم عليه بعقوبة الإعدام، ونفذ الحكم، السَّنة 1966.

فكّرنا بالسعي إلى السَّيد محسن الحكيم، كمرجع أعلى للشِّيعة، يتدخل لدى جمال عبدالنَّاصر لإلغاء حكم الإعدام. كنا نفكِّرُ في الأمر أنا والسَّيد محمد باقر الصَّدر والسَّيد مهدي الحكيم والسَّيد مرتضى العسكري، وصار الاتفاق أن طالب الرِّفاعي يذهب إلى السَّيد الحكيم ويحاول استحصال برقية إلى عبدالنَّاصر.

فلما قال لي مهدي الحكيم: أنت تذهب إلى السَّيد! قلت له: أنت ابن سيد محسن وأنا ابن سيد داود، فكيف تستعين بيَّ لانتزاع برقية من والدك بهذا الخصوص! أجابني: نعم. أنا لا أستطيعُ مواجهةَ والدي، ولا أظنُّه سيستجيب لي، لكنك تستطيع مواجهته وربَّما يسمعك. وأضاف: نحن درسنا الموضوع جيداً، وعارفين أبي وعارفين بك! توكّل واذهبْ إليه.

حينها شعرت بشيء آخر، وهو أن مهدي الحكيم كان يخشى من موقف السّيد محمد رضا الحكيم، وهو أخوه غير الشَّقيق، الأكبر سناً منه، وله نفوذ في مرجعية والده أكثر مِن مهدي، وله ميول قومية آنذاك، ويخشى أيضاً مِن قريبه ابن عمته محمد علي الحكيم، وله نفوذ أيضاً في المرجعية، وهو زوج ابنة المرجع ووالد المرجع الحالي السَّيد محمد سعيد الحكيم.

الحاصل هناك خلافات وحساسيات داخل بيت المرجعية نفسه لذا لا يريد مهدي الحكيم مفاتحة والده في شأن سيّد قُطب. هذا مجرد اجتهادٍ مني في تفسير تكليفي بمفاتحة السيد محسن الحكيم في هذه القضية.

كنت واثقاً مِن نجاحي في المهمة، لذا أخبرت مهدي الحكيم أن يذهبَ إلى السَّيد محمد تقي الحكيم كي يُجهّزَ نصَّ البرقية، فهو المنشِئ عادة لرسائل وبرقيات المرجع، فهو أستاذنا في هذا الشَّأن، بل أستاذ الجميع، فليس لدى الآخرين قدرته الإنشائية في الكتابة.

قلت له: اذهب إلى محمد تقي الحكيم، ولم أقل له إلى محمد باقر الصَّدر، لأن الأول أقدر على الإنشاء مِن الجميع. قلت لمهدي: أنا سأجلب البرقية مِن والدك إذن أخبر تقي الحكيم لتجهيز نصّها! فذهب مهدي وقال لتقي الحكيم: إن سيّد طالب ذاهبٌ إلى المرجع للحصول على برقية إلى عبدالنَّاصر في شأن سيّد قُطُب، فقال تقي: سأكتبها. فجاءني مهدي قائلاً: لم تبق لك حجة، فالسَّيد تقي الحكيم جاهزٌ لكتابة نص البرقية.

ويا سبحان الله، ما إن أَقنعت السَّيد محسن الحكيم في توسّطه عند جمال عبدالنَّاصر حتّى قال: أرسلوها إلى محمد تقي لكتابة نصّها. فكان الرأي متفقاً عليه. ذهبت إلى السَّيد محسن في داره بالكوفة، ووجدت عنده الشَّيخ محمد الرَّشتي، وهو مثلما سيأتي الحديث، رجل طيب السَّريرة، فقلت في نفسي: الحمد لله وجود الشَّيخ سيُعينني على انتزاع البرقية. لكن ما لم أطمئن له هو وجود شخص قد يعاكس ما أطلبه، وهو الشَّيخ محمد جمال الهاشمي، وهو لديه تعصّبٌ شيعي ضد أهل السُّنَّة بشكل عام.

قلتُ للسَّيد محسن: أنت أبُ هذه الأُمة الإسلامية، والأنظار تتوجه إليك الآن، وأن هذا الرَّجل، وهو سيّد قُطب، حَكمَه طاغوتُ مصر وفرعونها الآن بعقوبة الإعدام، لأنه مفكّرٌ إسلامي، وهو صاحب التَّفسير الكبير «في ظلال القُرآن»، وكتبه متداولة في الشَّأن الإسلامي، وأنت أبُ الأمة على الرُّغم مِن خلافاتها المذهبية، وأرى أن تُسجِّل موقفاً قياسياً لأبوتك على الأُمة. قال: كيف نتصرف؟ قُلت: لو تبعث برقيةً إلى جمال عبدالنَّاصر، فهو يحترمُك، تتشفّع بهذا الرَّجل برفع حُكم الإعدام عنه. فاقتنع السَّيد محسن، وقال: أَأَنت ترى هكذا! قُلت: نعم أنا أرى ذلك، بل إن الواقع يُحتِّمُ ذلك. فأمر أن يكتبها تقي الحكيم مثلما تقدم.

ركبتُ مع السَّيد محسن الحكيم في سيارته، وجلس السَّيد في المقعد الخلفي بيننا أنا والشَّيخ محمد جمال الهاشمي، وهو ما كنتُ أخشاه، وكنا ذاهبين إلى النَّجف حيث يُلقي درسه ويُصلي الجماعة ثم يعود إلى داره بالكوفة، وهذه هي رحلته اليومية تقريباً. عندما كنت أتحدث مع المرجع في المجلس كان الهاشمي لا يسمع ما يدور بيننا في أمر سيّد قُطُب، ولا الرَّشتي كان يسمع ما دار بيني وبين المرجع.

لكن لما تداولنا الموضوع، ونحن في السَّيارة، وإذا الهاشمي يُفجر قنبلةً بوجهي، ما كنْتُ حاسباً حسابها، عندما قال: سيّد طالب تريد شفاعةً مِن السَّيد محسن للذي يقول: إن علي بن أبي طالب كان يشربُ الخمر! بطبيعة الحال كان هذا موجوداً في كتاب

سيد قطب «في ظلال القرآن»! فبقيت للحظة حائراً ماذا أفعل، فكانت خشيتي أن السَّيد محسن سيتراجع عن قراره في التَّوسط، ويعزف عن إبراق البرقية إلى جمال عبدالنَّاصر، علاوة على ذلك سيسقط قدري، وتقلُّ منزلتي عند السَّيد محسن.

لكن جاءتني فكرةٌ وأجبته: شيخنا هل أنت متأكدٌ مِن ذلك! مع أني واثقٌ أن سيّد قُطب ذكرها، ويقصد قبل تحريمِ الخمر. قلت له: أنت متأكدٌ أن صاحبَ هذا الرأي سيّد قُطبَ أم أخوه محمد قطب! فأجابني: ها لا أدري. فقلت له: أنا أدري، إن هذا الرأي قاله محمد قُطب وليس سيد قُطب. فعندها رأيت الرَّاحة على محيا السَّيد محسن الحكيم، بعد أن سقطت حجة الشَّيخ الهاشمي في محاولة عرقلة كتابة برقية التشفّع بسيّد قُطب ومحاولة إنقاذه مِن الإعدام.

فما إن وصلنا النَّجف استقبل المرجع ولده مهدي الحكيم، فأمره بالذِّهاب إلى محمد تقي الحكيم لصياغة نصّ البرقية. أسرع مهدي وأتى بنصّ البرقية إلى والده لختمها، والختم عادةً محفوظٌ عنده لا يُسلّمه إلى كائن مَن كان، فأي نصّ خالٍ مِن الختم لا قيمة له. فأُبرقت البرقية إلى عبدالنَّاصر، لكنه لم يأخذ بها على ما يبدو، أو هناك مَن لم يُسلّمها له، مِن موظفي إدارته.

بعد أسبوعين أو أكثر على إرسال البرقية وصل إلى النَّجف وفدٌ مِن «الإخوان المسلمين»، عمائم وقضويات (نسبة إلى كشايد

القضاة)، وهي كشيدة أو طربوش وحولها لفة مِن قماش أبيض، دخلوا إلى الصَّحن العلوي، فقال حينها مَن قال: خيراً مِن الله ماذا يُريد أهل الأعظمية بوفدهم هذا. فذهبوا إلى دار السَّيد محسن الحكيم طالبين التَّشفع بسيّد قُطب مِن حكومة عبدالنَّاصر.

كان مِن عادة السَّيد محسن أن يحتفظَ بالأُصول مِن البرقيات أو الرَّسائل المهمة تحت فراشه الذي يجلس عليه؛ ولما بدأوا بالحديث تركهم حتى النهاية، وأفاضوا في مديح سيّد قُطب، فأدلوا بكلِّ ما عندهم. فالتفت إليهم قائلاً: أنا أبرقتُ برقيةً إلى عبدالنَّاصر منذ أُسبوعين، فأخرج لهم نصّها، ورأوا التَّاريخ المسجل عليها، وقتها أخذهم الذُّهول بأنهم قادمون لطلب برقية، أو موقفٍ بهذا الخصوص، وإذا هو صادر قبل أُسبوعين.

على ذِكر الرَّئيس عبدالسَّلام عارف، سمعنا أنه توسّط أيضاً في قضية سيّد قُطب الأولى في العام 1964، فحسب ما يُتناقل على الألسن أنه كان سُنيَّاً متديناً وأنه قوميٌّ، إلا أن هناك العديد مِن الشَّواهد تشير إلى أنه لم يكن وحدوياً عروبياً، ولم يكن ناصرياً مثلما يُشاع، بل كان يُنافق عبدالنَّاصر، وكانت روحه عِراقية أكثر، لم يكن مطلقاً مع الوحدة، إنما كان ذلك شعاراً رُفع ضد عبدالكريم قاسم.

بهذا الصَّدد نقل لي محمد مهدي الخالصي (الحفيد) وكانت علاقته مميّزة بعبدالسَّلام عارف، أن صديقاً له كان يسير

مع عبدالسَّلام في أحد شوارع القاهرة، بعد أن صار رئيساً، وكان في زيارة هناك، فقال لمن معه: يعجبك العِراق يصير هكذا بعد أن نسلّمه إلى عبدالنَّاصر؟! فما كان مِن شِعار الوحدة إلا ضد عبدالكريم وخطوة إلى الرَّئاسة، إنه بالإجمال كان نفاقاً سياسياً.

كان عبدالسَّلام يحبُّ المشي كثيراً، يمكن أن يمشي لساعات، فقد حدثني الوزير حسن الدُّجيلي، أنه كان معه ضمن وفدٍ مؤتمر القِمة بالمغرب، ومِن باب الفندق مسك عبدالسَّلام بيد الدُّجيلي وأخذا يسيران عبر حدائق الفندق وتعداها. قال: لما عدنا بعد ساعة أو ساعتين وجدنا الدُّنيا مقلوبة بالبحث عنا، ولسان حالهم يقول: رئيس العِراق ووزير عِراقي فقدا، ولو تأخرنا أكثر مِن ذلك لأُعلن الخبر عبر الإذاعة.

على العموم كان عبدالسَّلام يمارس سياسة طائفية، لكن أخاه عبدالرَّحمن عارف (ت 2007) لم يكن طائفياً، وهو شبيه بعبدالكريم قاسم في هذا المضمار. بل إن عبدالكريم كان يميل إلى الشِّيعة، وقد أخطأنا بحقّه، نحن قتلنا عبدالكريم قاسم، وليس البعثيين، بمعنى ألّبنا عليه وقُتل.

الفصل الخَامس

الاحتقان السِّياسي 14 تموز

قلت: ربَّما ما أمليته في حقبة ما قبل ثورة 14 تموز(يوليو) قد لا يسترعي الاهتمام مثل ما ستمليه فيها وما بعدها! قال: «أنا لا أُسميها ثورة، واختلفنا على التسمَّية، ولا الثورة الإيرانية ثورة إنها انقلابات، وأنت حرٌّ في مذهبك فيها، ولك ما تسميها، فهي أتت علينا بالويلات، والنِّظام الملكي كان سيعدِّل نفسه بنفسه لو أُعطيَت له الفرصة. مع أني أقول: خسرنا عبدالكريم قاسم بنزاهته ووطنيته»!

قلت: لا تراعي وجودي كوني تموزياً، أو وجدت نفسي هكذا، فاسترسل بالحوادث كما هي. فقال: «لو حسبت حسابك، أو حساب غيرك، في ما أقول ما نطقت بكلمة»! فراح يذكر مفاصل ما سيقول وكأنه يقدّم ملخصاً، ثم التفت نحوي يطمئن على فتح آلة التَّسجيل. مستهلاً بالبسملة والتعوذ، والقول: أنا عشت تموز بكلِّ تفاصيله بالنَّجف على وجه الخصوص.

قال: لقد انفجر الوضع في صبيحة يوم 14 تموز(يوليو) 1958، وانقلبت السِّياسة رأساً على عقب، وحلت الجمهورية محل الملكية، وجاء المدُّ الشِّيوعي قوياً كالسَّيل، وحتى هذه اللحظة ليس لدينا تنظيم، ولا شيء اسمه حزب الدَّعوة، لا الاسم ولا الكيان، ولا حتى فكرة تأسيسه على الإطلاق. كانت شعبية عبدالكريم قاسم طاغية، وقوة الحزب الشِّيوعي العِراقي مؤثّرة في المجتمع، فحينها طُرحت أمامنا مهام جديدة، أولها وأهمها كيف لنا مواجهة هذا التغيير، ومشاكسة هذا السَّيل العارم.

تأسيس جماعة العلماء

إثر ذلك اجتمع العلماء في دار السَّيد باقر الشَّخص، وهو مِن علماء الأحساء، إلا أنه كان مقيماً بالنَّجف، ويُعدُّ مِن المجتهدين وصاحب ديانة وخلق عاليين، ضمَّ أول اجتماع نحو عشرين مِن فضلاء النَّجف، أصحاب العَمائم، وكان الجميع تحت مظلة مرجعية السَّيد محسن الحكيم. لم يكن الاجتماع متعلقاً بتأسيس حزب إنما التفكير بكيفية مواجهة الهجمة والمستجدات مِن الأحداث، فانتخبوا عشرة منهم يمثلون ما أُطلق عليه اسم «جماعة العُلماء»، ورأس الجماعة صار الشَّيخ المجتهد مرتضى آل ياسين، وهو خال السَّيد محمد باقر الصَّدر.

مِن بين الجماعة كان الشَّيخ محمد رضا المظفر، والشَّيخ المجتهد حسين الهمداني، والشَّيخ محمد جواد الشَّيخ راضي، والشَّيخ المجتهد عباس الرُّميثي، والسَّيد محمد تقي بحر العلوم، والسَّيد إسماعيل الصَّدر، والشَّيخ محمد حسن الجواهري وآخرون. أُنتخب هؤلاء عشرة مِن الشَّباب كطبقة ثانية بعد طبقتهم الأُولى ويبقون تحت شُعاع العشرة الأُولى، ليكونوا مساعدين لهم، وكنت أحد هؤلاء الشَّباب مِن المعممين أيضاً. كان مِن العشرة الثَّانية: السَّيد محمد مهدي الحكيم، والسَّيد محمد سعيد الحكيم (المرجع الحالي بالنَّجف)، والشَّيخ عبدالحليم الزِّين، والشَّيخ عبدالهادي الفضلي، والسَّيد جعفر بحر العلوم، والشَّيخ محمد علي الزِّين، والشَّيخ محمد مهدي السِّماوي، ومَن فاتني ذكر اسمه، وأنا.

عند تأسيس جماعة العُلماء تقرَّرَ أن نتعلم، نحن الشَّباب، الخطابة والأداء في الكتابة، على طريقة جديدة تختلف عن الرَّوزخونية، وهي القراءة المنبرية المعروفة بعاشوراء، مِن بين المتدربين على الخطابة السَّيد محمد سعيد الحكيم أحد المراجع الأربعة الحاليين بالنَّجف، ومهدي الحكيم، وعبدالهادي الفضلي، ومهدي السِّماوي، وهادي القمي (إيراني)، وجعفر صادق، حتى أتذكر أن الأخير كان مِن خصوم السَّيد موسى الصَّدر.

كان أسلوب التَّدريب أن كلَّ شخص منا يكتب مقالة ويُلقيها أمام الآخرين، كي تتوفر فينا إمكانية المواجهة مع الجمهور، ومواجهة الظَّرف ثقافياً أيضاً، وأن نُرسَلَ في ما بعد إلى النَّواحي والقرى والمدن، وعلى الخصوص في شهر رمضان. علينا مشرف مِن جماعة العلماء، ما اصطلحت عليه بالخط الأول، ليراقب نشاطنا وأحوالنا، وهو الشَّيخ محمد جواد آل شيخ راضي. فالخطابة ليست سهلة، ولا هي مجرد حفظ معلومات، الأساس فيها كيف تواجه الجمهور، وتُطلق ما لديك مِن معلومات في تلك اللحظات الحرجة.

مما أتذكره مِن الإحراج في الخطابة، مرضتُ بالنَّجف، العام 1953، فنصحني الأطباء أن أذهب إلى مكان فيه رطوبة، فهواء النَّجف عادة يكون جافاً صحراوياً، فقصدت مدينة الكاظمية، فهي تقع على شاطئ دجلة مِن الجهة اليمنى، وأخذت غرفة في مدرسة أو كلية الجوادين، التي كان يشرف عليها الأستاذ في الرِّياضيات

والباحث الكاظمي أحمد أمين. في يوم الجمعة كانت هناك ندوة لشباب الخالصية، أي أتباع الشَّيخ محمد مهدي الخالصي، وصارت لي علاقة معهم، فطلبوا مني كتابة كلمة وأن ألقيها أمام جمهورهم، فقررت تقديمها ارتجالاً، لكني جعلت الكلمة في جيبي مخافة الفشل.

فلما وقفت أمام الجمهور وبسملتُ وحمدتُ وانتهى الكلام، فقد أُصبت بالخرس، فحينها أخرجت الكلمة، وهم لم يشعروا بفشلي، فقد مثّلتُ عليهم بأني أحجمت برهة للتفكير، وسحبتُ الورقة مِن جيبي وأخذت أقرأها عليهم، وكانت تلك المناسبة فاتحةً لخطاباتي المرتجلة في ما بعد. صارت بعدها لدي جرأة أدبية، فلما بعثني السَّيد محسن الحكيم إلى منطقة الدواية، التابعة لمحافظة النَّاصرية، تمرّنت أكثر على الخطابة، وشعرتُ حينها بغرور لما سمعتُ بعضهم يقول: إن السَّيد طالب أخطب مِن جمال عبدالنَّاصر، والأخير كان معروفاً ببراعة الخطاب المرتجل.

إذا سألت عن السَّيد حسين الحَمامي[1]، وكان مرجعاً في وقته، فإن موقفَه مضادٌّ لهذا النَّشاط أو الاتجاه بشكل عام لأن الشِّيوعيين قد أثروا أو استغلوا موقف أولاده، وهم السَّادة: عبدالكريم، ومحمد علي، ومحسن. وكانت الحال أنه أين يتجه السَّيد محسن الحكيم يتجه أولاد السَّيد الحَمامي اتجاهاً مضاداً

(1) أحد المراجع العرب الكبار بالنجف، وله موقف مخالف لموقف مرجعية الحكيم تجاه الحزب الشيوعي وعبدالكريم قاسم، توفى 1959.

له، وهذا الأمر كان معروفاً، وعايشته بنفسي، ومِن أسباب ذلك هو الصِّراع على المرجعية على ما أعتقد.

استغل العاملون في الحزب الشِّيوعي بالنَّجف ذلك الصِّراع، إلى درجة أن الطَّبيب السَّيد خليل جميل، المنتظم في الحزب الشِّيوعي، كان يقوم في خدمة السَّيد الحَمامي وطبابته، وكان طبيباً مشهوراً بالنَّجف، حتى إنه عندما مرض السَّيد الحَمامي أخذه السَّيد خليل بنفسه إلى بغداد، إلى جانب ذلك أن هناك موامنة (معممين) ضمن حاشية المرجع الحَمامي أثروا في مواقفه، مع أن السَّيد الحَمامي لم يبرق برقية تأييد بثورة 14 تموز مثلما أبرق الآخرون.

اختصر نشاط جماعة العُلماء على كتابة المناشير، وقد سمح لهم عبدالكريم قاسم بقراءتها عبر إذاعة بغداد، ومِن حينها قامت قيامة الشِّيوعيين ضد جماعة العُلماء، فقام عوامهم بالسَّب والشَّتم في شوارع النَّجف. أعطى العُلماء في أول منشور أصدروه زخماً مِن المديح لعبدالكريم، أتذكر عندما صدر المنشور الثَّاني وكان كله مديحاً أخذته وذهبت إلى الشَّيخ مرتضى آل ياسين، رئيس جماعة العُلماء، ودخلت عليه مباشرةً، وجلستُ بين يديه، وقلت: ما هذا ياشيخنا! أَعبدالكريم قاسم صار مرجعاً وزعيماً دينياً! ماذا تقولون للنَّاس، وقد صار أسطورةً؟

ومِن الأمثلة على غليان الشَّارع وزخم التأييد غير العقلاني أنه في مرة مِن المرات أن الدُّكتور عبدالرَّزاق محي الدِّين، وكان

اتجاهه قومياً ومتشدداً ضد الشِّيوعية، كان يُدرّس في كلية الفقه بالنَّجف، ومِن عادته أن يصطحبني معه، فدخلنا إلى السُّوق الكبيرة، فصاح صاحبنا الحاج جعفر الدُّجيلي على عبدالرَّزاق: دكتور تفضل. جلسنا أمام دكانه، فقص للدُّجيلي الآتي: يُقال: إن ببعقوبة دجاجةً باضت فظهر على قشرة بيضتها شِعار الجمهورية مرسوماً، وقد عُممت كُتب رسمية لتأكيد هذه القصة! حكى ذلك مِن باب السُّخرية.

كدتُ أُسحل بالحبال

لما صدر المنشور الأول لجماعة العُلماء صار الرَّأي أن يوزّع بالبصرة، فكان السُّؤال: مَن يحمله إلى هناك وفي ذلك الظرف العصيب؟! فقالوا: طالب الرِّفاعي! وليس بمقدوري الرَّفض، فعندما تأمر جماعة العُلماء فلا اعتراض على أمرها، فحمّلني الشَّيخ مرتضى آل ياسين شعاراً يقول: «الإسلام يستصرخكم يا علماء البصرة»! وقال لي: تذهب إلى سيد محمد القزويني وغيره، وقل لهم هذا الشِّعار.

أخذت المنشور وبالمصادفة كان أحد تلامذتي ينوي السَّفر، اسمه سيد كاظم، وكنت أدرّسه ألفية ابن مالك في مرحلة المقدمات، فجاء معي إلى مدرسة القوام، حيث سكني، وحمّلته نسخاً مِن المنشور، وأوصيته، ونحن في كراج النَّجف، حرصاً أن لا يقع بيد الشَّرطة أو الأمن: إذا سألك أحدٌ عنها فقل له ذاك

صاحبها! وأنا أبقى واقفاً، حتى إذا ما حدث شيءٌ ما أنزل مِن السَّيارة. فوافق وأعطيته النُّقود التي معي، وهي كلُّ ما أملك (خرجيتي) لمصاريف السَّفر، فعلى أساس ننطلق إلى الحلة، ومن هناك نأخذ القطار إلى البصرة.

كان أنصار الشِّيوعيين ومؤيديهم يفتشون الأمانات (الحافلات العامة) والقطارات، وكانوا بثياب مدنية، وهم يحملون حمامات السَّلام، فصعدوا إلى السيارة التي كنا نستقلها، ونحن ما زلنا بالنَّجف، وكان كاظم قد وضع المناشير مكشوفة أمامه، فلما سألوه عنها قال: إنها مناشير، فأخذوا نسخة ولما قرأوا ما فيها بدأوا يشتمون جماعة العُلماء، وصادروا النَّسخ التي عند سيد كاظم، لكن هناك نسخة احتفظت بها في جيبي. قال لهم كاظم: إنها ليست لي، وأشار نحوي قائلاً: لذاك السَّيد. فأنزلوني مِن السَّيارة، وأخذت أشتم وأسبُّ بهم، وكانوا قلة وأنا قوي الجسد فرحت أتدافع معهم.

في تلك اللحظة توقفت سيارة مِن نوع فولكسواكن، ونزل صاحبها، وقال للشَّباب الذين أمسكوا بيَّ: ما به؟ فقالوا له: هؤلاء الرَّجعية جماعة العلماء يوزعون مناشير. فقال لهم مفتعلاً الغضب مني: سلّموه لي وسأريه ما أريه. فظنوا أنه أحدُ المسؤولين، فتركوني ورميت ببدني في داخل سيارته وأدار المحرك وانطلق بسرعة. فقال لي: أين تريد النُّزول؟ قُلت: عند سراي الحكومة. أنزلني وذهب، بعد أن أنقذني منهم.

دخلت إلى مركز الشَّرطة بالنَّجف، وأخذت أُعاتب معاون (ضابط) الشِّرطة، على ما يحصل، قائلاً له: ما هو عملك إذا كان أولئك يسيطرون على الشَّوارع والمحطات! وطلبت منه التلفون كي أتصل بالشَّيخ جواد آل الشَّيخ راضي. اتصلت وقلت له: مناشير العُلماء أخذوها مني، وأراد الشِّيوعيون سحلي بالحِبال. فقال: أين أنت الآن؟ قلت: عند ضابط الشِّرطة. فقال: تعال تعال بسرعة.

ذهبت إلى بيت الشَّيح محمد طاهر آل شيخ راضي، وهو أحد جماعة العُلماء، ويعتبر وجهاً اجتماعياً كبيراً بين آل شيخ راضي. دخلتُ وحدثتُ الشَّيخ بما جرى لي في كراج النَّجف. بعد تركي السيارة قلت للسَّيد كاظم أن ينتظرني بالحلة، فقال: سأنتظرك في محطة القطار. وبعد أن تفرّق الشَّباب، مِن مؤيدي الشِّيوعيين، ركبت مرة ثانية منطلقاً إلى الحلة.

هناك لديَّ صديقان: حنتوش علوش، وهو صاحب محل لبيع الثَّلاجات، وآخر كان صاحب مطعم يبيع الباجة، فزرتهما، وذهبت إلى دكان الباجه جي وأخذني معه إلى داره، وتناولت العشاء عنده، وحتى السَّاعة العاشرة ليلاً انطلقت إلى محطة القطار، لكني لم أجد سيد كاظم، وأن مصاريف السَّفر كانت معه، فشعرت بمحنة بين ضرورة السَّفر وعدم وجود نقود لشراء تذكرة السَّفر.

ركبت القطار بلا تذكرة سفر، ولأني عالمُ دين وأعتمر العِمامة، يمرُّ المفتشون عليَّ بلا سؤال عن التذكرة، على اعتبار

أن مثلي لا يصعد القطار بلا تذكرة سَفر، حتى وصلت إلى محطة المعقل بالبصرة. فلما سُئِلت عن التذكرة أجبت بأني لم أقطع تذكرة! وأني ركبت مِن محطة الحلة. فطالبني بثمن التَّذكرة. فقلت: ليس عندي ثمنها. ابعث معي شرطياً إلى دار السَّيد الحكيم الصَّوافي ليجلب لك الثَّمن. وبالفعل بعث معي شرطياً، مع مضاعفة ثمن البطاقة، لتصبح 750 فلساً.

وصلت إلى ديوان السيد الحكيم فاستقبلني مَن كان فيه، وكنت أعرف أن كيسه كان مملوءاً على الدَّوام، فهو دائماً كان يعقد عقود زواج ويفك عقود بالطَّلاق، وبهذا يكون كيسه مملوءاً نقوداً. أخذ يسألني عن النَّجف وأجبته، لكن بين الحين والآخر أرمق الشَّرطي فأراه متوتراً منتظراً ثمن التذكرة. فقطعتُ حديث الحكيم وطلبتُ منه ديناراً، فقال لمحيبس، أمين صندوقه: أعطِ سيّد طالب ديناراً، ومن يديه إلى الشَّرطي.

وجدت بالبصرة صديقنا جابر العطا، يعمل طبيباً هناك، فزرته فرحب بيَّ، وأمسيت عنده تلك الليلة، والتقيت عنده بأحد الأطباء مِن أهل الرِّفاعي، إلا أنه كان شيوعياً، وتبسطتُ معه في الحديث. عندها مددت يدي إلى جيب جابر وأخذتُ منه عشرة دنانير، فلم يكن هناك تكليف بيننا، ونزلت في فندق، وأخذ الأصدقاء يزورونني ويسهرون معي، وأنا أبشّر بما حمّلني به رئيس جماعة العلماء الشَّيخ مرتضى آل ياسين، وهناك تأسس فرع جماعة العلماء بالبصرة.

عارف البصري

ظل عارف البصري يتصل بيَّ، وهو صاحب دكان يبيع فيه الموبليات (أثاث) ومسامير، فقلت له: هذا ليس مكانك، المفروض أن تأتي إلى النَّجف. فلما فُتحت كلية الفقه أبوابها بالنَّجف بعثت إليه أن يأتي ليسجل فيها، وبالفعل جاء ودرس على يدي في البداية، ودخل الكلية، وصار شيخاً في ما بعد، وانتدبه السَّيد محسن الحكيم إلى الكرادة الشَّرقية وكيلاً له هناك، وظل على هذا الحال حتى استُشهد العام 1974. أما السُّبيتي فأتى به برزان التِّكريتي مِن الأردن، وقُتل ودُفن في أبو غرَيب في الفترة نفسها.

أنتمى عارف البصري إلى «حزب الدَّعوة»، وهو بالنَّجف، ولا أجد في ما ذكره السَّيد مهدي الحكيم، في مذكراته مطابقاً للحقيقة، بأنه كتب رسالة إلى السَّيد محسن الحكيم يستفتيه في البقاء أو الخروج مِن «حزب التَّحرير». الصحيح أنا الذي أتيت به إلى السَّيد محسن، وقلتُ له: إنه شاب ذكي متديّن، ويحب الانخراط في سِلكنا، فباركَ له. فخرج الشَّيخ عارف مِن مجلس الحكيم، أما أنا فأشار لي السَّيد الحكيم أن أتأخر عنده.

سألني السَّيد محسن الحكيم: ماذا عند هذا الشَّاب (عارف البصري)؟! قلتُ: إنه أتى للدراسة بالنَّجف، والانخراط في التَّعليم الدِّيني بالحوزة. فقال: أليس أنت تعرف جماعتك من طلبة العِلم كلهم رقي مبسمر (غير ناضج) إشارة إلى الجهل، فلو تركته يعمل في دكانه ويأتي برزقه أفضل مِن مجيئه إلى هنا!

الماركسية تغزو النَّجف

كنت أنذاك وجابر العطا لا نفترق، وحينها فكّرنا بعمل إسلامي ما، وكان أخوه الحاج ثامر العطا ينصت إلى كلامنا، فأخذنا نتكلم في شخص عبدالكريم قاسم، أي طرحناه على طاولة التَّشريح، فقال ثامر: ألست أنا أخاك! فأنا أول مَن يُسلمك إلى السُّلطة، وأخبرُ عليك، أتتحدث عن عبدالكريم قاسم بهذه اللَّهجة؟!

كنت في يوم مِن الأيام خارجاً مِن السُّوق الكبيرة بالنَّجف، فصادفت اجتماعاً رهيباً مِن النَّاس، لهم ضجيج وضوضاء، وجمهور مِن الشِّيوعيين معهم، وكنت أعرف عدداً من شخصياتهم، فسألت عمَّا يجري! فقيل لي: إن أحدهم سب الزَّعيم ويريدون سحله، وهرب فدخل إلى دكان، وأنا أيضاً تعرّضت لمثل هذا الموقف وأرادوا سحلي، وتلك قصة طويلة.

أخذت الماركسية بالنَّجف، دار المرجعية الدِّينية، تسرّبت إلى المواكب الحسينية، عبر الرَّواديد (شُعراء ومنشدو المواكب)، وقصائد الشَّاعر الشَّعبي عبدالحسين أبو شبع[1]، وعلى لسان فاضل الرَّادود تملأ الفضاء، وتُطرب الجماهير، وأن مستهلات اللطميات كانت شيوعية واشتراكية، عمالية وفلاحية، وعلانية

(1) شاعر شعبي نجفي، كان يساري ومنتم إلى الحزب الشيوعي العراقي، وشعره ذائع على الألسن ولد 1912 وتوفى 1980 وقيل مات مسموماً.

اختُطف مِنا العزاء الحسيني، فكلُّ النَّشاط صار شيوعياً، أي يتحدث بلسان الحزب الشِّيوعي.

مثلاً أثارني عزاء، أو موكب مدينة الحي، الواقعة على نهر الغراف والتَّابعة إلى لواء الكوت (محافظة واسط)، في جنوب العِراق، عندما تحرك مِن مدينة كربلاء، في زيارة صفر أو الأربعين، إلى النَّجف، وكان مِن مستهلات لطمياتهم: «اتحاد فيدرالي صداقة سوفياتية مع الصِّين الشَّعبية. وأيزنهاور[1] ينهار يا حيدر يا كرار».

كان هناك بيت مهدوم، ولم يبق منه إلا الجدار قائماً، فأخذ الشِّيوعيون يستخدمونه كلوحة للصق صور رموزهم عليه، فترى صور لينين وستالين، ويقومون بحراستها خشيةً مِن تمزيقها مِن قِبل الآخرين، وكلما خرجت إلى الشَّارع يكون ذلك الجدار بوجهي، وكنت أحمل سلاحاً، عبارة عن آلة جارحة، مثل مفك أشده في حزامي، فعندما أخرج مِن البيت أشك في عودتي سالماً، وحتى دكاكين شارع الرَّسول ملئت واجهاتها بصور ماركس وأنجلز ولينين، فكادت شوارع النَّجف، وهي المدينة الدِّينية المقدسة، تكون شيوعية، أقولها الآن ليس بغضاً للشيوعيين أو مبالغة، فتلك أيام مضت ولم يبق شيءٌ مِن ذلك الشعور وتلك الحزازات المؤلمة، إنما هو واقع الحال الذي كنا نعيشه لحظة بلحظة.

(1) دوايت ديفيد أيزنهاور، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية للفترة 1953-1961، كان قائد حلف النيتو، توفى 1969.

كنت أسير أمام موكب الرِّفاعي بكربلاء، كونها مدينتي، أنا والشَّيخ محمد علي الخمايسي، المرجع الدِّيني هناك، فسمعت الرَّدات شيوعية أيضاً، أو تمجّد الأفكار والرؤى الشِّيوعية، فعندما يقولون: فيدرالية عربية صداقة سوفياتية! أخذت أرد عليهم وبصوت عالٍ: «وحدتنا ويَّ مصر تأييد إلنا ونصر.. يا حيدر يا كرار». ومعلوم أن الأخير هو الشِّعار الذي كان يرفعه القوميون والبعثيون، وأنا هتفت به لا حباً بالقوميين أو البعثيين إنما بغضاً للشيوعيين.

وإذا الرَّادود، بعد أن سمع هتافي، وأن الآخرين تابعوني به، جاء وبعصبية يقول: كيف غيرتم الرَّدة؟! وكان مِن أهل النَّجف، فأرجعها إلى ما هي عليه مِن جديد. فالروادِيد كلهم كانوا، أو أغلبهم، على هذا النَّهج، سيطر عليهم الحزب الشِّيوعي تماماً. وعدتُ وغيّرت الرَّدة مرة أخرى، إلا أن الرَّادود (المُنشد) أعادها، وبعدها قلت للشيخ الخمايسي: لا أستطيع الاستمرار في السير أمام الموكب، فكما ترى الرَّدات كلها شيوعية، وانسحبت مضطراً.

كان القوميون يرصدونني، فأصبحت لديهم شخصية معتبرة، فأوصلوا الخبر إلى أحمد الجزائري، وكان كبيراً لدى حزب الاستقلال القومي بالنَّجف، وهو نجل الشَّيخ عبدالكريم الجزائري، وأتذكر عندما ذهبت إلى مجلس الشَّيخ عبدالكريم، وكانت غرفة ولده أحمد تطل على الدِّيوان، ولما لمحني داخلاً قال، مِن دون أن يستأذن مِن أبيه: تفضل، وأخذني مِن يدي إلى غرفته الخاصة.

ولما جلستُ وتناولت العشاء معه قال لي: أنت تعرف قيمتك عندنا، أنت بطلٌ، أنت الجندي المجهول بالنَّجف! قالها نكاية بالشِّيوعيين بطبيعة الحال وتشجيعاً لي، لِما قُمت به مِن تحريف الردّات في المواكب لصالح القوميين، مع أني لا أقصد ذلك، إلا أن الخصم كان واحداً. أتذكر في تلك الجلسة جاء أحمد الحبوبي، الوزير في ما بعد، وهو قومي أيضاً، وجلس معنا، وقد ذكّرته في ذلك الموقف عندما كنا معاً بمصر.

عاشوراء يوم 14 تموز

بعد مرور عام على قيام انقلاب 14 تموز 1958 صادف يوم العاشر مِن عاشوراء يوم الاحتفال بـ14 تموز 1959، فسمع الشَّيخ عباس الرَّميثي، وأخذ يُحرك جماعة العُلماء كي يعترضوا على عبدالكريم قاسم، وأن يؤخّر الاحتفال بتموز عن أيام عاشوراء، أو يوم العاشر، فأوكل جماعة العلماء الأمر إلى الشَّيخ الرَّميثي لمتابعة ذلك. وكان الشَّيخ مرتضى آل ياسين هو رئيس جامعة العلماء، فكُتبت برقية يُطلب فيها تأجيل الاحتفال بالثَّورة، وسلّمني البرقية الشَّيخ عباس لأبعثها عبر دائرة البريد والبرق بالنَّجف إلى بغداد، وفي بداية الأمر امتنعت الدَّائرة من استلام البرقية، فبينتُ لهم: إنها مِن جماعة العُلماء أبرقوها أَنتم إلى بغداد، وهناك يتكفّلون بها، فوافقوا وأبرقوها.

لما عدتُ سألني الشَّيخ عباس عن البرقية فقلتُ: بعثتها! فقال: احتياطاً سأسافر إلى سوق الشِّيوخ، وإذا أصرّت الحكومة

على الاحتفال في هذه الأيام وأَهملت طلبنا سأُفجر ثورة ضدها مِن هناك، أحرك عليهم قبائل حچام! هكذا قال. وكان الشَّيخ ريسان، الذي ثارت قبيلته في منتصف الثَّلاثينيات ضد الحكومة موجوداً، بل كان يُقلّد الشَّيخ عباس الرُّمثي فقهياً. فقلت له: وأنا أذهب معك! وذهابي كان لغرض منعه مِن فعل ذلك، في وقت كانت الكثرة للشيوعيين والجماهير لا تتأخر مِن فعل أي شيء ضد الشَّيخ، وحقيقةً هو شيخي فخفت عليه، فذهبت معه إلى ناحية آل بدير بالنَّاصرية، وهناك أولاد عمي ومعارفي وللشيخ عباس منزلة بينهم.

خرجنا مِن النَّجف اليوم الثَّامن مِن عاشوراء، ويوم التاسع منه حضرت سيارة ونقلت الشَّيخ عباس مِن آل بدير إلى سوق الشِّيوخ، كي يكون في العاشر هناك، وهو يوم مقتل الإمام الحسين، ولم أُرافقه إلى هناك، قائلاً: أنا لا يفوتني أن أكون بكربلاء في اليوم العاشر، فلزيارة هذا اليوم كرامة، فأذن لي الشَّيخ بذلك.

في وقت الضحى خرجت مظاهرات بناحية آل بدير احتفالاً بالثورة، ذلك في اليوم التَّاسع مِن عاشوراء، تصاحبها الموسيقى والرَّقص، وأمامهم كان الشَّيخ صالح الأعمى، وهو القارئ في مجلس الحسين، أي الروزخون، يصفق أمامهم. فلما رأيته بعيني قلت: المفروض أن الشَّيخ صالح البديري يعترض على هذه المظاهر لا يُحمس الشَّباب للاحتفال بالثَّورة.

غادرت آل بدير إلى كربلاء مروراً بمنطقة ناحية عفك (عفچ)، ومثلما سبق أن ذكرتها بالمثل «قيم الركَاع مِن ديرة عفچ»

بحسب اللهجة الدَّارجة، ورأيت فيها ما رأيته بناحية آل بدير، احتفالات بالثَّورة، ولا أثر لعاشوراء، ونحن في اليوم التَّاسع منه، فحينها قُلت: إن الشَّيعة نسوا الإمام الحسين! ومِن عفچ انطلقت إلى كربلاء، مروراً بالدِّيوانية ولم أرَ سوى الرَّايات الحمر والاحتفال قائم على قدم وساق بالثَّورة، وكذلك الحال بالحلة، وربَّما أكثر فيها.

كنت خائفاً أن أشهد ذلك بكربلاء أيضاً، حيث ضريح الإمام ونحره على ترابها، لكن الحمد لله ما إن وصلنا إليها رأيناها على غير ذلك، فمظاهر عاشوراء بائنة، وهي السَّائدة، وليس هناك مِن أثرٍ للاحتفال بالذكرى الأولى للثورة، فالسَّواد كان يغطيها والمواكب الحسينية ومجالس العزاء عامرة.

أتذكّر في اليوم السَّابع مِن عاشوراء أن الشَّيخ محمد رضا المظفر سمع باقتران احتفالات ذكرى تموز بعاشوراء، العام 1959، وأن تلك الاحتفالات ستطغي على مراسم عاشوراء، فجمع مِن الشَّباب الشِّجعان بالنَّجف وأطرافها، نحو خمسين إلى ستين شاباً، كي يعرقل ما سيحصل في يوم عاشوراء أو يتصدى للاحتفالات، وكنت جالساً فجاء القاضي هادي العظيمي، وكان لا يسمع، لكنه أخذ خبر بمعارضة الشيخ المظفر بالاحتفال بتموز يوم عاشوراء، وكان هو منطلقاً مع أنصار السَّلام.

فتح العظيمي الحديث مع الشَّيخ المظفر قائلاً: لماذا تعترض على الاحتفال في يوم 14 تموز، فهي ثورة والحسين صاحب

ثورة أيضاً، فليس هناك تعارض. لحظتها استوعب الشَّيخ المظفر الأمر فقال له: يا هادي أنا في هذا الموضوع مستعدٌ لإخبارك عن موقفي فيه: إذا صار شيءٍ في العاشر مِن عاشوراء بالنَّجف مخالفاً سأخرج لابساً الكفن وأُقاتل، ومعي عدد مِن المؤمنين سنخرج ونُقاتل في هذا اليوم. ولتعلم أنت وليعلم أصحابك ذلك! على أي حال لم يحصل شيء مخالفٌ لا بالنَّجف ولا بكربلاء.

أنا وراء قضية الصُّوري

نحو العام 1960، أو بين 1959 و1960، جئت مِن الكوفة إلى النَّجف، وكنت عادةً أستريح عند ثامر العطا، وهو أخو الصَّديق جابر العطا، أو عند البزاز الحاج علي الدُّجيلي في السُّوق، والأخير، في ما بعد، صار صاحب مطبعة الأضواء بلبنان، فلمحت شخصاً لديه صُحف، ومِن بعيد لمحت عنواناً كبيراً «الحِمار الحكيم»، وظهر أنها صحيفة «الحضارة» وصاحبها محمد حسَن الصُّوري[1]، وكان يميل إلى اليسار، أو أنه في الحزب الشِّيوعي العِراقي، وكان معمماً سابقاً، وهو صاحب الكلمة التي استشهدتُ بها سلفاً عندما سئل عن عِمامته فقال: «منعت فُسقي ورزقي».

(1) أصله من لبنان، ودرس بالنجف واعتمر العِمامة، وكان قريباً من اليسار العراقي، وقيل كان منتظماً في الحزب، صاحب صحيفة الحضارة، صدرت في العهد الملكي، ثم اعاد إصدارها بعد ثورة 14 تموز، توفى السنة 1998 بألمانيا. أتيت على أخباره وأخبار هذه القضية بالذات بتفصيل في كتاب: مائة عام مِن الإسلام السياسي بالعراق، الجزء الأول.

فاشتريت منها نِسخاً عدة، وكنت أعتقد، أو هكذا أريد فهم الأمر، أنه يقصد المرجع السَّيد محسن الحَكيم، وكان الصِّراع معتملاً مع الشِّيوعيين في السَّاحة مثلما تقدم. فاتجهت إلى بناية كلية الفقه بالنَّجف، وكانت أيام امتحانات، فقلت لا بدَّ من أن يأتي مدرسون أو عاملون خلال هذه الأيام، كي أبدأ بنشر هذا الموضوع وتصعيده، لكني لم أجد أحداً منهم، ووجدت الشَّيخ نعمة السَّاعدي، وأعرفه كيف يسرع ببث الأخبار أكثر من وكالة رويتر! فقلتُ له: تعال وأنظر ما مكتوب في هذه الصَّحيفة، فهو يقصد السَّيد الحكيم. فاستشاط الشَّيخ نعمة غيضاً، وقال: سأفضحه. فشجعته قائلاً: اليوم يومك شيخ نِعمة! فأعطيته الصَّحيفة وسار بها إلى بيت آل شيخ راضي.

في اللَّيل قمتُ أدور على برانيات علماء الدِّين بالنَّجف، فوجدت الدُّنيا قائمة، وأن السَّيد محسن الحكيم بسبب ذلك اعتصم في داره بالكوفة، ولم يأت كعادته إلى النَّجف ليصلي هناك بالحضرة الحيدرية. وأخذ النَّجفيون يزورونه في داره تضامناً معه على ما ورد في تلك الصَّحيفة، وكان الشَّيخ راضي جالساً إلى جنبه يستقبل الزَّائرين، ولم يقف الموضوع عند هذا الحد، بل جاءت وفود العشائر مستنكرين حاملين السِّلاح، مع عرضات وهوسات، وجمعنا طلبة كلية الفقه وذهبنا إلى دار الحكيم للتَّضامن.

حينها ظلت الحكومة، بالنَّجف والكوفة، حائرة لا يعرف المسؤولون ماذا يفعلون، وكيف يتصرفون مع هذا الغضب؟!

وسمعت أن عبدالكريم قاسم طلب حضور صاحب الصحيفة الصُّوري، للخروج مِن هذا المأزق. أكثر من هذا اهتزت سوق الشَّورجة، وكان فعلها كفعل بازار إيران في الثَّورة ضد الشَّاه.

عيادة عبدالكريم للحكيم

بعد نشر فتاوى العلماء، وفي طليعتهم السَّيد الحكيم، لتأييد 14 تموز وزعيمها عبدالكريم قاسم، تمارض الحكيم وذهب إلى الاستجمام والرَّاحة ببغداد، وأُشيع أنه مريض، ولكن في الحقيقة كما ذكرت كان متمارضاً. وحين وصوله إلى بغداد زاره بعد يوم واحد العقيد الرُّكن عبدالسَّلام عارف، وكان المهرجان صاخباً، فقد هتف القوميون: «عاش زعيم العِراق عبدالسَّلام عارف».

بعد يوم أو يومين مِن زيارة عبدالسَّلام للحكيم تحفز الزَّعيم عبدالكريم قاسم للذهاب بنفسه لعيادة الحكيم، على ما أتذكر كان ذلك في آب (أغسطس) 1958، وقد أتاني السَّيد محمد باقر الصَّدر إلى الكوفة، وقال: اعتمر عِمامتك لنذهب إلى بغداد لعيادة السَّيد محسن. فذهبنا صباحاً إلى بغداد، حيث يقيم السَّيد محسن بالكرادة الشَّرقية، وكان في بيت أحد الأكراد الشِّعية الميسورين.

كانت ساحة المنزل حديقة واسعة مُلئت بالكراسي لاستقبال الوفود، فبعد أن أدّينا واجب الاحترام للسَّيد المرجع والسُّؤال عن صحته ذهبنا إلى مكان الاستقبال، ومكثنا ما يُقارب النِّصف ساعة، وجاءت وفود مِن الكاظمية، كان في مقدّمهم السَّيد إسماعيل

الصَّدر، وكيل الحكيم بالكاظمية، ومِن العادة في مثل هذه الأحوال أن يجلس الإنسان مقدار ما يكفي مِن الوقت لشرب الشَّاي، ويودع المكان لفسح المجال للآخرين.

لكن، ونحن كنا متحفزين للخروج جاء نجل المرجع السَّيد محمد رضا الحكيم، وقال: سادتي العلماء رجاءً تأخذون أماكنكم لمدة ربع ساعة لرغبة السَّيد في أن تكونوا موجودين، لأن جاء هاتف مِن وزارة الدِّفاع يقول: إن عبد الكريم قاسم متوجهٌ إلى زيارة السَّيد، فيُرجى البقاء وشكراً. فتمسمرنا[1] في أماكننا ثم دُعينا إلى صالون الدَّار، ونحن في لحظات الانتظار وإذا بعبد الكريم قاسم يدخل، مِن دون حماية، ولا موكب مرافقين وحاشية، ولا تفتيش.

دخل عبد الكريم قاسم، بنشاطه وحيوته المعهودة، إلى الصَّالة نفسها، فوجم العلماء الحاضرون مِن هذه المفاجأة للتَّرحيب به، ولم يقم أحد منهم، وقد سلم على الجميع، فما كان مني إلا أن تقدمت وصافحته وحييته باسم العلماء الحاضرين وباسم السَّيد الحكيم، وتكلمت معه بكلمات فيها ما يُشعره بالفرحة بالثَّورة، فكان يرد بنبرته المميزة والعالية والسَّريعة: هذا ببركاتكم أسيادنا العلماء، نحن نستمد منكم أنتم ملهمونا[2]! ثم خرج محمد رضا الحكيم ودعاه إلى غرفة السَّيد محسن الخاصة.

---

(1) تبدو كناية عن الإصرار على البقاء، أو البقاء جبراً، منحوتة من غرز المسامير في الأخشاب.

(2) كان السَّيد الرِّفاعي يُقلد صوته وهو يملي الكلمات.

حدثنا محمد رضا بعد خروج عبدالكريم من عيادة والده، بأن الزَّعيم عندما دخل الغرفة لم يجد كرسياً للجلوس عليه، فجلس عند رجلي السَّيد محسن على سريره، وقال له: سيدنا أنا بعثت العقيد عبدالسَّلام ليطمئن على صحتكم، لأنها موضع اهتمامي، فجاء وأخبرني بأنكم في صحة جيدة، لكنني أحببت الاطمئنان بنفسي عليكم، وما أكتفي بالسُّؤال عنكم بواسطة غيري.

بثت زيارة عبدالكريم مِن تلفزيون بغداد، في المساء، وظهرت متحدثاً معه، فبعد عودتي إلى النَّجف، وذهبت إلى السُّوق المسقفة (القيصرية)، واجهني الكثير مِن معارفي بالسُّؤال: سيد طالب ماذا كنت تقول للزَّعيم نراه كان مبتشراً معك.

العداء لعبدالكريم

لعلَّ سؤال يوجّه إليّ، وهو: إذا كان عبدالكريم قاسم ليس ضد التَّشيع ومظاهر وجوده في الشَّارع، فلماذا هذا العداء له مِن قِبل المرجعية الدينية حينها؟! وأقول: إن تحريض سوق أو بازار الشَّورجة، ونعني التُّجار الشِّيعة، ضده، هي التي قتلت عبدالكريم قاسم، فلماذا؟!

هناك قانون الأحوال الشَّخصية[1] كُتب في العهد الملكي، وفي تدخل في ما هو يُعتقد مِن اهتمام وعمل الفقهاء، أي القضايا

(1) قانون رقم 188 لعام 1959 وما تنظيم الأحوال الشَّخصية، من زواج وطلاق وغيرهما، عبر محاكم الدولة، ومساواة المرأة بالرجل في الإرث، ومنع تعدد الزوجات إلا بشروط وتحديد سن الزواج، أتيت على هذا القانون وكيفية صدوره وكتابته في العهد الملكي في كتاب «بعد إذن الفقيه».

الشَّرعية، ولم يصدره العهد الملكي خشية مِن علماء الدِّين، وتأثيرهم في الشَّارع وبازار الشّورجة، كان رجال العهد الملكي أذكياء، ولا أصفهم بالحكماء، فلو كانوا هكذا ما سقط ذلك العهد، لكني أقول كانوا أذكياء في قضية قانون الأحوال الشَّخصية لأنهم لم يجازفوا ويعلنوه، فاكتفوا بكتابته ثم تجميده.

لما جاء عبدالكريم قاسم إلى الحكم بعثه مِن جديد، وأضاف عليه بند المساواة في الإرث بين الرِّجال والنِّساء، وكان وراء صدوره هي وزيرة البلدايات في ذلك العهد نزيهة الدِّليمي (ت 2006)، والقاضي أحمد جمال الدِّين، وهو مِن قضاة بغداد الشِّيعة، وابن عم الفقيه والشَّاعر مصطفى جمال الدِّين (ت 1997).

على أية حال وقّع عبدالكريم هذا القانون وصدر رسمياً. وأحمد جمال الدِّين كان معمماً، وبعد ذلك أخذ شهادة مِن مكتب شُكر[1] الذي مرَّ بنا ذِكره، فدخل كلية الحقوق مع صالح جبر، رئيس الوزراء ووزير الداخلية في العهد الملكي، لكنه لم يرتق سياسياً، وظل قاضياً، وأنا التقيت به، وقد مال مع الموجة اليسارية.

صدر هذا القانون وصار نافذاً بعد توقيعه مِن قبل رئيس الوزراء عبدالكريم قاسم. هكذا سمعت وما كان يُشاعُ، والعهدة على السَّامع والشَّيَّاع أيضاً. فحينها قامت قيامة علماء الدِّين

---

(1) مرَّ ذكر كتاتيب الشيخ شُكر ببغداد، وكانت تعطي شهادة، ومن جملة الذين درسوا في كلية الحقوق وأصبحوا من الشخصيات البارزة كانوا قد تعلموا عند الشيخ شُكر.

الشِّيعة، وعلى وجه الخصوص السَّيد محسن الحكيم، فقد أخذ موقفاً تحدى فيه عبدالكريم قاسم.

كنت أتصور لو أن هناك حِكمة كان يمكن أن يقوم عبد الكريم بتجميد ذلك القانون، لكننا وقفنا، كرجال الدِّين، ضد عبد الكريم قاسم وقفة سوداء. فكان موقف المتنفذين مِن كبار التُّجار الشِّيعة في سوق الشَّورجة مع السَّيد محسن الحكيم، وفي ما بعد كان صدّام حسين يعرف قوة الشَّورجة لذا أول ما جاء وتسلّم الحكم كليةً في العام 1979 بدأ بتقليم أظافر هذه السُّوق بتهجير واعتقال التُّجار.

لم يكن عبدالكريم قاسم طائفياً إنما كان ميله إلى الشِّيعة، إلا إننا كرجال دين لم نعرف استثمار هذا الميل، وأنا كنت مِن أشد المحاربين لعبدالكريم قاسم، لكن الآن أشعر بخطأ توجّهي آنذاك. كان يمكن لهذا الرَّجل أن ينقل العِراق إلى عصر آخر. لقد ساقنا البعثيون والقوميون إلى معاداة عبدالكريم، ساقونا ببغض الشِّيوعيين، والقضايا الشَّخصية كانت داخلة بقوة في عواطفنا وتوجهاتنا.

بلَغني مِن أحد السَّادة بلبنان، وكان قاضياً مِن عائلة آل شرف الدِّين، وعلى صِلات مع عبدالكريم قاسم، أنه قال: «التقى بعبدالكريم وشكا له مِن موقف السَّيد محسن الحكيم ضده، قائلاً: لماذا يقف الحكيم مني هذا الموقف! فأنا ليس لي دخل بإصدار قانون الإرث إنما هو قانون كان موجوداً قَبلي، وليرسل الحكيم

مَن يرسل مِن طرفه وأنا على استعداد للتفاهم»! هذا ما نُقل عن السَّيد المذكور. كانت هناك قطيعة تامة ضد عبدالكريم مِن قِبل المرجعية بالنَّجف. تحدثت عن السَّبب الظَّاهر في عِداء المرجعية لعهد عبدالكريم، ولا أدري إذا ما كانت هناك أسباب غير مرئية.

عندما حدث انقلاب 8 شباط (فبراير) 1963، واستلم القوميون والبعثيون السُّلطة سررنا كثيراً في بداية الأمر، لأننا كنا مشحونين، بلا تعقل ضد عبدالكريم قاسم، حتى أتذكر أن الأخير لما جاء إلى النَّجف في زيارة أصدر السَّيد محسن الحكيم فتوى تقضي بتحريم استقباله، وما كنت أعلم بها، كان ذلك في العام 1962، وصادفت وفاة المرجع عبدالهادي الشِّيرازي حتى قالوا: إن عبدالكريم سيحضر مجلس الفاتحة. الله يرحم عبدالكريم لقد بالغنا في عدائه.

علمت بالفتوى عندما كنت أسير في شارع الرَّسول بالنَّجف، والتقيت بالسَّيد محمد بحر العلوم، فقال لي: هل بلغتك الفتوى؟ قلتُ: أي فتوى! قال فتوى السيد محسن! فغداً سيأتي عبدالكريم قاسم إلى النَّجف والسَّيد أفتى بتحريم استقباله. فقلتُ: يعني نُحجر في بيوتنا غداً! قال: نعم. لم أخرج مِن بيتي في ذلك اليوم، وكنت أنظر مِن الشُّباك بالكوفة، فرأيت النَّاس خرجوا بكثرة لاستقباله، ولم تؤثر الفتوى إلا بعدد مِن أصحاب العمائم والموالين جداً للسَّيد محسن الحكيم. أقول: كان يمكن استثمار تلك الزِّيارة أحسن استثمار، فوجهاء الكوفة استثمروها وجعل

لهم الكوفة وحدة إدارية على مستوى القضاء بعد أن كانت ناحية تابعة لقضاء النَّجف، بينما فك ارتباطها الإداري بالنَّجف وصارت ملحقة مباشرة بلواء كربلاء.

فالسَّيد الخلخالي، الذي سيأتي خبره في قضية موكب التَّطبير، وما استفتى به الشَّيخ محمد رضا آل ياسين، قدم طلباً إلى عبدالكريم، خلال تلك الزِّيارة، قائلاً: يا سيادة الزَّعيم ترضى عاصمة علي بن أبي طالب ناحية وأبو صخير (منطقة صغيرة) قضاء. فجعلها قضاء مِن تلك اللحظة، أخذ الطلب وشرح عليه ونفذ في تلك اللحظة.

نعم كنا فرحين بانقلاب 8 شباط 1963، أتذكّر أتى إلينا الدُّكتور عبدالرزّاق محي الدِّين مبشراً بالانقلاب، جاء إلى مسجد الكوفة، وفرحنا معاً، وأخذ يحدثنا كيف صار الانقلاب ونجح. وبالجملة كنا استقبلنا الانقلاب استقبالاً حسناً في الأيام الأُولى، وبعدما أرتُكب ما أرتُكب مِن مذابح أخذنا نتنكر له، ولكن ليس علانيةً.

كنت أنظر إلى الجُندي الذي مسك برأس عبدالكريم قاسم، بعد قتله، ويعدله بالحذاء مِن غير استنكار مني للأسف. لكن الآن أبكي مِن القلب ألماً مِن ذلك المشهد، وأقول: إن هذا الرَّجل، عبدالكريم قاسم، ما كان يستاهل ما صار به، على الرُّغم مِن أنني اعتبره فاتح الشرِّ الأول بانقلابه على العهد الملكي، فالعِراق لم

يكن بحاجة إلى انقلاب آنذاك، بل بحاجة إلى تعديل، ولو أُعطي ذلك العهد فرصة لعدّل نفسه بنفسه.

كان عبدالكريم قاسم شخصية نظيفة بلا شك، ورَجل صاحب نوايا وطنية مائة بالمائة، لكن في السِّياسة ليس عنده دهاء السِّياسيين لإدارة بلد مثل العِراق، ومع ذلك لو بقينا عليه كان أفضل كثيراً لنا، وحقيقة بدأ العِراق في عهده ينتعش اقتصادياً، والأمور أخذت تتّضح، غير أن البعثيين وعبدالنَّاصر بذلوا ما بذلوا للإطاحة به، وفي إيذاء العِراق في عهده، وبلا شك في أن المرجعية الدِّينية ساهمت بذلك، وأنا كنت أتحرك مع حركة المرجعية. أستطيع القول، ولم نكن على حق بما حصل: كانت فرحتنا بقتل عبدالكريم قاسم بمستوى فرحتنا، إلى حدٍ بعيد، بقتل صدّام حسين ومعمّر القذافي، إلى هذه الدَّرجة.

أكذوبة تكليف الحصونة

كنت مدعوّاً عند الضَّابط قائد الفرقة الأولى أيام عبدالكريم قاسم، السَّيد حميد الحصونة بالقاهرة، وكان بيته على ما أتذكر قريباً مِن بيت السَّيدة أم كلثوم، وهو يملكه، فالعقار بمصر في الستينيات كان رخيصاً، فسألته: أبا أياد هناك سؤال يدور في خلدي، ولم أحصل على جواب قاطع أو واضح له، وهو: ما هي قضية الكويت وتكليف الزَّعيم عبدالكريم قاسم لك ورفضك هذا التكليف أو الأمر بأن تذهب وتحتل الكويت؟! وهذا كما تعرف شائعاً

وأُريد الحقيقة منك! ويُقال إن السَّيد محسن الحكيم منعك، أو أنت استفتيت السَّيد، فأفتى لك بحرمة ذلك، وإلى آخره مِن الكلام؟! الذي قيل وكُتبه البعض على أنه حقيقة ثابتة.

فأخذ سيد حميد الحصونة يضحك ويضحك، قائلاً: سيدنا كيف تُصدق بهذه القصة! فقلت: إنها قصة مسموعة وشائعة، مثل زعامتك للحزب الفاطمي؟! فقال: وأنت صدقتها أيضاً؟! فقال بالحرف الواحد: ما يخصّ الحملة العسكرية لاحتلال الكويت 1961، كيف يرفض عسكري يوجّه إليه أمراً مِن قيادته العليا! ولو صدر مثل هذا الأمر ورفضت أنا تنفيذه لما جلست معك الآن، كان يُنفذ بيَّ حكم الإعدام، لأن القانون العسكري هو: نفذ ثم ناقش. قال: إطلاقاً لم يصدر أمر مِن عبدالكريم قاسم، ولا مِن غيره باحتلال الكويت، وأنا رفضت تنفيذه، ولم استفتِ السيد الحكيم ولا غيره على الإطلاق، إنها إشاعة في إشاعة!

فسألته حينها: لماذا لا تنشر ذلك وتُصحّح خطأً ما يُشاع ويذاع نهاراً جهاراً؟! فرد عليَّ قائلاً: دع الشَّائعة كما هي، إنها نافعة لي بالكويت مثلما نفعت بمصر. جرى ذلك في مجلسه الخاص في بيته في شارع الفداء بالقاهرة.

الفصل السَّادس

ولادة حزب الدَّعوة 1959

حضرت عنده الساعة الحادية عشر صباحاً، كالمعتاد، وتهيأ للإدلاء بشهادته على عصره وفي هذا اليوم سيكون الحديث عن حزب الدَّعوة وتفاصيل تأسيسه، ومقدمات ظهوره، وما إن مرت نصف ساعة أو أكثر وإذا بالتلفون يرن رنته الصَّاخبة وكأنها صوت بوق، نُظمت له بسبب ضعف سمعه، وقد نعي إليه صديقه جابر العطا في الخامس مِن تشرين الثَّاني (نوفمبر) 2011.

فقال: «ها هو أحد الشُّهود ترجل، فلنسرع في ما نريد إنجازه». وهي مذكراته التي اصطلحنا عليها بآماليه. أخذته نوبة من البكاء، وطالبه أولاد الفقيد بكلمة تأبين، فهو أكثر الأقربين مِن وَالدهم قرباً، فحاول تأجيل جلستنا، بسبب هذا الخبر، وكتب قصيدة، منها البيت الآتي:

أما الدُّعاة فحالهم يُرثى لها والقول فيهم والعِراق يطول

قال: منذ تأسيس حزب الدَّعوة ونشأته الأُولى تموز (يوليو) 1959 وإلى يوما هذا، مِن العام 2011، حصلت تغيرات كثيرة وأحداث لا حصر لها، وما يزال تاريخ نشأة الحزب موضعَ خلاف واضطراب وتخبط. لقد وجدت أموراً غير دقيقة في العديد مِن الكتابات، التي تضمنت الحديث عن الدَّعوة الإسلامية وتأسيسه، ومَن هم مؤسسوه! وبسبب ذلك وقع الخلاف وتقاطعت وجهات النَّظر.

إن الحقيقة المطلوب معرفتها ظلت خافية عن الكثيرين، وبلأخص الدُّعاة أنفسهم، الذين لم يتسن لهم معرفة الأُمور كما

هي. لأن المعلومات غير الدَّقيقة انتشرت وشاعت بين النَّاس. ولم أقرأ حتى الآن لأحد تصدى لإصلاح الأخطاء التي نُشرت وأعتبرت مِن الحقائق التَّاريخية، ونستطيع القول: إنها ليست كذلك. فسبق أَن قرأت ثلاثة كُتب: «سنوات الجمر»، و«تاريخ حزب الدَّعوة» للخرسان، وما كتبه السَّيد حسن شُبَّر، وهي ظلت المصادر الأساسية المعتمدة في الحديث عن «الدَّعوة» وتأسيسها ومؤسسوها إلى حد ما. ويُضاف إلى ذلك ما جاء في مذكرات السَّيد مهدي الحكيم، ومذكرات محمد صالح الأديب، وتُعتبر الأخيرة مصدراً للآراء المغلوطة في أمور كثيرة نستطيع إثباتها.

أقول: متى تتهيأ فرصة نصلح فيها ما تراكم مِن الأخطاء التَّاريخية عن تاريخ «حزب الدَّعوة»، التي قدمت أكثر مِن شخصية حكمت العِراق في ثلاث دورات حتى الآن، ولم يستطع واحد منهم أن يلتفت إلى الآراء المغلوطة في تاريخ حزبهم، وللأسف اعتمدوا رسمياً تلك الأخطاء في تاريخ الحزب. بل لا يمكن الاستغناء عن كتابة تاريخ الدَّعوة لأي مؤرخ أو باحث في هذا الحقل.

أما بالنسبة لي فلا يوجد عندي شك في ما ذكرت عن الأخطاء والآراء المغلوطة، ولا يوجد سواي على قيد الحياة مِن الأُخوة المؤسسين، باستثناء الأخ الدُّكتور جابر العطا، الذي توفى مؤخراً، بعد أن جعله المرض في وضع لا يلم في الكثير مِن الأحداث السَّابقة، فضلاً عن إعادة كتابة التَّاريخ بشكل صحيح لهذه الحركة.

ما خفي مِن التَّاريخ الصَّحيح شكل لي هدفاً دفعني إلى الكتابة، لأُعيد للدَّعوة ما نسي مِن تاريخها، أو ما أُهمل، كي يكون ما يُنشر مِن المصادر الصَّحيحة بين أيدي النَّاس، للإطلاع على ما فيه، وما هو غير معروف لديهم. وما سأقوله اعتبره قراءة جديدة عن تاريخ حزب الدَّعوة.

أبدأ بالقول: لقد جعلت تلك الحوادث، التي وردت في الفصل السَّابق، وغيرها محمد مهدي الحكيم يُعيد النَّظر مِن جديد، في ما كان يطرحه عليَّ العام 1955 مِن محاولة تأسيس عمل إسلامي سياسي، أي تتشكل حركة تنظيمية في إطار إسلامي واضح، فجاء لي قائلاً: ما العَمل؟ فقلت له: هل أنت جاد في ذلك، ألا يؤثر ذلك سلباً في مرجعية والدك؟ فقال: أنا جاد.

فقلت: إذا كنت جاداً فما تبحث عنه موجود. فقال: أتصلح أنت قائداً؟ فسألته: مِن خلال معرفتك بيَّ هل أصلح أنا لقيادة هذا العمل؟ قال: لا. فسألني: مَن تراه صالحاً؟ قلت: السَّيد محمد باقر الصَّدر جاهز[1]، فقط اذهب إليه واعرض عليه الفكرة، فأنا لا أتمكن مِن مفاتحته في الأمر فأنت ابن مرجع، ويمكن أن تؤثّر فيه أفضل مني، على الرَّغم مِن صداقتي معه. فقال: أتتصور أنه لا يطردني! فقلت: لماذا يطردك إنها مجرد فكرة اطرحها عليه، إذا

(1) قالها الرِّفاعي بلهجته: مطبوخ ومستوي. وبالعراقية تعني كناية عن الجاهزية أو الوصل إلى القناعة بشيء معين، وعادة تُقال للفاكهة النَّاضجة مستوية، أو للطَّعام.

وافق وافق، وإذا لم يوافق ينتهي الأمر! فتواعدنا، ثم عاد وقال: أنت متأكدٌ أنه سيوافق، فقلت: نعم وسترى ذلك.

أخذ بنصيحتي وتواجه لأول مع محمد باقر الصَّدر في داره، وكان ذلك بعد 14 تموز (يوليو) 1958، بل في منتصف تموز 1959. أقول: أين قولُ أولئك القائلين بأنهم اجتمعوا العام 1957 في بيت الحكيم بكربلاء، وفي يوم المولد النَّبوي وغير ذلك مِن الكلام، وأتوا باسمي ضمن الموجودين وأنا لم أكن موجوداً، وليست لدي فكرة على الإطلاق، هذا كله تلفيق في تلفيق، غير صحيح جملةً وتفصيلا، خذ مني الجوهر ومَن أرَّخَ خلاف ذلك فتلك مجرد قشور.

نواة تأسيس الحزب

كان أول لقاء بين مهدي الحكيم ومحمد باقر الصَّدر في تموز (يوليو) 1959 فكيف صار اللقاء في العام 1957 وتأسس حزب الدَّعوة! فإذا كان طالب الرِّفاعي، وأنا أتكلم عن نفسي، قد التقى بالصَّدر العام 1957 في ذلك الاجتماع وتأسس الحزب، واسمه «حزب الدَّعوة الإسلامية»، فما الدَّاعي في نصيحة مهدي الحكيم لمفاتحة الصَّدر بشأن عمل إسلامي ما بعد سنتين، أي العام 1959؟!

ذهب مهدي الحكيم إلى منزل محمد باقر الصَّدر، وفاتحه في موضوع تشكيل حزب إسلامي يكون هو على رأسه، مِن دون أن أكون موجوداً. وفي اليوم الثَّاني التقيت مهدي الحكيم، فبادرته

بالسؤال مِن دون مقدمات: ماذا؟! فقال: «أبشرك أن الصَّدر قد وافق». فقلت له: «وأنت إلى أين»؟ فقال: «أنا توقفت (ترددت)، لأني غير واثق مِن اجتهاد الصَّدر، وأنا أخبرته بأني لستُ واثقاً مِن اجتهادك، ولا أنخرط في عمل مثل هذا إلا تحت مظلة مجتهد، فهذا عمل إسلامي ليس سهلاً! فأرجو أن تعطيني كتابك في الفقه والأُصول كي أعرضه على السَّيد حسين الحلي، فإذا أقر باجتهادك سيكون ذلك صالحاً للعمل وتحت قيادتك، وإذا لم يقره فاعتبر لم يكن شيئاً».

سألت مهدي الحكيم: «ماذا بعد ذلك»؟ فقال: «غداً سأخذ الأوراق منه لأعرضها على الحلي». أما أنا فلم أعر أهمية لهذه المسألة، فالسيد محمد باقر الصَّدر عندي كان مجتهداً مطلقاً.

أخذ مهدي الحكيم الأوراق، من دون أن يضع عليها اسماً كي يكون التَّقييم عادلاً بلا تأثر باسم صاحب الأوراق، وسلمها للسَّيد حسين الحلي، وكان مِن المجتهدين وأهل العِلم، وتأخرت الأوراق عنده نحو أسبوعين، وأنا خلال هذه الأيام أذهب إلى باقر الصَّدر وأجلس معه في السِّرداب نأكل بطيخ ورقي وما تفارقنا إلا عند الخلود إلى النَّوم، ومع ذلك لم أُفاتحه بما جرى بيني وبين مهدي الحكيم، وكأني لا أعلم شيئاً.

أتذكر كنت سائراً ووصلت إلى دكان حسين العطار، وهو يقع في مفترق طرق (عقود)، ماراً بمنزل الشَّيخ الحلي، ومتوجهاً إلى

منزل باقر الصَّدر، وإذا بمهدي الحكيم يخرج مِن منزل الصَّدر، ولما لمحته تأخرت بالسير متعمداً عند منزل الحلي، وإذا به يقول لي والسرور يطفح على وجهه: سيّد طالب سيّد طالب! أبشرك سيّد حسين الحلي شهد باجتهاد السَّيد باقر الصَّدر، وستحصل البيعة له اللَّيلة إن شاء الله.

في تلك الليلة ذهب مهدي الحكيم وبايع الصَّدر كقائد مسيرة، وحينها لم يكن الأمر يوصف بولاية الفقيه، فهي لم تظهر آنذاك، أو لم يجرِ التَّداول فيها. كان ذلك في منتصف تموز 1959، وأؤكد أنه لما بشّرني مهدي الحكيم باجتهاد باقر الصَّدر كان يوم 14 أو 15 مِن الشَّهر في ذلك العام. بعدها دخلتُ على السيد باقر الصَّدر ولم أحدثه بالأمر. كان السَّيد محمد باقر الحكيم، شقيق مهدي الحكيم الأصغر تلميذاً لدى الصَّدر، وكان يميل معه أين ما مالَ، ويُطلع الصَّدر على كلِّ ما يسمع، وحين بايع مهدي الحكيم باقر الصَّدر كان باقر الحكيم موجوداً، فبايعه أيضاً، لوجوده هناك، فهما أول اثنين انتميا إلى «حزب الدَّعوة»، أي في مبايعة محمد باقر الصَّدر كقائد لهذا الحزب، الذي لم يُسمَّ بعد بحزب الدَّعوة.

أما أنا فلم أُبايع حتى هذه اللحظة، فالسَّيد محمد باقر الصَّدر نفسه لم يجرؤ ويطلب مني أن أبايعَه، لأنه كان يعرف أنني كنت وراء الأمر كلّه، وقدّمته لهذه المهمة. فنحن اثنان لم نبايع، لا أنا ولا الصَّدر نفسه، فهو كيف يبايع نفسه وكيف أنا أبايعه، وأنا الذي رشّحته ودفعت الأمر إليه. أنا أعتبر نفسي مِن المؤسسين،

دخلت الحزب بصفتي مؤسساً، لا أحد نسّبني إليه، ونحن الثَّلاثة طبخنا طبخة الحزب: طالب الرِّفاعي، ومحمد باقر الصَّدر، ومحمد مهدي الحكيم. بعد ذلك انضم محمد باقر الحكيم، على الرغم مِن صغر سنه، فصرنا أربعة.

هذا، وللتاريخ أقول: إن السَّيد محمد مهدي الحكيم هو الذي صدح بالدَّعوة بعد المبايعة، في 14 أو 15 تموز 1959 فأخذ يذهب إلى العُلماء ويحدّثهم ويحرّضهم، ويختار الطَّلبة المميزين، في الحوزة الدِّينية، ويأخذ منهم موافقات الانتماء إلى الحزب، وهو يتمُّ عادةً على شكل بيعة. وبعدها أخذ السِّيد محمد باقر الصَّدر يُلقي دروساً عليهم ولم أحضرها، كانت دروساً تثقيفية، وكانت تُنشر في جريدة «الدَّعوة»، ومِن هؤلاء كان الشَّيخ عبدالهادي الفضلي، ومحمد علي السُّماوي وآخرون.

خلال ذلك كانت جماعة العُلماء ما زالت قائمةً، ولم يكن هناك تعارض بين النَّشاط داخل الحزب والنَّشاط فيها، فكنا في «حزب الدَّعوة»، نعتبر جماعة العلماء مظلةً لنا، فأول المؤيدين لنا كان رئيسها الشَّيخ مرتضى آل ياسين، والآخر عضوها السَّيد إسماعيل الصَّدر، شقيق محمد باقر، وتدريجياً أخذ أمر الدَّعوة بالانتشار، ودفعنا الصَّدر إلى تدريس كتابه «فلسفتنا»، وكان يصنّفه على فصول، وكلما انتهى مِن فصل يقدمه محاضرة في جامع الهندي، ولتأليف هذا الكتاب قصة لا بدَّ مِن روايتها، مثلما حدثت.

بعد البيعة التي ذكرناها، وكان أول المبايعين محمد مهدي الحكيم وشقيقه محمد باقر الحكيم، بفترة قصيرة، خرج ولدا المرجع محسن الحكيم مِن الحزب، وكذلك خرج منه الصَّدر نفسه. فبحسب ما حدّثني الأخير أنه بنى فكرته في تأسيس الدَّولة الإسلامية، أو أيديولوجية تلك الدَّولة، على آية «الشُّورى»، ونصها: «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ» (الشُّورى: 38)، ثم حصل له تبدّل في هذا الموضوع، أي إن هذه الآية ليست حجة في إقامة الدَّولة.

قال لي: «ذهبت إلى سامراء لزيارة الإمامين[1]، فصار عندي شكٌ، أي اهتزّت فكرة مشروعية قيام دولة إسلامية في عصر الغيبة. ذهبتُ إلى سامراء ومكثتُ في حرم العسكريين أتوسّل الله أن يجعل لي سبيلاً في أن أبقى على رأس التَّنظيم، فلم يفتح الله عليَّ»! فأعلن عن رأيه وأرسل إلى مهدي الحكيم قائلاً: «لا تعتبروني أنا المسؤول عن التنظيم». ورجاه أن يدبروا حالهم في قيادة الحزب.

جاءني صباحاً السَّيد عبدالكريم القزويني، وكان السَّيد باقر الصَّدر عندما سافر إلى مدينة الكاظمية ببغداد قد سلمني داره بالنجف، وكنت أُقيم فيها طوال فترة غيابه، ولاحظت وجه القزويني متغيّراً، فقال لي: «ألم تدرِ! أن السَّيد طلع». ويقصد أنه ترك الحزب. فقلت له: وإذا طلع ماذا يصير في الدُّنيا! واستشهدت

(1) الإمام علي الهادي وولده الحسن العسكري.

حينها بمقولة أبي بكر الصِّديق[1]: «أَلا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّداً فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّه فَإِنَّ اللَّه حَيٌّ لا يَمُوتُ». وأضفت: إذا كنتم تعبدون باقر الصَّدر فللفكر ربٌّ لا يموت. يومها كان القزويني منتظماً في الحزب، وهو الآن يُقيم بمدينة قُم الإيرانية.

هذا جانب مِن ترك الصَّدر للحزب، وجانب آخر بتأثير المرجعية، فقد وصل خبر نشاطه السِّياسي إلى السَّيد محسن الحكيم عن طريق حسين الصَّافي، وكان محامياً وبعثياً بالنَّجف، في أوّل الأمر قصد أبا القاسم الخوئي، ولم يجد إذناً صاغية، فلما قال له: إن محمد باقر الصَّدر لديه حزب! أجابه الخوئي قائلاً: «أنت متأكد أن السَّيد باقر لديه حزب؟ فإذا كنتَ متأكداً فاعتبرني أنا واحد مِن حزب الصَّدر».

ثم قصد الصَّافي المرجع محسن الحكيم وأخبره بحزب الصَّدر، فنهره الحكيم قائلاً: «هل أنت غيورٌ على الإسلام أكثر مِن السَّيد محمد باقر الصَّدر يا حسين»؟ فخرج الصَّافي مِن مجلس الحكيم خائباً، فالأخير إذا غضب لا يتفاهم. لكنه عَلم أن هناك حزباً. فقال لولديه: «أنا لستُ ضد الإسلام الذي تدعون إليه، لكنكما باعتباركما ولدَي مرجع للأمة كلّها لا لحزب بعينه، وحزبيتكما تنعكس على مرجعيتي، لذا جمّدا نفسيكما، وقولا للسَّيد

(1) الخليفة الراشدي الأول (ت 13 هـ) قالها عندما توفى النبي للذين امتنعوا مِن التصديق بوفاته، أي هو مثل عيسى رفع ولم يمت، وقصة ذلك مشهورة في كتب التَّاريخ.

الصَّدر يجمد نفسه أيضاً». كان هذا يتردد داخل «حزب الدَّعوة»، وهو حدث بحدود العام 1960.

لما خرج الصَّدر مِن الحزب تولّينا نحن تدبير أمره، فكنت أنا وعبدالهادي الفضلي، وعميد كلية الفقه الدكتور عدنان البكاء، وكانت القيادة جماعيةً لا وجود للرأس. وتولّى السَّيد مرتضى العسكري ومحمد هادي السُّبيتي وصاحب الدّخَيل أمر الحزب ببغداد، وصالح الأديب بكربلاء، وكنا نمسك بمفاصل التَّنظيم في تلك المناطق. بقينا نعمل هكذا حتى العام 1961 أو 1962.

في هذا الوقت بعثني السَّيد محسن الحكيم إلى مدينة الكاظمية لإلقاء محاضرت إسلامية، وكان ذلك بتكتيك مِن قِبل الحزب، فالحكيم لم يتنكّر لوجود الحزب، بدليل أنه كان يعرف بانتمائي وانتماء مرتضى العسكري، إنما رفضه يتعلّق بأولاه فقط، وهما ظلا متعاطفين مع التنظيم لكن بلا مشاركة فعلية. كنا في الحزب واجهةً للمرجعية الحكيمية، وقد لمستُ التَّعاضد معنا في العديد مِن القضايا. ذهبت إلى الكاظمية، ويغلب على ظني أن محمد هادي السُّبيتي وصاحب الدَّخَيَّل هما اللذان أتيا بيَّ إلى الكاظمية عن جهة ما لها تأثير في المرجعية.

نزلتُ الكاظمية في بيت تابع لجماعة الشَّباب المسلم، وهم جماعة عزِّ الدِّين الجزائري، وهوَ لما لمحني جنّ جنونه، لأنه لم يعلم أنني منتظماً في «حزب الدَّعوة»، وكان يُقيم بالنَّجف،

وانتقل إلى الكاظمية. لم أكن مرتاحاً مِن وجوده هناك، وشعرت أنه وجماعته كانوا متضايقين مني، فطلبوا مني الحديث عن موضوعات أخرى لا صلة لها بالعمل الإسلامي، مثل: عذاب القبر وقضايا روزخزنية ملائية. فقلت لهم: هذا ليس مِن شأني، فهناك متحدثون غيري في هذا المجال، فأحمد أمين يتحدث عن الأخلاق، والسَّيد حسين اليعقوبي في الوعظ، وأنا في الفكر الإسلامي. كان ذلك في حُسينية الأفغاني.

بعدها انتقلت إلى بيت صاحب الدَّخَيّل، وهناك قمنا نعقد المجلس، وكان محمد هادي السُّبيتي يحضره يومياً. لكني شعرت هناك ببعض الأنانيات، فعلى الرَّغم مِن أن السُّبيتي كان أخاً وصديقاً، وأنا كنت مبعوثاً مِن المرجعية إلى هذه المهمة، فهو لم يقصد زيارتي والتَّرحيب بيَّ، وربما هو لم يقصد في ذلك مقصداً آخر، لكنني تحسست مِن تصرفه هذا، وفهمتها على أنها أنانيّة وتكبر مِن عنده.

قلت للدَّخَيّل: إن ابن السُّبيتي يستنكف ولم يأت لزيارتي! سأذهب إلى النَّجف وسيرى ابن السُّبيتي ماذا سأفعل، أين أنتم المفاريع[1]! تأخذون مواقف منا نحن المعممين، لماذا؟ أليس نحن من أوصلكم إلى هذه الدَّرجات، تصعدون على أكتافنا ثم ترمون بنا؟! قلتها بلهجة تهديد ووعيد، فكنت آنذاك شاباً لا أقبل

(1) إشارة إلى غير المعممين مِن حاسري الرؤوس، أو الأفندية بحسب التعبير العراقي.

الأعذار، ولا أفكر في التَّسامح، بل أتسرّع في توجيه العتب واللوم مباشرة. كانت اللغةُ آنذاك خاليةً مِن التَّعقّل والتَّفاهم.

قصة كتاب فلسفتنا

مررت على الدُّكان الصَّغير، الذي صار مكتبةً لبيع كراريس وكتب الحزب الشِّيوعي العِراقي، ويقع في السُّوق الكبيرة وسط النَّجف، مع أن الإيجار في تلك السُّوق كان باهظاً. نظرت في المعروضات وإذ تقع عيني على كراس صغير تحت عنوان «المادية الدِّيالكتيكية» لستالين، ترجمه الشِّيوعي السُّوري خالد بكداش، وأخذت أتصفّحه. قرأت فيه: إن النَّظرية الدِّيالكتيكية تقول: إن المادة أسبق مِن الوعي. وحينها فهمتها، بلا تفكيرٍ أو انتظار شرح، بأنها مقولة إلحادية، وربما غيري يفهمها بمعنىً آخر، لكني فهمتها، في ذلك الموقف على أنها إلحادٌ. كان أخذ أحد الفلاسفة الإغريق مثالاً. اشتريت الكراس، وكان سعره درهماً واحداً.

كان الشِّيوعيون يرصدونني، والقوميون كذلك، وسمعت صاحب المكتبة الصغيرة، يقول للبائع، الذي يعمل عنده، بعد أن أخذت الكراس: إذا طلب هذا السَّيد كتباً أُخر أعطهِ بلا مقابل، وليأخذ ما يُريد، حتى لو حمل الدُّكان كلَّه. فكان الصِّراع قائماً بين الشِّيوعيين والقوميين على كسب النَّاس، وأنا منهم، وخصوصاً أنا معممٌ وسيّد، ففي كسبي أو تحييدي فائدة لكلِّ طرفٍ يكسبني إلى جانبه. فقد فهمت أن صاحب المكتبة، وهو شيوعي بطبيعة الحال،

أرادني أن أطّلع على الكتب الماركسية، فلعلي أتأثر بها، أو على الأقل أكون محايداً.

أخذت الكتاب، ودخلت به إلى ضريح الإمام علي بن أبي طالب، ووجدت المواكب هناك ذات سمَّة شيوعية أيضاً، مِن ناحية التَّنظيم والشِّعارات، فقلت في نفسي: لقد وصلت الشِّعارات إلى علي بن أبي طالب! فما العمل؟ ولم يكن أمامي إلا الذهاب إلى منزل السَّيد محمد باقر الصَّدر، وما زال الكراس بيدي. كان ذلك عند الغروب، فطرقت الباب، ففتحته شقيقة السَّيدة الشَّهيدة العلوية آمنة، المعروفة ببنت الهدى.

فقالت لي: السَّيد موجود داخل السِّرداب، فنزلتُ إليه، وكنتُ غاضباً يخرج مِن عيني الشَّرر، ولم ألق التَّحية عليه، فسألني ما بك؟ فكان جوابي أن قذفت الكراس بوجهه، وقلت: الدُّنيا مقلوبة، والماركسية دخلت في كلّ زاوية مِن زوايا النَّجف وأنت جالسٌ هنا لا تعلم، ولا تنوي عمل شيء ما. قلت: تفضل إقرأ، فالشِّعارات، في المواكب والأضرحة، كلُّها تأييد لما جاء في هذا الكراس، بل دخلت الشِّعارات إلى جدك أمير المؤمنين.

أخذ يتصفّح ويقرأ في الكراس، ثم التفت لي قائلاً: ماذا عليَّ عمله؟ قلت: ردّ عليه، وليس هناك مَن يردّ سواك على هذا الفكر. فقال: ليست لديَّ مصادر! فقلت: سأملأ لك هذا السِّرداب بالمصادر الشِّيوعية. فاستجاب وقال: ابدأ وإن شاء الله سأبدأ أنا بالردَّ.

ذهبتُ إلى المكتبة، التي اشتريت منها كراس الدِّيالكتيكية، واستفدت مِن تجاوب صاحب المكتبة معي، فقمت أحمل درزناً درزناً[1]، مِن كتبهم، وأضعها أمام باقر الصَّدر، الذي يدخل في عمله يدخل، والذي لا يدخل أُرجعه إلى المكتبة، وهكذا آتي بالجديد وأُرجع القديم، حتى وفّرتُ له المصادر مِن تلك المكتبة، ومِن مكتبتي الشَّخصية، ومِن مكتبات أُخر ما اشتريه مِن جيبي الخاص. مِن الكتب التي أتذكر أني زوّدته بها: كتاب «رأس المال» لكارل ماركس، وكتاب «أنتي دوهرنك»، وكتب أُخر (ما أدري شيسمونه)، وكلها كانت باللغة العربية.

هكذا بدأ يكتب كتاب «فلسفتنا»، واستغرق التأليف بيده نحو التسعة شهور، لأنه كان يكتب فقط في أثناء الإجازات، ويومي الخميس والجمعة مِن كلِّ أسبوع. كان هو يكتب وأنا والسَّيد محمد باقر الحكيم نقوم بالتبييض، وللحقيقة أن السَّيد الحكيم تحمّل الجهد الأكبر في تبييض الكتاب، لهذا كتب في مقدمة طبعة الكتاب الأُولى عبارة: إلى عضدنا المفدّى، ويقصد محمد باقر الحكيم.

كان الكتاب قد انتشر وهو لا يزال مخطوطة، قبل إرسالها إلى الطِّباعة، وكنت قد عَرّفت محمد هادي السُّبيتي وجابر العطا بأمر الكتاب قبل صدوره. وأخبر السُّبيتي، مِن جانبه، الصَّحافي قاسم حمودي، صاحب جريدة «الحرية»، وكانت صحيفة قومية، بأن هناك فكراً جديداً ضد الشِّيوعية.

---

(1) يتألف الدَّرزن مِن اثني عشر كتاباً، والكلمة تُقال عادة للمبالغة.

فقال له: أين هذا الفكر؟ فقال له: أنا آتي به إليك. وبالفعل كان السُّبيتي يأتي إلينا ويستنسخ مقالات مِن كتاب فلسفتنا، ويسلمها إلى جريدة «الحرية»، فأخذت تنشرها تباعاً، ويُكتب عليها محمد باقر الصَّدر. وكان تاريخ ذلك العام 1959 – 1960. وهكذا انتشر اسم السَّيد محمد باقر الصَّدر بين الشَّباب المتديّن. واللافت للنَّظر أن الحكومة في زمن عبد الكريم قاسم لم تُعارض نشر تلك المقالات في الصَّحافة، بل على العكس كان لها هوىً في ذلك.

اشتهر اسم محمد باقر الصَّدر عن طريق نشر المقالات، وبعد ذلك نزل الكتاب إلى السُّوق مطبوعاً، بعد مرور العام أو العشرة شهور، وباسمه وبعنوان «فلسفتنا»، ثم تبعه، تحت مظلة السيد محسن الحكيم، صدور مجلة «أضواء»، وفي البداية طلبوا أن يكون الامتياز باسمي، لكن برزت إشكالات بيني وبين السَّيد محمد باقر الحكيم، فرفضت ذلك التَّكليف، وكنت قد اصطدمت به في بيت السَّيد باقر الصّدر، فصار الامتياز باسم الشَّيخ باقر القرشي، وأنا كنت أحد أعضاء هيأة التَّحرير، ومعي الشَّيخ عبدالهادي الفضلي، وجماعة آخرون مِن «حزب الدَّعوة».

بعد أن ألّف السَّيد محمد باقر الصَّدر كتاب «فلسفتنا» أصبحت لديه فكرة، إنه بعد الفلسفة يأتي «اقتصادنا» و«مجتمعنا» والأخير لم يؤلّفه الصَّدر، فقد أُعدم، لكنه كان فكرة أو مشروعاً. ألقى الصَّدر فصول كتاب «فلسفتنا»، قبل صدوره، في الجامع

الهندي، لكن طلبة الحوزة الدِّينية والحاضرين أخذوا بالانفضاض، بعد أن كانت قاعة المسجد مملوءة بالمعممين، وكنتُ أحد الحضور في أول الأمر، فعاد إلى الدار وأوقف تلك المحاضرات.

لم تحصل مشاكسات مع الشِّيوعيين بسبب كتاب «فلسفتنا»، فالشِّيوعيون ليسوا مثل البعثيين، كانت لديهم معايير أخلاقية في خلافاتهم مع الآخرين لم يتجاوزوها، وربما اكتفوا بالسبّ والشَّتم، ولا يتطور الخلاف عندهم إلى ما قام به البعثيون مِن اعتداء وقسوة. فللأمانة أذكر إحدى شخصيات الحزب الشِّيوعي القيادية بالنَّجف، بل القيادي في لجنتهم المركزية، وهو النَّجفي حسن عوينة (قُتل 1963). لقد تأسفت كثيراً لقتله، وذلك للاشتراك الإنساني بين وبينه، مع أني مختلفٌ كلَّ الاختلاف الفكري معه، ولتقديري له لما سمعتُ أن لديه أخاً أقمت صداقة معه.

وقلت له: حدّثني عن أخيك حسن. فمن جملة ما حدّثني به أنه قال: سيدنا كان أخي حسن إذا سمع بجماعة مِن الفوضويين المحسوبين على الحزب الشيوعي لهم مؤاخذة على جماعة آخرين كبعثيين أو غيرهم مِن خصومهم، فحسن كان يخرج إلى العمل، ويتقصّد أن يسايرهم في الطَّريق حماية لهم من الغوغاء المهيمنة على الشَّارع، في أوائل تموز 1958، أي أيام الثَّورة، حماية لهم مِن الإيذاء، فإذا رأوا حسن عوينة يسير معهم فلا أحد يقترب منهم أو يسمعهم أي كلام.

أول انشقاقات الدَّعوة

عُدت مِن الكاظمية إلى النَّجف، وأنا أحمل في خاطري ما حصل هناك مع عبدالهادي السُّبيتي، وما حسبته مِن موقف ضد أصحاب العمائم في داخل التَّنظيم، وكان الشَّيخ عبدالهادي الفضلي يحمل مثل تلك الأفكار، في التَّمييز بين أهل العمائم وحاسري الرؤوس (الأفندية) داخل التنظيم. قال لي الفضلي: «ألا رأيت ماذا فعل الأفندية بنا؟».

فقلت له: صحيح ما تقول ولا بدَّ من أن نفعل شيئاً! فقال: «أنا بخدمتك أبو آمنة»! فصارحته: يجب أن نأخذ زمام القيادة في الحزب، أي كمعممين! فقال: «أنا تابع لك، لكن أنا وأنت لا نتمكن مِن فعل شيء. فما رأيك بعدنان البكّاء»! وكان حينها مِن المعممين. فقلت: إن البكّاء يأتي في الدَّرجة الرَّابعة، وأنا في الدرجة الأولى، وأنت في الثَّانية، في داخل التَّنظيم. أليس هذا يعتبر طفرة في تسلسل الدَّرجات الحزبية؟ فقال: أرى أن يكون معنا السَّيد عدنان البكّاء. وكان كذلك.

بدأنا نحن الثلاثة، فالبكّاء معه جماعة مِن أهل النَّاصرية وسوق الشّيوخ والحلة، وكان مع عبدالهادي الفضلي جماعة مِن البصرة. وبذلك قمنا بشق «حزب الدَّعوة»، وكان أول انشقاق يتعرض له الحزب. كنا بحاجة إلى رونيو لطباعة المنشورات وتوزيعها، كي يطّلع عليها طلبة الجامعة، وصار احتكاك مع منظمات الحزب، في

مناطق عديدة، حتى صارت تنظيمات الدَّعوة بالبصرة والنَّاصرية والحلة والدِّيوانية والنَّجف كلّها معنا، ونحن أصبحنا نمثل حزب الدَّعوة لا غيرنا. كان ذلك في العام 1961-1962.

كان عارف البصري في كلّية الفقه بالنَّجف، وهو مِن الجماعة الأُخرى، ولم تعد البصرة معه، لكن لديه جماعة هناك، فأتوا يدرسون بالنَّجف، وأخذوا يتظاهرون بأنهم معنا، لكن في الحقيقة كانوا عيوناً لفرع حزب الدَّعوة ببغداد علينا، وكانت بغداد بيد السُّبيتي وجماعته ومِن بينهم عارف البصري. بدأ جماعتنا يصلون بغداد، مع أن التنظيم هناك كان تحت سيطرة الأفندية، ثم تبعنا عددٌ مِن أصحاب العمائم، وظل الحال هكذا خلافاً ونزاعاً مدة سنتين أو ثلاث.

زرت السَّيد محمد باقر الصَّدر، بعد مرور فترة مِن الزَّمن على الانشقاق، ووجدت عنده السَّيد مرتضى العسكري، وكان قد أتى لغرض ردم انشقاق الحزب، وقد تحدّث معه الصَّدر، وقال له الأخير: إن السَّيد طالب يمكن أن يسمع كلامي! وكنت بالصُّدفة قد زرت السَّيد الصَّدر، وجلستُ ورحب بيَ العسكري أيما ترحيب، على الرغم مِن خلافنا، فهو صار مِن جماعة وأنا مِن جماعة أُخرى في «حزب الدَّعوة»، وفتح السَّيد الصَّدر الحديث. قال ووجه الكلام لي: «إن الانشقاق ليس مِن مصلحتكم ولا مصلحة الحزب ولا الإسلام»!

كنت كثيراً ما أتجاوز أو أتجاسر على السَّيد الصَّدر، بحكم الصَّداقة المديدة بيننا. لا أخفي أني كنت متسرعاً، فقلتُ بالحرف الواحد للصَّدر بحدة: «الآن فكرت بالإسلام، وتقول هذا ليس بمصلحة الإسلام أو يُضعف الإسلام، هل كان في فمك عظم، لماذا لم تتحدّث مِن قَبل عن ضعف الإسلام، وكنت معك صباح مساء، فما الذي منعك مِن الحديث معي في هذا الشأن؟

فقال الصَّدر: «الآن أتى السَّيد أبونوري (مرتضى العسكري)، ولا بدَّ مِن حلٍ، و«المزق القماش هو يخيطه»، وكان يقصدني، لأنني قمت بالانشقاق. لحظتها التفتُ إلى مرتضى العسكري وقلت له: قم معي يا أبا نوري! فقام الرَّجل واعتمر عِمامته، وخرجنا معاً إلى دار عبدالهادي الفضلي، وكانت قريبة مِن دار الصَّدر، فالمسافة بينهما خطوات.

طرقتُ باب الدَّار فخرج الفضلي وأدخلنا، وباشرنا بما كنا قادمين مِن أجله. قلت: يا أبا عِصام إن القضية قد طالت (انشقاق الحزب)، نحن وجماعة ببغداد أخوة، كون الخلاف كان مع فرع التَّنظيم هناك. فقال: وماذا تريد عمله؟ قلتُ تعود المياه إلى مجاريها، ونحن بموقفنا أعطينا الأفندية درساً، فأخذوا الدَّرس وهم خاضعون الآن، وجاءوا وهذه العِمامة (وأشرتُ إلى العسكري) ممثلةً عنهم. فقال الفضلي: لترجع المياه ولا أختلف معك.

فالتفت إلى مرتضى العسكري وقلت له: قم بنا فهل تريد غير ذلك؟ فقمنا وذهبنا إلى دار محمد باقر الصَّدر. ولما وصلنا انبرى

العسكري قائلاً: كنا غلطانين بحق السَّيد طالب. فما كنا نعرف أنه يمتلك كلَّ هذه القدرات! فقال الصَّدر وهو مبتسمٌ: سيّد طالب أُسطورة. وبالفعل انتهى الانشقاق، وجاء صاحب دِخَيِّل وتم تصفية الخلاف، وعاد كلُّ شيء كما كان في الحزب بعد التحامه، وكان الانشقاق قد استمر سنة أو سنتين. سألني السَّيد حسن شُبَّر: سيدنا أريد معلومات للكتابة عن تاريخ الحزب، وقد وصلتُ إلى الانشقاق، وليس لديَّ مصادر. فقلت: لم يُرد بالانشقاق وجه الله، أي لم يكن بريئاً، وبيّنت له جملة ما حدث، وعبّرت عنها بالنَّزعة الإنسانية.

عندما جاء البعثيون إلى السُّلطة، في انقلاب 8 شباط 1963 لم يتأثر تنظيمنا بشيء، وحينها سافر مرتضى العسكري إلى تأدية فريضة الحج، فطلب مني السَّيد الحكيم أن أنوب عن العسكري في حُسينية المباركة بالكرادة الشَّرقية ببغداد، وكنت أتكلم في خطبي إسلاميات وانتقادات للبعثيين، ولم يتحرّش بي أحد منهم، وهم كانوا في السُّلطة. بعدها سمعنا بإشاعة وجود الحزب الفاطمي، وهي تشبه أكذوبة وجود أو تأسيس «حزب الدَّعوة» في العام 1957، أي قبل أكثر مِن سنتين مِن ولادته، مثلما تقدم في تموز (يوليو) 1959.

كنا بحاجة إلى طابعة رونيو لطباعة مناشير الحزب، فقال السَّيد عدنان البكّاء: هذا الأمر أنا أتكفل به! فقلت: كيف تتكفل به؟! قال: إن الشَّيخ أحمد الوائلي (ت 2003) يذهب سنوياً إلى الكويت في شهر محرم للقراءة أو الخطاب هناك، وسأكلفه بجلب

الطابعة معه. كان الشَّيخ الوائلي خطيب المنبر الحسيني الشَّهير مؤيداً ومباركاً لحزب الدَّعوة لكن بلا انتماء. وبالفعل عاد وجلب معه جهاز الرُّونيو خلال أيام.

وضع الجهاز في دار عدنان البكّاء، وأخذنا بإصدار المنشورات الحزبية منها. أتذكر بعد أكثر مِن أربعين عاماً، أي في العام السَّابق، زرت السَّيد علي الحكيم، والد المرجع الحالي محمد سعيد الحكيم، فأخذنا نتذكر الأيام الخوالي، فقال ملاطفاً: أعرف تدبيراتكم في تلك الأيام، أنتم أصحاب المناشير، وإنها كانت تخرج مِن دار السَّيد عدنان البكّاء! فقلت له: كيف عرفت سيدنا؟

فقال: ألا تعلم أني متزوج مِن أخت سيّد عدنان؟ بعد وفاة والدة ولده السَّيد محمد سعيد الحكيم. لكنه لم يكن يعرف أن الشَّيخ الوائلي هو الذي أتى بجهاز الرُّونيو. على أي حال، كان نشاطنا يهدف إلى قيام دولة إسلامية، ومعنا ضباط في الجيش العِراقي مِن السَّادة الحيدرية، ولم أتذكر أسماءهم في الوقت الحاضر.

لم يبرز بيننا شخص في «حزب الدَّعوة» يُشار إليه بالقائد، أو بالمحور، مثل بقية الأحزاب، التي برز فيها قادة، إنما كنا نتقاسم الأدوار، وأن الدَّرجات الحزبية، من أمين عام وغيره، لم تكن موجودة لدينا، لكن كان هناك تفرّغ للعمل الحزبي. فمثلاً صاحب دَخَيّل ترك أعماله الخاصة وصار متفرغاً للحزب، يتجول بين المدن، حيث يوجد نشاط للحزب. أما مصدر مالية الحزب

فكان مِن تبرعات المؤيدين المقتدرين مادياً، واشتراكات أعضاء الحزب، ولم أعرف مصادر غيرها آنذاك.

لقد امتد نشاط الحزب، وصارت له فروع في بلدان عدة، مثل الكويت والأحساء. وصلت «الدَّعوة» إلى الكويت، على ما أظن، عن طريق الشَّيخ علي الكوراني، وهو انتمى بعدنا إلى الحزب بفترة ليست بقصيرة، أما إلى الأحساء فوصل الحزب عن طريق عبدالله الخنيزي، وعبدالهادي الفضلي، فقد شكّلوا تنظيماً هناك.

بدأت المضايقات على «حزب الدَّعوة» بعد استلام حزب البعث للسُلطة، في المرة الثَّانية، أي في تموز 1968، ومع ذلك أتذكر أنه عند وفاة السَّيد إسماعيل الصَّدر، شقيق محمد باقر، في أوائل العام 1969 في موسم الحج، أتى البعثيون إلى الفاتحة، وقد أتى الوزير عبدالسَّتار الجواري، وهو قومي إسلامي.

علمنا أن إشاعة وجود الحزب الفاطمي كانت مِن اختلاق الدوائر الرَّسمية في عهد عبدالسَّلام عارف (قُتل 1966)، وقد طرحت السؤال على حميد الحصونة، فقد سمعت أنه كان رئيسه، وبالمصادفة كنا معاً بالقاهرة: يا حميد ألا حدّثتنا عن رئاستك للحزب الفاطمي؟ فأجاب قائلاً: أي حزب فاطمي! ليس هناك وجود لحزب بهذا الاسم على الإطلاق. بقيت ناشطاً في «حزب الدَّعوة» حتى غادرت إلى مصر وكيلاً لمرجعية السَّيد محسن الحكيم في العام 1969، فبعدها جمّدت نشاطي داخل الحزب.

الدَّعوة والسَّيد الخميني

أعطى «حزب الدَّعوة» زخماً لمرجعية السَّيد محسن الحكيم، أما ولاية الفقيه فلم يتبنّاها الحزب في بداية الأمر، وهي التي قال بها آية الله السَّيد الخميني، لكن محمد باقر الصَّدر تبنّاها في ما بعد. لقد جعل «حزب الدَّعوة» كاظم الحائري فقيهاً للحزب، وأما محمود الهاشمي الشَّاهرودي فلم يكن هو الأقرب بين جماعة الصَّدر، إنما صار مؤيداً للحزب. وإذا تحدثنا عمَّن هو الأقرب إلى الصَّدر، كفقيه، لقلنا هو كاظم الحائري، الذي حذفه «حزب الدَّعوة» مِن بين صفوفه، ولو كان الصَّدر حيّاً لتعامل معه «حزب الدَّعوة» مثل تعاملهم مع الحائري، أي تطبيق قرار الحذف على ما سمعت.

أما صِلاتنا بآية الله الخميني، فأقول كإسلاميٍّ كنتُ أتعاطف مع أي حركة إسلامية، أشِيعية كانت أم سُنِّيّة، لهذا كنت متعاطفاً مع الخميني ومع فدائي إسلام بإيران نواب الصَّفوي، ولما سمعت بإعدام صفوي وجماعته كنت مِن البكائين عليهم، فلما جاء السَّيد الخميني مِن تركيا إلى النَّجف، كان السَّيد إسماعيل الصَّدر قادماً مِن الكاظمية بسبب المشكلة مع آل الخالصي، وقد قام في بيت أخيه محمد باقر الصَّدر. سمعنا حينها أن الخميني قد وصل النَّجف، وكان بيته في طرف محلة الحويش.

ذهبنا أنا وإسماعيل الصَّدر للترحيب به، ولما دخلنا إلى البيت وجدنا عدداً كبيراً مِن النَّاس في صحن الدَّار، فسألنا عن

الخميني فقيل لنا: إنه يستريحُ في غرفته في الدَّور الفوقاني، فسألنا: هل يمكن رؤيته، قالوا: لا. وأتذكر أنّ السَّيد إسماعيل صرخ بعبارة مع لكنة إيرانية قوية مع لتخة معروف بها: «الحَمد لله الذي جعل تيجان الملوك تخشى العمائم»! وهذه هي المرة الأُولى والأخيرة التي أذهب بها إلى بيت الخميني.

كنا حينها ندور في فلك مرجعية الحكيم، ليس لنا غيره مِن المراجع، ونحن نعلم أن مرجعية الحكيم كانت مُقلّدة ومعترف بها مِن قِبل شاه إيران، فكان يعتقد أن سقوط شاه إيران سيأتي بحزب تودة، «الحزب الشِّيوعي الإيراني»، إلى السُّلطة، حينها سمعت أن حواراً جرى بين السَّيد الحكيم والسَّيد الخميني بالنَّجف، سمعت بذلك مِن أولاد الحكيم نفسه، ولم أشهد الحوار. وملخصه: أن الحكيم ذهب بنفسه لزيارة الخميني والتَّرحيب به، بمناسبة قدومه إلى النَّجف، ثم أعاد الأخير الزيارة إلى بيت الحكيم.

ومعلوم أن الثَّوري تكون عبارته عادة ثورية، فأخذ الخميني يُحرّض الحكيم ضد نظام شاه إيران، قائلاً له: بإنك رجل لك مُقلدون داخل إيران، وتستطيع هزَّ عرش الشَّاه بكلمة واحدة! وقيل لي إن السَّيد الحكيم أجابه: لقد فاتك شيءٌ، وهو ألم تعلم أن جدي هو الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب، عليه السَّلام؟! ومعنى هذا أنه سالم معاوية بن أبي سُفيان، وأن الشَّاه ليس أسوأ مِن معاوية. فقيل: نفض الخميني يده وترك المجلس!

كان «حزب الدَّعوة»، في فترة مِن الفترات، لم يسترح للسَّيد الخميني، والسَّبب أنه لما أُعتقل أعضاء «حزب الدَّعوة» القياديون آنذاك، ثم أُعدموا في العام 1974، وهم: عارف البصري، وطعمة، وجلوخان، وآخرون، فذهب البعض إلى الخميني، على اعتبار أن له صلة ما بالسُّلطة العِراقية آنذاك، أو لديه جاه عندها على أساس الاتفاق على معاداة شاه إيران، لكن الخميني قال للذين طلبوا منه التوسط: أنا لا أُدافع عن الجواسيس! هذا ما نقله لي أحدهم. كذلك ذهبت زوجة البصري إلى السَّيد أبي القاسم الخوئي وقام يبكي لبكائها.

الحزب ما بعد السُّلطة

هذا «حزب الدَّعوة»، في الظروف السِّرية، أما «حزب الدَّعوة» السُّلطة فأمره أمر، أو شيء آخر. فلما تشكّل «مجلس الحكم»، مِن قِبل بول بريمر في العام 2003 دخل إبراهيم الجعفري ممثلاً عن «حزب الدَّعوة»، ولما طلبوا أن يُرشح أحد أعضاء الدَّعوة لتولي منصب وزاري أتى الجعفري بحيدر العِبادي، بعد حلّ «مجلس الحكم»، وأتت حكومة علاوي الموقتة.

قاتل الله السِّياسة خلقت ما خلقت. أتذكّر في أحد لقاءاتي، بأمريكا، بإبراهيم الجعفري سألته: هل تلتقي بالسَّيد مقتدى الصَّدر؟ قال ما نصه: هذا صغير مثل أحمد ابني. ولكن بعد أن دخل مقتدى في الائتلاف الوطني، وصار يمتلك أصواتاً مؤثرة، رأيت الجعفري يمشي خلفه. فقلت: يا سبحان الله!

حصل أن أتى إبراهيم الجعفري إلى أمريكا، ولاية ميشكن، وجمعتنا جلسات خاصة، وكنت أرصد كلامه وأتمعن فيه. إلا أنني لم أجد شخصاً شريفاً مِن الإسلاميين مثل عبدالزَّهرة عثمان (اغتيل 2004)، وهو مِن الجماعة المنشقة عن «حزب الدَّعوة». كنا مدعوين عند الطَّبيب علي العطار، وكنت أحد المدعوين، وكانت هناك دعوة أُخرى أقامها شوقي العطار، وهو طبيب أطفال، فذهبت إلى وليمة شوقي.

لحظتها كنت أعاني مِن وجع الظَّهر، بسبب الدسك، فأتذكر أنني نزلت زحفاً إلى محل اللقاء تحت الأرض (البيسمنت)، وسألت عن محل إقامة الجعفري، فقالوا في فندق حياة نيوجرسي، فقالوا إن علي العطار هو الطَّريق إليه، فذهبت إليه وأعطاني مسكّنات لوجع الظَّهر، وطلبتُ منه الذِّهاب إلى إبراهيم الجعفري.

كان الأخير طالباً عندي في دورة دينية العام 1964، فلما رآني قال: أُستاذي أُستاذي، وصَرف السَّيارة التي مِن المفترض أنها ستحمله إلى وزارة الخارجية، كي يبقى معي. عندها لخّصت له نصيحتي، ومفادها: أن تبتعدوا عن السُّلطة. فأجّلوها إلى دورات حُكم أُخر، ففي هذا الوضع تؤدي السُّلطة إلى شرذمتكم كحزب.

اعترض على كلامي بعض الموجودين قائلاً: سيّد مِن الفاو إلى زاخو كلها تصيح جعفري في الانتخابات! فسألت: ماذا يُسمى ما بين الفاو إلى زاخو؟ قالوا: العِراق! فقلتُ: أي عِراق نراه في

الوضع الحاضر! كذلك كتبت إلى نوري المالكي بهذا الخصوص. فأنا ما زلتُ ضد تسلم السُّلطة مِن قبل الإسلاميين، فقط يُرفع الجِلال (غطاء ظهر الحصان أو الحِمار) ينتهي كلُّ شيء، ولا يبقى شيء مِن «حزب الدَّعوة».

فالشِّيعة بشكل عام ليس لديهم سياسيون محنّكون، وليس هناك تجربة سياسية معتبرة عندهم. فأنا أرى أن «حزب الدَّعوة» قد انتهى، بعد أن أصاب المالكي الغرور، حتى طلع أمامهم أيّاد علاوي بأصوات أكثر مِن جمعهم، فجنّ جنونهم، وقد خسر العِراق الملايين بإعادة الانتخابات بطلب وإلحاح مِن المالكي.

أرى أن نجم الإسلاميين بالعِراق قد أخذ بالأفول، وربما أمريكا ساعدت في ذلك، وبسبب شخصيات (عتاولة) مِن الفاسدين، كأنما السَّيد محمد باقر الصَّدر استُشهد كي يصبح الجعفري رئيساً للوزراء، ثم المالكي يأخذ حصته منها، وينتهي كلُّ شيء! لقد خدم صدّام حسين الموجودين في «حزب الدَّعوة» بقتل محمد باقر الصَّدر، فإذا لم يُقتل الصَّدر آنذاك لقاموا هم بقتله. فالصَّدر لا يقبل بما يحصل الآن ولا يُقرّه، بل لحاربه، فكان رجلاً متوازناً دينياً وأخلاقياً.

الفصل السَّابع

فتوى الحكيم ضد الشّيوعية

قضيةٌ شغلت الرَّأي العام العراقي، وما زلَتْ تشغلُ الباحثين في شأن المرجعية الدِّينية، وهي فتوى تكفير الشّيوعية، مَن أيّدها، ومَن لم يؤيّدها من علماء الدِّين أنفسهم. لم تكن حاضرة في ما يمليه السَّيد الرِّفاعي، إنما استدراكٌ أو استشهادٌ مني على ما أتى من حوادث، فذكرت تلك الفتوى، فسألني: أتدري كيف حصلت؟ قلت: اختلفت الأقوال: فمَن قال بطلب من البعثيين، في تلك الصِّراعات، ومَن قال بطلب من شاه إيران، فنصّ الفتوى لم يخص حزباً معيناً، بل قالت الحزب الشِّيوعي، فيمكن أن يكون العراقي أو الإيراني.

تنهّد الرِّفاعي وصفّق بيده مسروراً بجهلي ما يعرفه هو وأطّلع عليه، قائلاً: «عندي خبرها اليقين، لا هذا ولا ذاك، إنها أُعطيت باستفتاء من بزاز من بزازي النُّعمانية»! فقلت: أُنظر كم من حقائق غائبات وكم مختلقات حاضرات! قال: «إليك القصة». وهو يسرد قصة الفتوى، أتى ذكر الملا مصطفى البارزاني، فاضطررت أن أجمع خبره مع قصة الفتوى في فصل واحد.

بعد أن أنهيت تجهيز الأمالي للنشر، التقيت بالسيد الرِّفاعي بالكويت (كانون الثَّاني/يناير 2012)، وحدّثني حول ما كتبته عن الفتاوى الخاصة بإباحة دماء الشِّيوعيين في تموز(يوليو) 1963، وكنت قد نشرت عنها وحققت فيها. قال لي: «رأياً مخالفاً، وأنا لا أعتقد بوجودها إنما وضعتها السلطة ونسبتها إلى العلماء، وأريد وضعه في الكتاب فهل لديك مانع»؟! فقلت: أملي عليَّ ما

تريد، وسأجد له مكاناً. وبالفعل حدث هذا، وعنونها هو شخصياً بـ«الفتاوى الشَّيطانية».

قال: إن قصة الفتوى التي أصدرها السَّيد محسن الحكيم، والقاضية بتحريم الانتماء إلى الحزب الشِّيوعي ليست مثلما شاعت ورُويت قصتها، إنما كنت مطّلعاً تمام الاطلاع على ما حدث، لمَن صدرت، وما هو السَّبب، فهي لم تكن مثلما كُتب عنها ما كُتب مِن المقالات، وصنّفت فيها المصنفات، وما ورد على ألسنة السِّياسيين المناوئين لها والمؤيدين على حدٍ سواء. فهي صدرت لطلب شخص ليس له علاقة أو عداوة بالحزب الشِّيوعي، وليس هناك قوى دفعت لإصدارها مثلما قيل إن البعثيين كانوا وراءها، وكم مِن الحوادث التي تُروى أخبارها خارج الواقع والحقيقة.

أنا أروي قصتها لأني على عِلم بتاريخ وسبب صدورها، وكيفية وصولها إلى الصَّحافة، ومَن كان وراءها، ولماذا! قصةُ الفتوى بدأت بأن بزازاً، بائع قماش، مِن أهل النُّعمانية التابعة لمحافظة الكوت في جنوب العِراق، في وقت بروز الشَّيوعية كفكر وحزب، بل إن الانتماء للحزب الشِّيوعي كان مكسباً.

جاء الرَّجل، وكان ينوي الانضمام إلى الحزب الشِّيوعي العِراقي، وكان ملتزماً متديناً ويُقلّد السَّيد محسن الحكيم، ولا بدَّ في مثل هذا القرار مِن أن يلجأ إلى مَن يُقلّده ليستفتيه، فإذا كان يستفتيه في الوضوء والحج وأمور العبادة والمعاملة كافة فكيف بمثل هذا الأمر!

استفتى الرَّجل، الذي نسيتُ اسمه، السَّيد الحكيم: هل يجوز الانتماء إلى الحزب الشِّيوعي، ولعلَّ ذلك كان في نهاية العام 1959، أو بداية العام 1960 المصادف (1379 هـ)، فأفتاه الحكيم تلك الفتوى الشهيرة، ومنها: لا يجوز الانتماء للحزب الشِّيوعي...![1] فهي كانت خاصة بشخص واحد، ولم يكن المقصود نشرها وتعميمها، شأنها شأن بقيةً الاستفتاءات الشَّخصية، استفتاه بها ونُسي أمرها، وقد عرف هذا البزاز تكليفه الشَّرعي، فاستفتى المرجع واحتفظ بما أفتاه بها.

بعد فترة مِن أخذ البزاز الفتوى، واشتدّ الخلاف مع الشِّيوعيين بالنَّجف، تحرك الخطيب سيد جواد شُبَّر، وكان مِن خطباء النَّجف الجماهيريين، وهو والد كاظم شُبَّر الذي درس الاقتصاد ببريطانيا وكان مسايراً أو شيوعياً، وأقول إنه كان شيوعياً، وهو مِن الشَّباب آنذاك. كنا أنا ومعن العِجلي عندما نذهب إلى بيت والده السَّيد جواد نخاف مِن ولده كاظم، ولا نتكلم أمامه في شأن سياسي، وأن والده أراد التَّخلص منه، فبعثه للدِّراسة ببريطانيا بعد أن أنهى الثَّانوية بالنَّجف، فكان منساقاً مع التَّيار، إلا أنه انقلب في ما بعد.

---

(1) كانت جريدة الشَّهادة التابعة للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق قد أعادت نشرها بعد أن ضربت الحكومة الإيرانية الحزب الشيوعي الإيراني العام 1984 في عددها: 2 كانون الأول (ديسمبر) 1986 ونصها: «بسم الله الرحمن الرحيم، لا يجوز الانتماء إلى الحزب الشيوعي، فإن ذلك كفر وإلحاد، أو ترويج للكفر والإلحاد، أعاذكم الله وجميع المسلمين عن ذلك، وزادكم إيماناً وتسليماً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» (17 شعبان 1379هـ الموافق 12 شباط 1960).

كان للسَّيد جواد شُبَّر خلافات حادة ومواجهات مع شيوعيين بالنَّجف، وكان يشعر بأذيةٍ منهم، وقد حاولوا الاعتداء عليه، فأراد فعل شيء ما ضدهم، فذهب إلى السَّيد محسن الحكيم كي يستخلص منه فتوى ضد الشِّيوعيين، فلما أتاه قبّل يده وجلس عنده، وطلب منه إصدار فتوى، فقال له: أنا كتبت مثل هذه الفتوى.

فصاح على ولده مهدي الحكيم: هات الدَّفتر، ويقصد دفتر الفتاوى، فورّق أو تصفح السَّيد الحكيم الدَّفتر، وقال لجواد شُبَّر هذه الفتوى التي تطلبها. كان نص الفتوى غير موجود في الدَّفتر وما موجود هو اسم الشخص الذي طلبها مِن الحكيم، وتاريخها، أما نصها فغير موجود. هذا ما حكاه لي السَّيد مهدي الحكيم شخصياً، وأن المستفتي هو بزاز مِن مدينة النُّعمانية.

كان عم السَّيد جواد، السَّيد قاسم شُبَّر (قُتل وعمره 90 عاماً في عهد السلطة البعثية) عالم منطقة النُّعمانية، وإذا بجواد يذهب مباشرة، مِن دار الحكيم إلى كراج السَّيارات متوجهاً إلى النُّعمانية، حيث عمُّه يُقيم هناك، ولما وصل سأله عن البزاز وعنوانه، فبعث معه مَن يدلّه إلى دكانه في السُّوق، فوصل إلى الشَّخص المقصود، وسلّم عليه وجلس عنده وسأله: هل أنت الحاج فلان؟

قال: نعم. هل أنت مستفتي السيد محسن الحكيم بفتوى مِن نوع الموقف مِن الشِّيوعية؟ قال: نعم. فهل توجد عندك الفتوى؟ قال: نعم. فسأله إذا كان بالإمكان استنساخها. فوافق الرَّجل.

فأخرج الفتوى مِن بين أوراق كان محتفظاً بها، وأخذ السَّيد جواد بنسخة منها، ومباشرة توجّه بها إلى بغداد.

توجّه بالفتوى مِن النُّعمانية إلى بغداد، وإلى الصَّحافة المعادية للشِّيوعيين مباشرة، وهي الصُّحف القومية، وكان عبدالكريم قاسم حينها ليس على وئام مع الحزب الشِّيوعي العراقي، وقد نشرتها تلك الصُّحف على وجه السِّرعة تحت مانشيت: فتوى الإمام الحكيم: «الشِّيوعية كفر وإلحاد». هذه قصة الفتوى، وقصة نشرها وإشاعتها، فلولا السَّيد جواد وذلك البزاز يغلب على الظن لم تصدر مثل هذه الفتوى. لكن كلّ الذين تحدثوا عنها لا يريدون معرفة أسبابها، إنما جعلوها موقفاً منفصلاً عن أسبابه، وكأن سرد ذلك يضعف مِن قيمة الفتوى، أو يُقلل مِن منزلة محسن الحكيم، فهي صدرت بلا موقف، ولكن بعد نشرها صارت تعبّر عن موقف كتحصيل حاصل.

كان أثر الفتوى بين الشِّيعة أكثر لأن أغلب الشِّيوعيين كانوا مِن الشِّيعة، وقد استخدمها البعثيون بشكل سيّئ للغاية، بعد انقلاب 8 شباط (فبراير) 1963، وأخذ العديد مِن الشِّيعة ينقمون على المرجع الحكيم بسبب استغلالها مِن قِبل الحرس القومي ضد أبنائهم، بل ومِن المتدينين أيضاً، والسَّبب هو تضرر أولادهم وأحفادهم منها، لأَنهم كانوا مِن اليساريين.

أتذكّر مات الحاج حسن العطا، عم الدكتور جابر العطا، الذي مرَّ بنا ذِكره، ووالد الحاج عطا العطا صاحب متجر ببغداد

ومكتب خطوط جوية عراقية، وكان مِن أصدقاء الحاج عطا الدُّكتور عبدالسَّتار الجواري، والدُّكتور أبو براق عبدالهادي محبوبة، رئيس جامعة البصرة، وزوج الشَّاعرة نازك الملائكة، ورشيد الصَّفار المحامي والأديب، وأول مرة أرى فيها عبدالسَّتار الجواري هي العام 1967-1968، وكنا ضيوفاً في بيت الحاج ثامر العطا، وعددنا نحو عشرين شخصاً، وجرى الحديث حول الفتوى المذكورة، فكثر اللغط فيها بين قادح ومادح.

كان عبدالسَّتار الجواري رجلاً فاضلاً، وتوزّر وزارة التربية ووزارة الأوقاف في عهد البعثيين، وعلى الرَّغم مِن أن لي مواقف سلبية منه، لكني أحترمه كثيراً، قال في شأن الفتوى ووجّه كلامه إلينا: «أنتم غير مُبتلين فلا تقدّرون هذه الفتوى، لأنكم في النَّجف، وفي أحياء أُخر، بل نحن المبتلين، لا ندري في أي ساعة تهجم علينا الشِّعلة (منطقة شعبية تقع بالكرخ بناها عبدالكريم قاسم لسكن الفقراء والكسبة)، ونحن في الأعظمية وتذبحنا، كنا في الليل لا ننام خشية مِن الهجوم علينا بعد أن يحركهم مَن يحركهم. فما إن صدرت الفتوى حتى أخذنا ننام».

معلوم أن سكان الشِّعلة كانوا مِن الشِّيعة، وإن للحزب الشِّيوعي وجوداً هناك، وكان الخوف من أن يحرّكهم الحزب ضد الأعظمية، وسكنتها معظمهم مِن البعثيين والقوميين، وهي منطقة سُنيّة، فما إن صدرت الفتوى وشاعت لم يعد الحزب الشِّيوعي

قادراً على تحريكهم، هذا ما كان يقصده عبدالسَّتار الجواري. سمعت هذا مِن فم الجواري مباشرةً.

الفتاوى الشَّيطانية

صلةً بفتوى السَّيد الحكيم ضد الشِّيوعية، التي قدّمت سببها الشَّخصي والمتعلّق باستفتاء أحد المُقلدين، سمعت عن فتاوى أفتى بها علماء الدِّين، لتطبيق الشَّريعة بالشِّيوعيين، أخذها منهم الضَّابط عبدالغني الرَّاوي(ت 2011)، ونشرها عبدالغني، وكتب قصتها الأخ العزيز الشَّيخ طه جابر العلواني، وأحياها بشكل مؤثر في الفضاء الإعلامي، على مستوى المنطقة العربية والعالم الكاتب الموهوب الدُّكتور رشيد الخيُّون في جريدة «الاتحاد» الإماراتية، اعتماداً على ما قرأ وسمع مِن مصادر متعددة.

وما أدهشني أكثر نسبة بعض هذه الفتاوى إلى أكبر مجتهدي علماء الشِّيعة في العالم الإسلامي، المنظور إليه بالورع والقداسة الإمام السَّيد محسن الحكيم. وفي اعتقادي أن تلكم الفتاوى سياسية أكثر منها دينية، حماية لنظام حكومي هش سلطوي بالعراق والمنطقة بأسرها، وكان ذلك بعد انقلاب 8 شباط 1963.

تلك الفتاوى لم تقدّم فهماً سوياً وعميقاً للإسلام، بل هي مدهشة وغريبة جداً في منظور الفقهاء المسلمين، سُنَّة وشيعة، ولم يحدث صدور مثلها إلا مِن أدعياء الإفتاء زوراً وبهتاناً. أما الذين يمتلكون شروط الفتوى بالاجتهاد الصَّحيح أو العِلم الذي

يصونهم مِن الانزلاق مع الهوى فهم لا يحيدون عن حقائق الإسلام المعتمدة على القرآن الكريم والسُّنَّة المروية بالأسانيد الصحيحة.

مِن هذا المنظور نقول: إنه لا يمكن صدور ما نُسب إلى أولئك الأعلام مِن فتاوى تُبيح قتل أُناس ولدوا على فطرة الإسلام، ونشأوا في مجتمع إسلامي، وفي بيوت مسلمة، وفي نهاية الأمر يُقتلون بفتوى إسلامية. إن ما ذُكر على ألسنة الفقهاء العلماء لا يقتنع به مَن له معرفة أولية في فقه الشَّريعة الإسلامية، وقد يُفاجئ به إذا سمعه للوهلة الأولى، ويُبنى موقف مضاد مبني على الثَّوابت الإسلامية.

أخيراً أقول جازماً، بعد كلِّ ما تقدم: إن المقنع الدَّائم للحقيقة أن موقع تُلكم الفتاوى، ومصدرها الصَّحيح الأرشيف المعني في تلك الأكاذيب ونشرها بين النَّاس، ولا فرق في الأيديولوجيا البعثية السِّياسية والمؤسساتية بين نشر الأكاذيب المفتعلة كهذه الفتاوى، التي وصفتها بالشَّيطانية والشروع بالرصاص الحي على الخصوم الأكثر عناداً ورفضاً لهم، ولم يعد هناك أهمية في نظرهم لكثرة الضَّحايا، ويعتبرون ذلك موقفاً دفاعياً عن نظامهم السِّياسي بالعِراق.

أما الذين كتبوا ونشروا الفتاوى أمثال الشَّيخ الدُّكتور العلواني والسَّيد الرَّاوي والدُّكتور الخيُّون فقد بنوا على المكتوب والسماع، وفي هذه الحالة لم تحصل مشافهة بينهم وبين مَن نُسبت إليهم

الفتاوى، وهذا يجعلهم لا يمتلكون حقيقة صدورها. ولما كان الموضوع سياسياً فمِن الواجب أن يُطرح في حالة كهذه الذِّهاب إلى العُلماء للتحقق مِن صحة ما نُسب إليهم[1]، وهذه وظيفة يُمليها الحذر والاحتراز خشيةً مِن الوقوع في الخطأ أو الخطيئة، وكلاهما لا نقاش في وقوعه من دون أن تُعرف الحقيقة مِن أفواه العلماء الثَّلاثة: الإمام الحكيم والشَّيخ نجم الدين الواعظ والشَّيخ محمد مهدي الخالصي، وهم الذين نُسبت إليهم الفتوى الدِّينية بجواز قتل الشِّيوعيين الموجودين في قبضة النِّظام آنذاك، ومجموعهم في سجن نقرة السَّلمان، وعددهم بالأُلوف في ذلك الوقت.

لو حدث ما تحدّد بالفتوى السِّياسية، ولا أقول الدِّينية، لأن الشَّريعة الإسلامية العادلة براء مِن ذلك، لكان الخطبُ جسيماً على الشَّعب العِراقي، ومثيراً غضبه على النظام علانيةً، وضمناً على احتكار الدِّين لخدمة السِّياسة. لكن الله سلّم ولم يحدث ذلكم الحدث الخطير، وتغيَّر بلحظات رأي المكلّف بالتَّنفيذ اللواء عبدالغني الرَّاوي، وإلا لكان الرَّصاص كفيلاً بنهاية تلكم الآلاف من العراقيين بأسرهم. والفضل في ذلك التَّغيير السَّريع يعود إلى النَّصيحة التي قدمها الدُّكتور العلواني للسَّيد الرَّاوي، الذي رفض التَّنفيذ، فأفشل العملية.

---

(1) توفى العلماء الثلاثة قبل فتح هذا الملف: الخالصي (تشرين الأول/أكتوبر1963) والحكيم (1970) والواعظ (1974). وكان عبدالغني الرواي قد قابلهم وأخذها منهم، بحسب ما تحدّث به ونشره في مذكراته.

لإظهار الحقيقة أقول: إن السَّيد الحكيم مِن أشد الذين يتورّعون في مسألة سفك الدِّماء، وكانت التَّقلبات السِّياسية الدَّاخلية بالعِراق، يمكن التَّغلب عليها لصالح الإسلام والشَّعب العِراقي بأسره بمجرد اصطدام بسيط تمهيداً لتحقيق النَّصر، فكان الحكيم يقول: كلَّ شيء يسبب إراقة ملء محجمة دماً لن أفتي به، حتى صارت هذه قاعدة مُسلّمة في نهج الحكيم السِّياسي. كان بعضنا يُعارض رأي الحكيم بشكل علني.

وهناك مَن يتخوّف مِن إعلان المعارضة لشدة الاحترام لصاحب الرَّأي. وأنا شخصياً لم أكن منسجماً مع الرأي في ذلك الوقت، وخصوصاً في الفترة التي نزا (وثب) فيها حزب البعث على السُّلطة مرة ثانية في العام 1968، وصار العراق في قبضته الحديدية، وكنت أعلم أن حكمهم سيقود البلاد والمنطقة بأسرها إلى عواقب مدمرة.

أما الحقائق التي تجاهلها مزيفو الفتاوى، فنشير إليها باختصار شديد جداً:

لا يثبت حكم الارتداد عن الإسلام بالشَّائعات والتُّهم، وإنما بالإحالة إلى القضاء العادل.

يُناقش المرتدُّ في ساحة القضاء، ويُقدّمُ إليه فهمٌ عميقٌ ومنطقيٌّ عن الإسلام، وكذلك دحض الأباطيل والشُّبهة التي علّقت في ذهن هذا المرتد لإزالتها منطقياً أيضاً.

إذا تنصّل عن نسبة الارتداد إليه يستحب البقاء على الإسلام، ولن تؤثر نسبة الارتداد في صحة إسلامه.

الشَّيء الذي لا يتجاهله القضاء الإسلامي أن الحدود تُدرأ بالشُّبهات، فإذا انقدحت شبهة في ذهن القاضي أثناء المرافعة مع المتهم فلا يقام عليه الحد الشَّرعي، وتثبت في حقه البراءة.

موقف الإمام علي بن أبي طالب (ع) مِن الخوارج الذين حكموا عليه بالشُّرك، واستحلّوا قتاله، وأباحوا دمه، ومع ذلك اعتبرهم ضحية شُبهة عرضت لهم، ولذلك منع قتالهم مِن بعده، وقدم فهمه فيهم بقوله: «ليس مَن طلب الحق فأخطأه كمَن طلب الباطل فأصابه». إشارة إلى الفَرق في ما بين الخوارج ومعاوية بن أبي سفيان. هناك مخارج كثيرة لصالح المرتد ذكرها الفقهاء في كتاب القضاء في قبول توبة المرتدّ. يُقدم الفقهاء فهماً عميقاً بخصوص المرتد يتجاهله الكثيرون، وقد يجهلونه، وفيه تسامُح ديني كبير مع كثير مِن المرتدين[1].

---

(1) كنت قد نشرت مقالةً في جريدة الاتحاد الإماراتية، تحت عنوان: الرَّاوي... قسوة توظيف الدين في السِّياسة والمؤرخ في 4 كانون الثاني (يناير) 2012 بمناسبة وفاة الراوي، تحدثت فيه عن فتاوى أخذها اللواء عبدالغني الرواي من علماء الدين، فتحدث معي السَّيد طالب الرِّفاعي حولها، وهو يعتقد أن السلطة آنذاك قد فبركتها ونسبتها إلى علماء الدين. كان الراوي قد نشر نصوصها سابقاً في جريدة الزمان في عددها المؤرخ 9 نيسان (أبريل) 1999، وهو شخصياً أخذها مِن الشيخ الخالصي والسيد الحكيم ونجم الدين الواعظ، ونشر النص الذي حصل عليه من الخالصي والحكيم: «الشيوعيون مرتدون وحكم المرتد القتل، وإن تاب، وإن كان متزوجاً وحكم الزوجة والأولاد، وإن كان لديه أموال منقولة أو غير منقولة وحصة الإمام»، أما الحكيم فصنّف الشيوعيين إلى عقائديين وغير عقائدين، =

البارزاني والتَّوجه العروبي

أيام عبدالسَّلام عارف (1963 - 1966) ظهر للكُرد موقفٌ مِن الحكومة القومية ببغداد، ووصلت رسالة من الملا مصطفى البارزاني إلى السَّيد محسن الحكيم، وقد اطّلعت على نصها، وقصة ذلك أنه في العام 1964 استأجرتُ بيتاً على شاطئ الفرات بالكوفة، قريباً مِن بيت السَّيد محسن الحكيم، وكان مِن عادته أنه يتمشّى يومياً، عند الفجر، مِن قصر الملك هناك حتى مستشفى الكوفة، والمسافة نحو ميل ونصف، وذلك منذ الخمسينيات، بل منذ أخذ يبرز مرجعاً، وكنت أنا أيضاً أمشي في هذا الوقت للرِّياضة. يمشي الحكيم لوحده حاسر الرأس بلا عِمامة، إنما يعتمر العرقجينة[1] فقط، وهي غطاء يوضع عادة تحت العِمامة، ويلبس الصَّاية (القفطان).

كنا نلتقي في عرض الطَّريق وأسايره، ثم يصل بيته فأقبّل يده، وأنصرف إلى بيتي، وبعد أن غيّر اتجاهه في المشي، فأخذت

=وأن الفتوى تنفّذ بالعقائديين، وكان الرواي قبل ساعات من التنفيذ قد عرضها على الشيخ طه جابر العلواني، إمام جامع حسيبة الباجه جي آنذاك ببغداد، أثناه بدوره عن تنفيذها على أساس أنها فتاوى سياسية وليست دينية. من جانبي حققت أمرها من أربع جهات: عبدالغني الرواي، مما كتب وما تكلم به، وكنت قد زرته بالرياض (نيسان/أبريل 2011)، واتصلت بطه العلواني وأكد شفاهة ما أثبته في كتابه «الردة والمرتدون»، ثم ما كتبه هاني الفكيكي في «أوكار الهزيمة» وما سمعته مباشرة من أحد أقطاب تلك الفترة محسن الشيخ راضي. نشرت عنها في «الأديان والمذاهب بالعراق» و«لا إسلام بلا مذاهب وطروس أُخر»، و«مائة عام مِن الإسلام السِّياسي بالعراق».

(1) غطاء خفيف يوضع عادةً على الرأس تحت العمامة أو العقال والكوفية.

أنا الاتجاه نفسه عمداً، كي أتشرّف بملاقاته، وفي يوم مِن الأيام وأنا أهمُّ بالانصراف قال لي: أتحبُّ أن تشرب الشَّاي معي؟ قلتُ: سيدنا هل هناك مَن لا يحبُّ شرب الشَّاي مع السَّيد محسن! فدخلنا وجلسنا تحت سوباط (عريشة) العنب في مدخل البيت، ومد يده إلى جيب صايته وأخرج ورقةً، وقال لي: اقرأ! فأخذت، وإذا به عبارة عن خطاب أو رسالة مِن الملا مصطفى البارزاني (ت 1979) موجّهة إلى السَّيد محسن الحكيم، يشكو فيها توجه عبدالسَّلام عارف القومي.

فمِن جملة ما قرأتُ: أنه كان يُخاطب الحكيم بأن الحكومة العِراقية أعلنت عن أنها قومية عربية، أما نحن فلسنا عرباً، إنما نحن كُرد. ففي أيام العثمانيين كانت هناك حكومة إسلامية، ونحن مسلمون لا خلاف لنا، ولكن الآن أُعلنت القومية العربية، ولما أُعلنت حرّكت لدينا العِرق القومي. فإذا قالوا هم: نحن إسلام ودولة مسلمة فلا خلاف لنا معهم، لكن إذا قالوا: نحن عرب! فنحن نقول: نحن كُرد.

بعدها قال لي السَّيد محسن الحكيم: ما رأيك؟ فقلت: كان الرَّجل، وأعني مصطفى البارزاني، منطقياً. وكان رأي السَّيد محسن الحكيم عدم محاربة الكُرد، ولم يصدر فتوى في هذا الشأن، مثلما أُشيع.

الفصل الثَّامن

كيف رأيتُ باقر الصَّدر

لمحمد باقر الصَّدر منزلةٌ في قلب الرِّفاعي، وبدأت العلائق بينهما حال وصوله إلى النَّجف، وهو الذي رغّب الصَّدر في العمل الإسلامي السِّياسي، ورغّب الآخرين في اتخاذ الصَّدر صدراً لما شكّلوا من تنظيم، لكنه يقولها بصراحة ليس للصَّدر في السِّياسة باع، فكان يبحث عن اسشتهاد والسياسي ليس مشروع موت، إنما مشروع حياة.

قلت له: ألم تخشَ الملامة لهذا الرَّأي، والآن صور الصَّدر في كل مكان، واسمه أُطلق على مؤسسات، والكلُّ يدّعي وصلاً به؟! هذا يدّعي أنه كتب من أجله، وذاك يدّعي أنه حاول نصرته! قال: «منذ وطأت قدمي أَرض النَّجف، وأنا في العشرين أو أقل وحتى مغادرتي إلى مصر في العام 1969 لم انقطع يوماً عن الصَّدر ولم ينقطع عني، فلا أخشى مَن يُتاجر به صورةً، ولو كان حياً لربَّما سعى مَن سعى من الحاضرين إلى التخلص منه، لأنه سيمنعهم من التِّجارة بالوطن والدِّين! لا تغفل كلَّ كلمة أقولها». بدأ يتحدث، وبلا توقف حتى استنفذ ما لديه، تحدث بمشاعر تجمع بين الغزل واللوم، فمن وجهة نظره كانت للصدر فرصة النَّجاة، ولو كان سياسياً لاستغلّها.

قال: كان أول سماعي بالسَّيد محمد باقر الصَّدر وأنا شابٌّ بمسقط رأسي الرِّفاعي، وكنت أذهب مع والدي إلى مجلس الوجيه آنذاك إسماعيل السُّوز، الذي مرَّ بنا ذِكره. قال إسماعيل: «كنت بضيافة الشَّيخ محمد علي الخمايسي، وقد أقام وليمة دعا إليها

السَّيد إسماعيل الصَّدر (ت 1969) وابن عمه السَّيد محمد صادق الصَّدر (والد محمد صادق الصَّدر) والشَّيخ عباسي الرُّميثي، ورأيت هناك شاباً عمره أربعة عشر عاماً تعجبت مِن ذكائه ونبوغه، وهو محمد باقر الصَّدر شقيق إسماعيل الصَّدر، كان نابغة باعتراف الموجودين في ذلك المجلس».

حينها علق الاسم في ذهني، وانعقدت مودةٌ معه على السّماع، ومِن عادة الشَّباب أنهم يميلون إلى البطولة والتمثّل بالأسماء، وكأني أريد أن أكون مثله في ما هو فيه، أن يعتمر العِمامة وعمره أربعة عشر عاماً، ويشهد له الشِّيوخ بالنَّبوغ، فتلك بطولة حقاً! حصل ما يشبه المفاجأة، في يوم مِن الأيام، ولم يمر على سكني في المقبرة سوى أُسبوع أو أقل تعرفت إلى الصَّدر شخصياً.

أول التَّعارف

عندما كنت أراجع دروسي في ظل الغرفة المقبرة، فخارجها كان أكثر برودة من داخلها، طُرق الباب، فلما فتحته وجدت سيّداً شاباً، لم يخط أو ينبت شاربه ولحيته بعد، ويعتمر العِمامة السَّوداء، وإذا به يُقدم نفسه إليّ: محمد باقر الصَّدر، ولم يقل السَّيد، كما جرت العادة عندما يُقدّم السَّادة أنفسهم إلى الآخرين، أو إلى بعضهم بعضاً. كان أصغر مِني سناً، فهو مِن ولادات العام 1933، وكان شاباً لطيفاً، فأخذت أُحدّق به بإعجاب لِما سمعته عنه وأنا بالرَّفاعي، مثلما مرَّ الحديث بنا. فقلت في نفسي: أهو هذا الذي

أبحث عنه، وتحدث عنه السُّوز! وكيف ألتقي به في هذا المكان! ومِن دون سعي مني أو بحث!

حسبتُ، في بداية الأمر، أنه جاء لزيارتي تكريماً لي، فأنا وصلت حديثاً إلى النَّجف، ويحدث مثل ذلك عادةً، إذا أتى شخصٌ جديد يأتيه الآخرون للتعارف وتذليل الصُّعوبات إن وُجدت أو الاطمئنان، لكن بعد لحظات طُرِقَ باب الغرفة ثانيةً فتحته فدخل أحد المعممين، وكان ذو لحية، ورفيع القوامِ، ويبدو أنه أكبر سناً مني، وأخذا يتذاكران في كتاب «فرائد الأُصول» للشَّيخ مرتضى الأنصاري (ت 1864)، صاحب كتاب «المكاسب» المعروف.

إن مكان المقبرة، حيث سكني، يبدو خاصاً، لكنه في الحقيقة كان عاماً لبعض الطَّلبة، وخصوصاً أن أهل المقبرة هم أخوال السَّيد محمد باقر الصَّدر. كنت أستمع لمذاكرتهما للكتاب المذكور، وكأنهما يتكلمان اللغة السنسكريتية، فكنت في بداية المشوار الدِّراسي، مع كتاب «قطر النَّدى»، الذي عادة يُدرّس في مرحلة المقدمات، وهي البدايات بعينها.

انتهيا مِن درسهما قبل الغروب، وقد استمرا، على ما أتذكر لأنني كنت منتبهاً إليهما الانتباه كلّه، نحو الخمسين دقيقة، وعند ذاك التفت إليّ الصَّدر قائلاً: تخرج معنا؟ فقلت بلا تفكير: نعم سأذهب للصَّلاة خلف خالك، وأعني الشَّيخ محمد مرتضى آل ياسين. فقال: وأنا أيضاً أذهب لأُصلّي خلف خالي.

فمسكني مِن يدي وخرجنا معاً، لكنه لم يذهب إلى الصَّحن الحيدري، بل قادني معه إلى داخل مقبرة في شارع الرَّسول، وهناك قرأنا الفاتحة لساكني المقبرة مِن الأموات، ثم عُدنا إلى الصَّحن، فلم يحن بعد أذان المغرب، وما زال هناك بعض الوقت على الصَّلاة، وما إن وصلنا حتى وجدنا المؤذّن قد بدأ برفع الأذان، وكانت الصَّلاة، في الصَّحن، بإمامة الشَّيخ محمد رضا آل ياسين، ولما توفّى قام بإمامتها أخوه الشيخ مرتضى آل ياسين، وهو مثل أخيه رجل ثقة ومجتهد وعالم بحق، وكان عمره آنذاك 58 عاماً، لكن هيأته توحي أنه في الثَّمانين مِن العمر.

من هنا أخذت صلتي تتوطد مع السَّيد محمد باقر الصَّدر، وفي كلِّ ليلة جمعة يأتي إلى غرفة المقبرة للدِّراسة.

أُسرة عاطفية

كان أفرادُ بيت الصَّدر، على الخصوص عائلة إسماعيل وباقر، عاطفيين، فأمُّ باقر وإسماعيل وآمنة ذات عاطفة فياضة، وكذلك كان أخوالهم آل ياسين. كان باقر الصَّدر يأتيني، ونحن بالنَّجف، كلَّ يوم جمعة، ويمكث عندي مِن السَّاعة الثَّامنة أو التَّاسعة إلى المساء. كانت أمه تفقده في تلك اللحظات، فقالت لي: ولدي سيّد طالب، وكانت تناديني بولدي، أنا لا أستطيع فراق سيّد باقر، أنت تعال وتغدّى عندنا بدلاً مِن أن يذهب هو إليك!

أتذكّر في مرة مِن المرات، طلب أحد التَّلاميذ، عبدالعال مظفر، منه أن يأتي إلى كربلاء مع أصحابه لقضاء يوم أو يومين؛

كان ذلك في العام 1955، فأجّر له بيتاً هناك، فقال له باقر الصَّدر: أستأذن أمي أولاً، وذلك لعاطفتها غير العادية بأولادها! فقالت له: مع مَن تذهب! قال لها: مع سيّد طالب وآخرين. فطلبت منه أن يأتي بي إليها.

فقالت لي: ولدي سيّد طالب محمد باقر أمانة بيدك، يطلع معك وتأتي به إلى البيت، تأخذه بهذا الشَّرط، فهل تتعهد؟ قلت: أتعهد. بقينا بكربلاء ثلاثة أيام، وكان السَّيد باقر يتمنى أن يركب القِطار، فلم يحصل أن ركبه مِن قَبل. ولم يحصل هذا إلا بعد السفر إلى مدينة الحلة ومِن هناك نركب القطار.

قلت له: لا، مثلما ذهبنا نعود! ما زلت أشعر بالذنب لأني حرمته مِن تلك الأُمنية البسيطة، وهي ركوب القطار وكان شاباً وفي عمر تستهويه مثل هذه الأمور. ولم ينفع معي الرجاء، وأنا أردّ عليه: أمكَ أوصتني أن أعودَ بك إلى البيت!

مِن اللطائف، أن أحد تلامذته، وهو فخر الدِّين أبو الحسن، وهو قريب لآل الصَّدر، كان يمارس رياضة الزورخانة لتقوية بدنه، وفي نهاية الدَّرس نتحدّث، وطُرح موضوع التمرين الجسدي والرِّماية استعداداً لظهور المهدي المنتظر. فقلتُ للصَّدر: أنت لا تستطيع أن تعصيَ أمر والدتك، وهي تخاف عليك مِن التدرّب على الرِّماية. فقال: في أمر المهدي أمي لا تمنعني مِن شيء، فهي تقول: أنا حرٌّ إذا ما تعلّق الأمر بالإمام المهدي. كذلك كانت جدتُه لأمه هكذا مع أولادها.

لشدة التَّعلق بهم، والخوف عليهم، كانت والدتهم تنامُ بين محمد باقر وأخته بنت الهدى آمنة، ويبدو لهذه الأسباب الأُسرية العلوية لم تتزوج، خطبها ابن عمها موسى الصَّدر ولم توافق، كذلك خطبها ابن خالها مفيد آل ياسين ولم توافق أيضاً، لأنها لا تستطيعُ فِراق إخوانها ووالدتها. فكانت تقول: حياتي مرهونةٌ بحياة أخي محمد باقر، وموتي مرهون به أيضاً.

كان باقر الصَّدر جالساً معي في غرفتي، حيث مدرسة القوام، فافتقدوه أهله، فطُرق الباب، وإذا بشقيقه السَّيد إسماعيل الصَّدر، فقلت له: يطلبونك، هذا إسماعيل وأختك العلوية آمنة. قال إسماعيل: أخي عندك! وكنت أعتقد لو قلتُ له: لا، فيمكن أن يحدث مكروهٌ لهما في تلك اللحظة.

كانت تربطني وشائج خاصة بمحمد باقر الصَّدر، أتذكّر مرة أنه طلب مني الذِّهاب إلى الكاظمية عندما حصل صِدام مع آل الخالصي، وجاء إسماعيل تاركاً مسجد الهاشمي الذي كان يُصلّي به بالكاظمية إلى النَّجف، وكان الصِّدام بسبب هذا المسجد. وكنت حينها عند محمد باقر، فطلب مني الذِّهاب إلى الكاظمية لآتي بالأخبار، وذهبت إلى هناك وأتيت بالأخبار، وبقينا نزور التميميين، في السِّجن، الذين وقفوا مع السَّيد إسماعيل ضد الخالصيين، ونحمل لهم ما يتوافر لدينا مِن الحاجات، وكان السَّيد باقر يقترح علينا زيارتهم. وهي قضية حدثت في العام 1964 على ما أتذكر، زمن عبدالسَّلام عارف.

كانت تلك العاطفة تنعكسُ على طُلابه وأصدقائه، فعلاقته بهم تصل إلى الفناء والعشق ، والآخر يبادله هذا الشُّعور، فكنت لو خيِّرتُ أن أُصابَ بمكروه بدلاً من محمد باقر الصَّدر لما تأخرت، وهو أمر بسيط عندي، وذلك لعاطفته العميقة معي.

محنتُه مع السِّياسة

أقولها مِن خبرة والتِصاق بالسَّيد باقر الصَّدر إنه لم يكن كائناً سياسياً، فما دفعه إلى الشَّهادة هو قلةُ تجربته وخبرته في السِّياسة، فلوكان سياسياً محترفاً لخرج مِن العِراق إلى بلاد أخرى. فالسِّياسي العِملاق هو آية اللّه روح اللّه الخميني، وقد خدمته الظروف، وكان هو على استعدادٍ لاستغلالها والاستفادة منها.

أما محمد باقر الصَّدر فكان يُكرّر القول: أُريد أن أموت! فما هي فائدة موته، أو يقول: قرّرتُ الشَّهادة، وهذه سلبيةٌ بحدِّ ذاتها في العمل السِّياسي، فلا بدَّ من أن يكون لدى السِّياسي هدفٌ يحققه، واستفادة مِن الظَّرف. فلو كان خرج إلى خارج العِراق لربما سقط النظام، والسَّبب أنه بمقتله لم تبق قيادة في العمل الإسلامي، ولو خرج لالتفت الجموع حوله. وكان يتصوّر أنه لو ترك النَّجف أنها ستخرب، أو هو لم يقدر على العيش خارجها!

كتبتُ له، وأنا بمصر، موضحاً: إن النَّجف لها ربٌّ يحميها. وأنت لست أفضل مِن عبدالمطلب بن هاشم، جد الرَّسول، عندما اضطرته الظروف لأن يترك البيت الحرام، فقال: الكعبة لها ربٌّ

يحميها. فالمرجعية خرجت مِن النَّجف إلى مناطق عديدة، بسبب الظروف آنذاك، إلى سامراء والحلة ثم عادت إليها، فليس هناك ما يُخاف عليه.

كان لدى باقر الصَّدر مُقلدون ووكلاء وتُجمع له الحقوق الشَّرعية (الخُمس)، لكنه كان متقشفاً. أما الآن حتى ولده يفكّر تفكيراً آخر وهو لماذا عزم والده على الموت بهذه السُّهولة ولماذا الإصرار وكأن موته سيبني الدولة الإسلامية، وها نحن ننظر مَن استفاد مِن موته، ورفعه شعاراً مِن أجل سُلطته.

كنت أتغدى، قبل نحو العام، عند السَّيد جعفر محمد باقر الصَّدر ببيروت، وحضرت أخت جعفر العلوية نبوغ، قال لها جعفر: عمّكِ السَّيد طالب هنا! فقال لي: جماعة يريدون رؤيتك. فرأيتها تبكي وأنا بكيتُ معها. حتى طال بكاؤنا، على ما حلَّ بالعائلة بعد مقتله. حينها التفت جعفر نحوي قائلاً: «صاحبك (يعني والده) ما فَكّر بهذه وبأخواتها»؟! كذلك قُتلت عمتهم العلوية آمنة ومضت شهيدة ولم تتزوج.

في بدايات تعرفي بالأُسرة دخل السَّيد إسماعيل الصَّدر، شقيق باقر الأكبر، وقال لي: سيّد طالب البارحة مرَّ بي طيفٌ غريب! رأيت كأن الشِّرطة أتوا إلى البيت، وأخذوا أخي سيّد باقر، ومروا به في سُوق العمارة بالنَّجف، وكان النَّاس واقفين على الصُّوبين يتفرجون، وأنا أسير بعده، ورأيتك أنت بين المتفرجين والشَّيخ عبدالعال المظفر أيضاً (مِن خُلصاء الصَّدر).

قلت له: سيدنا إسماعيل، رؤياك غير صحيحة، بالنِّسبة إليّ هذا لا يمكن أن يحدث، فأنا أموت قبل محمد باقر. وسبحان اللّه صار ما صار عليه وأنا كنت بمصر وكيلاً للمرجعية الدِّينية هناك. فلما سمعتُ بخبر استشهاده أظلمَ عليَّ النَّهار، وطرحني الهمُّ في الفِراش لأسبوعين، ولا أدري ماذا أفعل. فبعثتُ إلى الأستاذ أحمد الحبوبي، وكان يعيش بالقاهرة أيضاً، وقلتُ له: لا بدَّ من أن نفعل شيئاً مع السَّفارة العِراقية بالقاهرة. فقال لي: لا نستطيع فعل شيء بمصر، إذا أردت اذهب وحدك! حينها كتبتُ قصيدة أتذكر منها البيتين الآتيين:

أيسكنُ جـرحٌ أم يطيب مقامُ

مِن بعـدكـم لا طابت الأَيـامُ

كنا نرى الحجّاج ولّى عهده

وإذا يُـطالـعـنـا به صَـدّامُ

كنت مسجىً على الفِراش، وبناتي يأتينَ لمواساتي، لقد تلقيتُ الخبر كالصَّاعقة، بل أراها أهون منه عليَّ.

العودة إلى العِراق

بعد قضية ناظم كزار، مدير الأمن العام الذي اتُهم بمحاولة انقلاب في حزيران(يونيو) 1973، عدتُ مِن القاهرة إلى بغداد، وكان هناك ملحق عسكري في السَّفارة العِراقية بالقاهرة اسمه خضير الغضبان، برتبة مقدم ركن، كان أخواله بيت كرماشة، وهم

عسكريون وأصدقاء، منهم: الضباط فرمان ونعمان آل كرماشة، فسألوه: هل التقيت بخالك السَّيد طالب الرِّفاعي؟

فقال: مع الأسف لم ألتق به! ولما عاد إلى مكان عمله في السَّفارة العِراقية بالقاهرة سأل أحد البعثيين، وكان كفيفاً، عني، فقال له: إنه معروف كالعَلم بمصر. حينها كنت أتردّدُ على مطعم بالقاهرة، يتردّدُ عليه العِراقيون، واسمه مطعم: المنظر الجميل، يقع في شارع عمر عبدالعزيز أفندي مقابل أورزدي باك. كنت أتردّدُ على المطعم باستمرار، ومِن يسأل عني يُقال له: تجده في المطعم الفلاني.

فلما دخلتُ شعر بي هذا الكفيف، فجلس إلى جانبي، فقال: هناك طلب مِن قِبل الملحق العسكري للّقاء بك. قلت: تقصد خضير الغضبان! قال: نعم. قلتُ: أهلاً به بشخصه خضير الغضبان، أما أن يزورني بصفته الرَّسمية، كملحق عسكري في سفارة صدّام حسين فلا أهلاً ولا مرحباً به. كان ذلك في العام 1973.

ولما بلّغه بما قُلت قال: سأزوره بصفتي الشَّخصية خضير وأخواله آل كرماشة، فحدّدّتُ له موعداً لاستقباله. صادف أن السَّيد محمد بحر العلوم كان موجوداً بالقاهرة، يُحضّر لرسالته الدكتوراه، فأخبرته، وكنت أبوح له بما عندي، وكان مِن المفروض أن أحرصَ على مثل هذه الأشياء، لذا أقول: أنا لا أصلحُ للسياسة، ليس جماعتي فقط غير صالحين، فإذا بقت عليَّ وعلى جماعتي ستحل الدَّواهي على الدَّولة.

فقال بحر العلوم: أحبُّ أن أحضر اللقاء، فعيّنت له الوقت، وقلت له: تدخل كأنك غير قاصد، كي لا يُفهم الأمر كأنه تواطؤٌ بيني وبينك. فأتى خضير في الموعد المحدّد لزيارتي، وحمل لي معه صُحفاً عِراقية، وأخذ يتحدث عن تأنيب أهله له لعدم زيارتي واللقاء بيَّ طوال وجوده بالقاهرة، وكان يدعوني بالخال. قبل أن يأتي بحر العلوم فتحتُ معه موضوعاً، وقلتُ له: أنت تسميني خالي، فصارت لي ميانة عليك! فقال: نعم. فقلت: ما الذي جاء بك إلى هذا الحزب -وأعني حزب البعث- فلا أهلك ولا أقرباؤك كانوا بعثيين؟

فأجابني جواباً لا يُرد. قال: هل لديك ما تقوله بعد ما قُلت في هذا الشَّأن؟ فقلت: لا. قال: نحن الشَّباب عندنا طموح، هل فكرتم بنا، أن تُحققوا شيئاً من مطامحنا؟ فهذا الحزب (حزب البعث) حقّقَ لي طموحي، وأنا ملحقٌ عسكري كما ترى، وأنا الآن فوق رأس السَّفير العِراقي نفسه، لأني عسكري وحزبي.

فاعترفت له قائلاً: كلامك صحيح، وكنت أقصد ما قُلت. ثم سألني: ما هي طلباتك؟ قلت: أن تصلني الصُّحف العِراقية. فقال: أهذا هو طلبك فقط؟ قلت: لو تقدر على مساعدتي في زيارة العِراق، فأنا منذ العام 1969 لم أزر العِراق.وكان الأهم عندي هو زيارة العتبات المقدسة، وأطّلع على أحوال السَّيد محمد باقر الصَّدر.

قال: لا أعطيك وعداً إلا بعد أن أُسافر إلى بغداد وبعد عودتي إلى القاهرة سيحصل خير، فأخشى أن يحصل لك شيء ما. سافر إلى العِراق وعاد، وزارني في اليوم الثَّاني بعد عودته،

بلا موعد ولا تلفون. ورأيت عليه السِّرور بادياً، وكانت قضية ناظم كزار قد قامت ببغداد.

كان أخو خضير، وهو حذيفة الغضبان، مدير أمن النَّجف، وأنا لي هناك ملفات مفتوحة في دائرة الأمن. ففي «حزب الدَّعوة» صدر قرار أنه يمكن الاعتراف على الذين هم يعيشون خارج العِراق للتخفيف مِن عذاب الذين يُلقى القبض عليهم في الدَّاخل، ولهذا ربَّما عليَّ أَطنان مِن الاعترافات.

قال خضير فسألت أخي حذيفة فقال: ليأت السَّيد، فكلُّ شيء جعلناه مِن مسؤولية ناظم كزار (مدير الأمن العام آنذاك)، الذي قام بالانقلاب وفشل. قال مدير أمن النَّجف: ليس لدينا شيء ضد السَّيد طالب لفترة ستة أشهر قادمة، وهي أمان بالنِّسبة إليه. وأردف غضبان قائلاً: لم أكتف بهذا، إنما زيادة في الاطمئنان زرتُ نائب رئيس مجلس قيادة الثَّورة، صدّام حسين، ولما فتحتُ معه موضوعك اهتم كثيراً به، وإنه قال: أنا أعرف السَّيد طالب فهو رافع رأس العِراق عالياً بمصر. لكن للأسف لا نعرفُ هل يقبل مساعدة منا أم لا!

قال الغضبان: قلت للسَّيد النَّائب ليس لدى السَّيد شيء يقتات به! فأعطاني هذا الشِّيك، وهو شيكٌ مفتوحٌ لك. فقلت لحظتها: الزِّيارة قبلتها، لكن الشِّيك لا يمكن قبوله. وكيف تقبل أنت أن تحمل لي شيكاً مثل هذا؟ هل تريد أن تبيعني لصدّام، وأنت تسميني خالي؟ فقلت: كم قيمة الشِّيك! فقال: أي رقم تسجله أنت، وهو مِن المصاريف الخاصة.

فتضايق الغضبان مِن ردي، وقال: لا أدري ماذا أقول للسَّيد النَّائب! قلت له: وجدت لك مخرجاً. قل له: إن السَّيد لا يفعل شيئاً إلا بالاستخارة، وأنه لا يجدُ في أخذ هذا الشِّيك مصلحةً بعد أن استخار! قلت ذلك مع أني كنت في أشد الحاجة، فربَّما لا يكون عندنا العشاء في بعض الأحيان. ذهب خضير الغضبان وحكى القصة لعباس كاشف الغطاء، فقال له: هذا هو سيّد طالب الرِّفاعي، فعمامته ليست كالعمائم الأُخر.

كنّا على مقربة مِن شهر شعبان، فقلت للغضبان أريد السَّفر قبل حلول شهر رمضان إلى العِراق، فوافقني، وحدّدتُ موعد السَّفر، وأخبرني أنه سيأتي هو وآخرون لتوديعي في مطار القاهرة. وقبل موعد السَّفر قلت في نفسي أذهبُ لتوديع السَّيد حميد الحصونة، وذهبت إلى بيته، وأبلغته أني على سفرٍ إلى بغداد وجئت لتوديعك.

فما كان منه إلا أن صاح بعد أن أدخلني، على زوجته: أمّ أياد أقفلي الباب، وأعطني المفتاح. والتفت نحوي: تريدُ الذِّهابَ إلى العِراق أنت مجنونٌ! تتغدى معنا. كان باب الدَّار مقفولاً، وحميد الحصونة عسكري لا يمكنُ التفاهم معه، فماذا أفعل؟ وكان يعرف موعد إقلاع الطَّائرة، فبعد أن حان موعدها، قام وفتح الباب، وقال: إذهب إلى أينما تريد الآن.

أما الملحق العسكري فكان ينتظرُ في المطار وبيده تذكرة السَّفر، التي قطعها لي مِن الخطوط الجوية العِراقية، وكان الاتفاقُ

أن يسلمها لي في المطار. وطوال فترة الانتظار كان يتصل بالدار، وهم بدورهم لا يعلمون أين أكون! بعدها عُدت إلى الدَّار فوجدت الدنيا مقلوبةً عليَّ. فذهبت إلى خضير الغضبان، ولما سألني عما حصل، صارحته بالحقيقة، بأن حميد الحصونة حبسني في داره. فقال: هل أنت مصمِّمٌ على السَّفر؟! قلت: نعم. فرتّب لي تذكرةَ سفرٍ جديدة، وكان الطَّائرة مزدحمة، لكن هناك امرأة كانت حاجزة لها ولطفلها مقعدين، فجلستُ أنا مكان الطِّفل، وكان الخبر عند المخابرات المصرية أني ذهبتُ إلى أداء العُمرة.

أخيراً، سافرت إلى العِراق، وأعطاني خضير تلفونات السَّيد النَّائب، مثلما كان هو يعبّر عن صدّام حسين. قائلاً: إن السَّيد النَّائب يقول: إذا جاء السَّيد طالب يأتي ويدفع الباب برجله ويدخل عليَّ، ولا يحتاج المرور عبر السكرتير! وقال: ستأتي لك سيارة وإن حقائبك لا تُفتش. وبالفعل عندما وصلتُ لم تفتش حقائبي. وصاحوا: أين سيارة السَّيد، وحضرت سيارة لموزين مِن سيارات الرَّئاسة، وأرادوا التَّمويه عليَّ حتى لا أعرف أنها تابعة للرَّئاسة. فسألني السَّائق: إلى أين تريد الذِّهاب؟ قلت: إلى علاوي الحِلة، كي آخذ سيارة إلى كربلاء لغرض زيارة العتبات.

وصلت إلى كربلاء، وتركت حقائبي عند السَّيد حسين الشَّامي، وهو كربلائي صاحب دكان وكان يعتمر كشيدة خضراء. وبعد الفراغ مِن الزِّيارة نزلتُ عند سعيد زيني، وقد وصل خبر عودتي إلى السَّيد محمد باقر الصَّدر، فاعتقد أنني سأنزلُ عنده،

فأتى السَّيد عبدالكريم القزويني، ووجدني عند علي زيني، فقال: سأنزل معك فأخذته معي حيث كنت نازلاً.

قال لي: إن السَّيد باقر يقول: إنك تنزل عنده بالنَّجف، وقد خبّر تلاميذه وجماعته بذلك. فقلت:عندما أذهب إلى النَّجف لا أنزلُ عند السَّيد باقر. فرأيته قد تعجب مِن ردي هذا، إلا أني برّرْتُ له ما قررته، قائلاً: ليس هناك بيني وبين السَّيد باقر عهد بأني سأنزل عنده، وأنا حرٌّ أين ما أنزل. فكيف أنزلُ عنده ودارُه مراقبة، وأنا عليَّ مشاكل كثيرة، إذا صار شيءٌ عليه لا سمح الله سيُقال: أتى السَّيد طالب وفعل كذا وكذا.

فسألني القزويني أين تنوي النُّزول؟ قلت: عند أُستاذي محمد تقي الحكيم. وكان عضو المجمع العلمي العِراقي وأستاذ في كلية الفقه بالنَّجف، ولا شأن له في السِّياسة. إثرها زعل مني السَّيد محمد باقر زعلاً شديداً، وأخذ الإخوان يتقاطرون عليَّ للترحيب بي، فآل الحكيم كلّهم حضروا ما عدا السَّيد يوسف الحكيم ومحمد رضا الحكيم، أما الباقون فأتوا كافة.

في اليوم الثَّاني، على وجودي بالنَّجف، أتى طُلاب السَّيد باقر، ومنهم السَّيد محمود الشَّاهرودي أو الهاشمي، الذي صار رئيساً للسُّلطة القضائية بإيران في ما بعد، والسَّيد كاظم الحائري وغيرهما. كان الشَّاهرودي يجلسُ قبالتي، ورأيته كلّما التَفتُّ نحوه، والتقت عيني بعينه، يعضُّ أصبعه وينظر إليّ. فلما خرج الزُّوار

سألته عمَّا كان يفعل! فقال: هكذا تخذلُ السَّيد باقر، وتنزلُ عند عدوّه، ويعني السَّيد محمد تقي الحكيم! ولستُ أعلم، حتى اليوم، كيف يكون تقي الحكيم عدواً لباقر الصَّدر. للأسف خرج هذا الكلام اللامسؤول مِن رجل صار في ما بعد، مثلما تقدم، رئيساً للسُّلطة القضائية بإيران، يعني يمثل العدالة العُليا في الدولة الإسلامية الإيرانية!

بعدها بيوم ذهبتُ إلى زيارة محمد باقر الصَّدر، وما كنت أهتدي إلى داره بسهولة، فقد تغيّرت أشياء كثيرة، خلال الأربع سنوات التي قضيتها بمصر. دخلتُ ووجدتُ مجموعة مِن طُلابه غير البارزين معه، ووجدتُ مضمداً يزرقه إبرةً طبيّة. فلما سلّمتُ عليه أعرضَ عني، ولما انتهى المضمد مِن زرق الإبرة، التفت نحوي وقال: لماذا أتيت! فقلتُ: وما العجب في مجيئي! وردَّ عليَّ غاضباً ولم أرد عليه، واستوعبتُ غضبه، وليس مِن عادتي أن لا أرد في مثل هذه المواقف. فلما تهيّأت للنهوض والخروج ضغط على يدي وقال: إلى أين ذاهب؟ فقلت: أريد الذِّهاب! ألم تستقبلني بقولك: ما الذي جاء بك؟ قال: لا، لا تذهب، تبقَ تتغدى.

نزلنا إلى السِّرداب لتناول الغداء، ونزل طُلابه معنا أيضاً. ولما انتهينا عزمت على الخروج إلا أنّه أصرَّ على بقائي، قائلاً: تسترحْ هنا، أي قيلولة الظهيرة، فصاح على خادمه: مشتي مشتي (أي مشهدي مشهدي) آتِ بالفِراش. إلا أنني لم أستطع النَّوم، فآل محمد تقي الحكيم ينتظرونني ولا يعرفون أين أنا، فعندما

خرجت من دارهم لم أخبرهم بنيّتي زيارة محمد باقر الصَّدر. كذلك كنت متألماً جداً، فما كنتُ أتوقّع مِن محمد باقر الصَّدر أن يقابلني بمثل هذا الأُسلوب، وأنا قادمٌ إليه بعد فِراق أربع سنوات بأيامها ولياليها.

طلبتُ مِن خادمه أن يأتيني بكاغد (القرطاس) وقلم، فكتبتُ رسالةً غاضبة، سكبتُ فيها ألمي منه وجام غضبي عليه، حتى تجرأتُ وقلتُ له: أنت لستَ بهذا المستوى مِن الطاغوتية فما أنت بالمرجع الكبير، إنما أنت مجرد مُرَيجع (مرجع صغير). كنتُ غاضباً وثائراً في رسالتي. ثم طلبتُ مِن مشتي أو مشهدي تسليم الرِّسالة لباقر الصَّدر. فعلمتُ أن الرِّسالة وصلت إلى يد شقيقته العلوية آمنة بنت الهدى وتألمت منها، وقرأها الصَّدر وتألّم بدوره على ما فعله معي، وظلت الجفوةُ بيني وبينه قائمة.

في ذلك الوقت تبناني آل الخوئي، كوني كنت وكيلاً لمرجعية السَّيد أبي القاسم الخوئي بمصر وعالم الشِّيعة هناك، بعد وفاة السَّيد محسن الحكيم، وكنت أتغدى مع السَّيد جمال الخوئي، نجل المرجع، وأُجالس المرجع نفسه على بساطٍ واحد. وفي يوم مِن الأيام خرجنا أنا وجمال الخوئي، وقال لي: هناك مجلس فاتحة فلنذهب معاً إليها، وفي طريقنا صادفنا باقر الصَّدر في الصَّحن الحيدري، وكانت هناك فتورة بين الصَّدر وجمال الخوئي، فتركت الأخير الذي أخذ عباءتي وتوجهت إلى الصَّدر فاستقبلني وكان يضحك. لكن المياهَ لم تعد إلى مجاريها بيننا بعد.

في تلك الآونة أستأجرتُ بيتاً بالكوفة مِن كليدار (سادن) مرقد مسلم بن عقيل، وذهبتُ للصَّلاةِ في مسجد الكوفة، وبعد الصَّلاة رأيت سيارةً كبيرةً واقفةً عند باب البيت، دخلت وإذا أُمّ الأولاد تقول لي: انزل إلى السِّرداب، فستجده مملوءاً بالعمائم. فسألت مَن هم، قالت: السَّيد باقر الصَّدر ومَن معه، كان بينهم تلاميذه: كاظم الحائري ومحمود الشاهرودي، فسلّمتُ عليهم وضحك الصَّدر، وكان الوقت رمضان، سلّموا وخرجوا، ولم يخسّروننا شيئاً لا طعام ولا شراب.

بقيت أفكرُ في هذه الزِّيارة المفاجئة، وقلت في نفسي: إن باقر الصَّدر قد أتى فلا داعي للفتور معه. مرَّ يومان، وذهبت إليه والسُّرور يغمرني، فنهض لاستقبالي وأجلسني على بساطه، وهي إشارةٌ إلى التَّرحيب والتَّقدير والرِّضا، وأخذ يمازحُني بين حين وآخر، قائلاً: أصبحت عالم الشِّيعة بمصر! ونضحك. ثم قال: الشَّيخ يسأل عنك! سألته: مَن تعني بالشَّيخ. فقال: بعد أنت نسيت الشَّيخ! فقال: الشَّيخ خالي! ويعني مرتضى آل ياسين (ت 1977). فقلت: واللّه له كلُّ الحق عليَّ، وأشعرُ بالتقصير تجاهه. فقررت زيارته في اليوم الثَّاني. ثم قال مازحاً: منه مرتضى آل ياسين، سيّد طالب إمام الشِّيعة بمصر!

ذهبتُ إلى الكاظمية ببغداد للسَّلام على الشَّيخ مرتضى آل ياسين، ولما عدت إلى الكوفة لم أجد زوجتي أمّ عقيل في الدَّار، فقالوا لي: إن والدها قد توفى وذهبت إلى الشَّطرة. وقالوا أيضاً:

إن السَّيد الصَّدر أراد الذِّهاب إلى هناك للتَّعزية، لكنه اكتفى بإرسال برقية بعد أن عَلم أنني غير موجود بالشَّطرة. جاءني السَّيد عبدالكريم القزويني يخبرُني أن السَّيد الصَّدر يريد زيارتك ليعزيك، لكنه خائفٌ منك! وما إن أقبل عليَّ الصَّدر حتى قبّل يدي وقبّلت يده وبكينا معاً، وتحدّثنا طويلاً. كنتُ أنا المروّج لمرجعية محمد باقر الصَّدر، فهو لا يستغني عني في حالٍ مِن الأحوال.

يمكن استخدام صدّام

أتذكر أني أخبرت محمد باقر الصَّدر بما نقله ليَّ الملحق العسكري العِراقي بالقاهرة خضير الغضبان، بأن صدّام حسين عرف بقدومي إلى العِراق، فأمر أن تُعطى لي أرقام تلفوناته، وإنه أوصى أن أدخل عليه متى شئت. إلا أن موقف الصَّدر قد فاجأني عندما قال لي: لماذا لا تذهب إليه! فقلتُ له: وماذا أفعل به؟ قال: نقضي أشغال كثيرة بواسطة هذه العِلاقة! فأجبته: إذا صار الأمر معكوساً ستقولون سيّد طالب عَملها! لا لم أذهب إلى صدام. عموماً، كان السَّيد باقر قليل الحِيلة السِّياسية، فقد وجدتُ في تصرفه هذا تناقضاً. كيف يُعادي صداماً وكيف يقبل التَّعامل معه!

اللقاء الأخير

أخبرني السَّيد محمد باقر الحكيم، الذي دعاني والصَّدر وطلابه، أن الصَّدر يريد رؤيتي غداً وحدي، وقد أخذت والدة السَّيد باقر خبراً بالجفوة التي بيننا، فلما ذهبت إلى الصَّدر

وعرفت بوجودي صاحت: ولدي سيّد طالب باقر أخوك. ثم صاحت: باقر سيّد طالب ولدي وإن لم ينزل مِن بطني. عندها شكا لي مِن تصرّف السيد عبدالرَّزاق الحبوبي، محافظ كربلاء معه، وأنه يزور المراجع ولم يخصه بزيارة! فقلت له: سيأتيك وهو الممتن منك. وبالفعل اتصلت بالحبوبي، وكان يُكّنى بأبي آلاء، وسألته عن غدائه ذاك اليوم، للميانة التي بيننا، فقال: تعال إلى الدَّائرة ونذهب معاً إلى البيت. أثرتُ ألا اشغله في الدَّائرة، فسبقته إلى بيته.

عاتبتُ المحافظ لاعتقال كاظم القزويني لأنه كان يرسل كتب شيعية إلى الخارج، فوعدني أن يُطلق سِراحه غداً، وبالفعل أُطلق سراحه. ثم أخذت أنوّه له عما تصرف به مع محمد باقر الصَّدر وما هي علاقته بي. وقلتُ: لماذا لا تزور الصَّدر بينما تحرص على زيارة الآخرين. فقال: سنذهب غداً معاً لزيارته. فاقترحت عليه أن يزوره وحده، فإذا ذهبتُ معه سيُقال أن سيّد طالب أتى به. كان المحافظ طيب السَّريرة معي، فما إن رآني في مرة مِن المرات قُرب مرقد العباس بكربلاء أخذ يدي وقبّلها وهو المحافظ، وقد فعل فعله مدير شرطة كربلاء وآخرون كانوا معه.

بعدها ذهبتُ إلى دار باقر الصَّدر، وهناك وجدت السَّيد محمد رضا النُّعماني[1]، فقلت له سأتيك غداً، كي يكون الحديث بيننا فقط، فقال مازحاً: ماذا عندك معي هل مِن شتائم وعتب

(1) بحسب كتابه أن ظل بصحبة محمد باقر الصدر، وهاجر إلى إيران، وهناك صدر كتابه: الشَّهيد الصَّدر سنوات المحنة وأيام الحصار، مدينة قُم 1996.

وغيره! فقلتُ: لا. لدي خبرٌ أُريد أن أُخبرك به. أقصد ما جرى بيني وبين محافظ كربلاء مِن حديث.

كان ذلك آخر عهداً لي بالسَّيد محمد باقر الصَّدر، فقد قُتل في نيسان (أبريل) 1980. عُدت مِن العِراق إلى مصر، وكانت تلك آخر رِحلة لي إلى العِراق في عهد النِّظام السَّابق. أما أمّ الأولاد فعادت مع الأولاد وقُتلوا هناك. قتل نظام صدّام ثلاثة أولاد لي، إثر انتفاضة العام 1991.

هناك نحو أربعين رسالةً بيني وبين الصَّدر، منها مازلت محتفظاً، وهو القليل جداً، ومنها ما ضاع مني لسبب مِن الأسباب، ومِن رسائله كان بعد صدور كتابه الفتاوى الواضحة مِن مصر، وكانت مؤرخة في 13 حزيران (يونيو) 1977 المصادف 25 جمادي الثَّانية 1397 هـ، وهذا نص واحدة منها:

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

سماحة العلامة الجليل السَّيد طالب الرِّفاعي متعنا الله تعالى بوجوده الشَّريف

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

قبل فترة مِن الزَّمن تسلمت رسالتكم الكريمة وقرأتها بعيني وقلبي معاً، ونقلتني بما تحتل مِن أروع المشاعر، وأنبل العواطف إلى أيام مضت وليالٍ خلت وذكريات ما تزال في العميق مِن وجداني ونفسي. فسأل المولى سبحانه وتعالى أن يتقبل منك هذه المشاعر بأفضل ما يتقبل مِن عباده الصَّالحين ويقرَّ عيني بكم ولا يحرمني مِن صالح أدعيتكم، كما أني لا أنساكم مِن الدُّعاء كلما دعوت لنفسي وللخُلَّص مِن أهلي وأحبتي.

أخرت الجواب على الرِّسالة إلى أن أتسلم الطَّبعة الثَّالثة مِن دار الكتاب المصري لأخبركم بذلك ضمناً، وقد أرسلت إلينا نسخة مِن هذه الطَّبعة في إخراج أنيق، و ورق جيد، ونفحات علَّوية ونجدية (إشارة إلى مقدمة الدُّكتور المصري على النَّجدي ناصف)، وأنفاس طالبية (نسبة لطالب الرِّفاعي)، فجراكم الله عن فقه أجدادكم الطَّاهرين مِن أهل البيت خير جزاء المحسنين.

وإن سألت عن حالي وصحتي فصحتي أصبحت صحة شيخ كبير السِّن تقريباً، ولكني على الرُّغم مِن ذلك أحاول أن أُقاوم

الشَّيخوخة التي دبت في كياني، وأخذت منِّي مأخذاً كبيراً، فقد أنجزت الجزء الرَّابع مِن بحوث في شرح العروة الوثقى، كما أنجزت الإشراف على المجلد الثَّاني مِن تقريراتنا في الأُصول بقلم السَّيد الهاشمي، وسنرسل إليكم منه نسخةً. وكذلك أنجزت كتابة الحلقة الأُولى والحلقة الثَّانية من الحلقات الدِّراسية الثَّلاث في عِلم الأُصول لتعوض عن الكُتب الدِّراسية التَّقليدية، وبدأتُ بكتابة الحلقة الثَّالثة، وستُقدم جميعاً إلى الطَّبع عند الفراغ مِن الحلقة الثَّالثة إن شاء الله تعالى.

أرجو أن تبلغوا جناب الدُّكتور النَّجدي احترامي وتقديري مع السَّلام الوافر، وكذلك الأستاذ الجليل السَّيد الحسني (كان وكيل وزارة) حفظه الله تعالى ورعاه بعينه التي لا تنام.

قد كتبنا إلى الأستاذ الزَّين (حسن صاحب دار الكتاب اللبناني المصري) رسالةً كلفناه فيها بأن يرسل على حسابنا إلى سماحتكم أربعمائة نسخة مِن الفتاوى الواضحة، فإذا وصلت الكمية إليكم فالرَّجاء التَّفضل بإعلامنا بذلك، وتبقى تحت تصرفكم للإهداء والتوزيع ونحو ذلك حسبما ترون المصلحة.

هذا والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الصَّدر

5 جمادي الثَّانية 1397

كنت بالكويت وأبرقت برقية إلى الصَّدر، ولما لم يرد جواب منه كتبت له رسالةً غضبى، ذكرت فيها مِن انطباعاتي السِّلبية تجاهه، وأردفتها برسالة أخرى مِن القاهرة، فوصلني هذا الجواب الرقيق منه والمؤرخ في 23 جمادي الثَّانية 1396، المصادف 22 حزيران 1976:

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

سماحة العلامة الجليل السَّيد طالب الرِّفاعي دامت بركاته

السَّلام عليكم زنة تقديرنا ودعائنا لكم بمزيد التَّسديد والتَّأييد ورحمة الله وبركاته

لئن كانت الرِّسالة الوديعة بحاجة إلى جواب واحد، فرسالتك الغضبى بحاجة إلى جوابين، ولئن كان وأشم مِن لحن التَّعبير ولغة الرِّسالة مدى عمق هذا الغضب، وأكاد أمس في السُّطور الكريمة هياج النَّفس الكريمة حينما يعتدي على كرامتها شخص مِن أمثالي.

أقول لئن عِشت المرارة وأنا اقرأ رسالتك الغضبى فقد عُشت مِن ناحية أُخرى صورتك الرَّائعة في قلبي، التي غطت على الصُّورة التي أعطتها الرِّسالة وذكرياتك النَّاصعة في نفسي التي نسخت، رغم تقدمها الزَّمني، انطباعاتي على الرِّسالة، وهكذا بقيت وستظل في نفسي ذلك الإنسان المُشع بآيات الوفاء والحُب والأخوة والإخلاص والإيثار.

وعلى أي حال فقد ساقتني رسالتك الغضبى إلى أن أسبق سفر الشَّيخ محمد نمر فكتبت جوابها وأرسلته في البريد، وهذه الرِّسالة الرَّابعة التي أكتبها إليك لتصل مع الشَّيخ.

وإني أبتهلُ إلى المولى سبحانه وتعالى أن يوفقني ويصونني مِن أن أسبِّب لكم إزعاجاً في المستقبل أو أن أصبح مثاراً لغضب سماحتكم، كما أرجو أن تطمئنُّوا إلى حبِّي العميق الذي لا يتزعزع.

كان اللّه معك وأنزل سكينته عليكم والسَّلام.

الصَّدر

23 جمادي الثَّانية 1396

الفصل التَّاسع

عاشوراء ماذا يُراد له

سألتُه عن عاشوراء وما يحدث فيه، وعلى وجه الخصوص بالعِراق اليوم، وعن محاولات إصلاحه تأدية مراسمها، أو ما يُعبّر عنه بالشِّعائر، تلك المسيرة الإصلاحية التي بدأها السَّيد محسن الأمين (ت 1952)، والسَّيد أبو الحسن الأصفهاني (ت 1946)، والسَّيد هبة الدِّين الشهرستاني (ت 1967)، وما كتبه آية الله مرتضى مطهري (اغتيل 1979) في كتابه «الملحمة الحسينية». كيف يفكر طالب الرِّفاعي في تأدية هذا الطَّقس؟! ولماذا تحجم المراجع عن قول كلمة فاصلة فيه، وكيف يُستغل في السِّياسة؟!

كعادته لا بدَّ مِن أن يبدأ من نقطة الصفر، كي ينطلق تدريجياً، فتحدّث عن محاولات إصلاح المنبر الحسيني، وعن أهم الخطباء، والصِّراعات التي سمع بها، والتي شهدها بين المواكب، وكيف استغلٍ عاشوراء مِن كل الأطراف السِّياسية، إسلامية أو غير إسلامية، مبرأ رئيس الوزراء الأسبق نوري السَّعيد مِن استغلاله، لذا لم يتمكن مِن احتواء قلوب البسطاء. سألته هل: جرّبت القراءة على المنبر الحسيني، أو نظمت موكباً؟

قال: هذا ما لا أتدرّب أو أتمرن عليه، ولم يغوِني في يوم مِن الأيام. سألني: «هل لديك وقت كاف، أو ما يكفي مِن الأشرطة»؟ قلت: تبدّلت المسجلات، وما بيديَّ لا يعتمد على الأشرطة إنما الشرائح، وهو يكفي لتسجيل خمسمائة ساعة، فتكلم ما شئت مِن الوقت وبما شئت مِن الكلام.

قال: إن عاشوراء، بالنِّسبة إليّ، مِن مكوّناتي الأُولى، وهي تربطني بحبلٍ متينٍ ببيت الطَّاهرين، صلوات الله عليهم، وكانت هذه عشرة الأيام، بما فيها مما يُقال إيجاباً وسلباً على أفواه الخطباء والممارسات، كنت أستوحشها، كأني أستوحش أعزَّ عزيزي على روحي. فأنا عاشوري المنشأ، وعاشوري التَّكوين، وعاشوري الولاء، ولولا عاشوراء لكنت الآن شخصاً آخر. لا أدري ما سأكون؟

ربَّما كنتُ شيوعياً مثلاً! فأنا انجذبت لذلك الفكر بدافع الرَّغبة في تطبيق العَدالة الاجتماعية! ويمكن أن أكون بعثياً أو قومياً، فثلة مِن معارفي كانوا كذلك، وفي الصِّراع الحاد مع الفكر الشِّيوعي وممارسات الشِّيوعيين، وقفت إلى الصَّف القومي، لكن على سبيل: عدو عدوّك صديقك. أو أن أكون مِن شُذّاذ الفكر، وأنتمي إلى مَن لا يمثلون الإسلام بشيء.

كان عمري أربع سنوات وأنا مِن البكّائين على الإمام الحسين، كنت أجلس مع أمي، والنِّساء كنَّ يجلسنَ خلف الرِّجال في عزاء آل السُّوز بمدينة الرِّفاعي. كنت أجلِس مع النِّساء في ذلك العِمر، وأسمع ما جرى على الحسين وأُسرته. كنتُ أبكي بحرقة مَع البكّائين، فبمجرد أن أُشاهد هلال محرّم أو عاشوراء أتمثّل في البيت التَّالي، مع مَن يتمثلون به مِن الكبار: «عسى لا طب (دخل) شهر عاشور.. ولا هلّ بالسِّما (السَّماء) هلاله.. بس يطلع عيوني اتصب وتظل همالة». وكنا نحفظ ما كان يقوله السَّيد

المجتهد محسن الأمين في عاشوراء باللِّسان الفصيح، وهو بيت مِن قصائده الحُسينية:

هذا المُحرّمُ قد أطلّ هلاله   شهرٌ به وتر النَّبي وآله

نشأتُ على عاشوراء مثلما نشأ أقراني، لكني كُنت أتميّزُ عنهم كوني مِن البكّائين. كان يقف بعض الرِّجال القُساة في المجالس ليمنعوا الأطفال مِن الدُّخول، أو المشاركة، إلا أنني كنت مُستثنًى مِن هذا الإجراء، وما إن يروني حتى يقول قائلُهم: هذا السَّيد مؤدّب ويبكي على الحُسين، فيسمحون لي بالجلوس أمام منبر القارئ، وما إن يقول القارئ: صلّى الله عليك يا أبا عبدالله! تأخذني نوبةٌ مِن البكاء[1]، فهذه صاغت عاطفتي، وأعطتني زخماً في علاقتي الحُسينية.

علاقتي بالحسين

أما علاقتي بالحسين، كمقام ومرقد، فالحديث يطولُ فيها، فأنا ما إن تحلّ زيارة الأربعين إلاّ وتهيأتُ للذهاب إلى كربلاء، بدأت هذه العادة منذ العام 1360 هـ، أي في الأربعينيات ميلادية. فإذا قال والدي: في هذه السَّنة لا تذهب أنت إلى كربلاء، يذهب أخوك صالح! يأخذني الغمُّ ويسكنني الحزن، وأرى لو أطلق عليَّ رصاصةً أهون عليَّ مِن منعي عن زيارة الحُسين في تلك السَّنة.

---

(1) بكى بالفعل ونحن نسجل الحديث.

كنت أُضرب عن الطَّعام، وأحبس نفسي في زاوية مِن زوايا الدَّار وآخذ بالبكاء، فتتدخل النِّساء، مِن قريباتنا، حينها لدى والدي، ويلتمسنه بأن هذا الطِّفل سيموت إذا لم تعده بأخذه إلى كربلاء! فكانوا يشفقون عليَّ حتى يقول الوالد: لا تخاف سآخذك. عندها أكفُّ عن البكاء.

بعد أن بلغت ما بلغته مِن العمر والثَّقافة ظلّت صلتي الولائية بالحسين هي هي، لكن نظرتي اختلفت عما كنت عليه في الصِّبا، فصرتُ أشعر بوجود الغلو والتَّطرف في طقوس عاشوراء. فلما قرأتُ للسَّيد المصلح محسن الأمين، في محاولته لتشذيب ما علق بعاشوراء مِن ممارسات، في كتابه «التَّنزيه»، ملتُ إليه، وأخذت أشجب تلك الممارسات، التي تُسيء للحُسين وذكراه. لكني لم أكن مع الأمين كليةً، لأنه كان يعيش ظروف غير ظروف العِراق، فهو كان يعيش بالشَّام بلد الأمويين، حيث دمشق عاصمتهم التَّاريخية. فقطعاً أن تلك الممارسات كانت موضوع انتقاد بدمشق أكثر منها بالنَّجف مثلاً.

الفاجعة بما يحصل

بعد أن ظهرت الفضائيات، وأخذت تعرضُ تلك المشاهدَ غير اللائقة في عاشوراء، أخذنا نتحسس منها. فأخذتُ أنظر إلى تلك المشاهد بتقزّز، مِن اللَّطم والتَّسوط بالزَّناجيل والتَّطبير بالقامات، أنظر إليها وأقول لنفسي: ماذا تعكس لنا هذه المشاهد

كشيعة سوى وصمنا بالتخلّف والرّجوع إلى الوراء، وبالبعد عن أهداف الحُسين وأهل بيته عموماً، وما أرادوا زرعه في نفوسنا.

لا أرى ملامةً على مَن قال، ولعلَّ غيري سمع هذه الكلمة: «أعطي الشِّيعة اللَّطم وأعطونا الحُكم». أعتبره وصمةً استخلصها قائلُها مِن تلك الممارسات. فحالياً زيارة الأربعين (العشرين مِن صفر مِن كلِّ عام)، تبلغ ثمانية ملايين زائر، وبعضهم يقول بلغت اثني عشر مليون زائر، بمعنى العِراق كافة، فإذا استثنينا الطِّفل والرَّضيع يصبح العِراق بكربلاء كافة.

لنفترض القبول بتلك الممارسات، لكن ما معنى المشي مِن البصرة والعمارة وغيرهما مِن المدن الجنوبية إلى كربلاء؟ أليس هو تعطيل لعمل الدَّولة ودوائرها، وشلّ حركة الاقتصاد والاستثمار وتعطيل عُمران البلاد، فآل البيت لم يطلبوا شيئاً مِن هذا، مع أن كربلاء يجب أن تكون رمزاً للتقدّمية ورمزاً للحرية والمعاني الإنسانية العظيمة. فما هي فائدة أن يأتي أهل البصرة مشياً على الأقدام إلى كربلاء، ويقضون الأسابيع فيها، وهم معطلون عن العمل، ودوائرهم بالتَّأكيد معطلة.

يأتون نساءً ورجالاً، فلو أن الأئمة أحياء، في هذا الزَّمان، لشجبوا ما يحدث، بل لحرّموه، فعلى الرَّغم مِن أن زيارة الأربعين زيارة مباركة إلا أن هذه الممارسات حرّفتها عن القصد منها. فكم مِن ماشٍ ليست غايته زيارة ضريح الحسين، وإنما هناك

أغراضٌ شخصية قبيحة، لهذا يجب على علماء الدِّين ومفكرينا مِن الإصلاحيين الالتفات إلى هذه النَّاحية، وأن يضعوا نواةً للتغيير تدريجياً. فمثلما وصل الحال بزيارة الحسين إلى هذا الإفراط والإسفاف لا بدَّ مِن وضع حدٍ لوقف هذا التَّردي.

أروي قصةً حصلت مع الشَّيخ أحمد الأميني، صاحب كتاب «الغدير»: إنه كان سائراً بكربلاء وينظر إلى المواكب، ومنها مواكب المطبّرين، وكانوا يضعون أمام موكبهم فرساً وتشابيهَ لحادثة اللطَّف وقصة مقتل الحسين، وحينها سأله أحدُهم: شيخنا إن ما وراء الفرس مقبول، لكن ما معنى الفرس نفسه، ما هو محلّه مِن موكب العزاء، ما هو محله مِن الإعراب في جملتها؟ أجاب قائلاً: لها محل، وهو حتى إشكالك (مسألتك) الفقهي يصير على الفرس على الموكب. ويعني أنه إذا كان الفرس غير موجود فيتحول الإشكال إلى ما بعدها، أي سيُشكل على اللَّطم والتوسط والتَّطبير وغيرها مِن الممارسات، والحر تكفيه الإشارة.

مواكب الجامعات

كانت البداية وضعت مِن قبل، في ظل النِّظام السَّابق، فقد أسسنا المواكب الجامعية الحسينية لتشذيب تلك الممارسات. فلو استمرّت مواكبُ الجامعات، ولم تُمنع ولم توضع العراقيل أمامها كان يمكن خلال الأربعين عاماً الماضية أن تتبدّل أمورٌ كثيرة في عاشوراء، وكنا قد طرحنا مثل هذا الموضوع قبل أكثر مِن خمسة وأربعين عاماً.

كنا أنا والسَّيد محمد باقر الصَّدر كثيراً ما نتباحث في مثل هذا الأمر. قلت له: ما هو رأيُك في محاولة تغيير ما يحدث في عاشوراء؟ قال: علينا التَّفكير في البديل. وكان البديل هو موكب الجامعات، يأتي الطلبة إلى كربلاء، ويشكّلون موكباً يمتدُّ مِن الحضرة العباسية إلى الحضرة الحُسينية، ويأتون مِن الجامعات الثلاث: بغداد والموصل والبصرة. كان ذلك في أواخر السِّتينيات، ولعلَّ البداية كانت في العام 1967.

كان وراء تنظيم ذلك الموكب «حزب الدَّعوة»، وداوود العطّار، وهو مِن جماعة الدَّعوة المخلصين، يتصدرها. ليس فيها مِن الممارسات المتخلّفة، التي نراها مِن اللطم والتسوّط والتَّطبير شيء على الإطلاق، كانت مستهلات حسينية هادفة فقط. ثم بعد موكب الجامعات يأتي تقليد موكب العلماء، وكنت أنا مشاركاً فيه، والسَّيد محمد تقي الحكيم، ويشارك فيه عادة نحو مئة وخمسين عالماً دينياً، عمائم سود وبيض، نسير وراء موكب الجامعات، وبعده يأتي موكب النَّجف، وكان الأخير موكباً مهيباً جداً، لا يُمارسُ فيه إلا المقبول والمعقول.

مقتل دعبول

كانت تجري بين المواكب الحسينية معارك، والنَّاس يتعصّبون بعضهم ضد البعض الآخر. أنقلُ مثلاً ما جرى بين أهل الكاظمية وأهل النَّجف بكربلاء، في إحدى زيارات الأربعين، ولعله

العام 1928 أو الثَّلاثين مِن القرن الماضي، وكان علي الوردي (ت 1995) صغيراً، وقال لي: إنه كان حاضراً فيها مع موكب الكاظمية.

كانت المعارك تجري بسبب الاحتكاك بين المواكب بكربلاء، حتى إن قضية الحسين تُنسى في أذهان المشاركين، ويأخذ النَّاس يتشاجرون في ما بينهم، ويختلفون حول أيّ موكب يكون في الأمام، وإذا ما تجاوز موكبٌ موكباً آخر حصلت معركة لا تُحمدُ عقباها، فالقضية بالأساس ليست تديّناً إنما هي استعراضُ مواكب، على مستوى المحلات أو المدن أو العشائر وحتى المهن. فرئاسة الموكب أصبحت جاهاً اجتماعياً، مثلما هو الحال في الوقت الحاضر. وأنا شهدتُ العديد مِن هذه المعارك.

في صِدام بين موكب مدينة النَّجف وموكب الكاظمية قُتلَ شخصٌ يدعى دعبول، وهو مِن أهل النَّجف، وفي تلك المعركة سيطر أهلُ الكاظمية على أهل النَّجف بكربلاء، وقام النَّجفيون يردّدون نكاية بقتلة دعبول، أي موكب الكاظمية، فقد كان الأخير منتشياً بانتصاره فدخلوا إلى مرقد العباس بن علي بكربلاء يقولون: «يشهد علينا العباس ما ظل مشهدي بالصحن... إحنا القتلنا دعبول وظلَّن خواته يعَيطّن»[1]! ويقصدون بالمشهدي النَّجفي، نسبة إلى مشهد علي بن أبي طالب.

لما سمع النَّجفيون، أو موكب النَّجف المشارك في زيارة

(1) يصرخنَ.

الأربعين، ردّوا على موكب الكاظمية قائلين: «لا تبجين يم (أم) دعبول كلّ أصبع أمجانه أربعة»[1]، بمعنى أنهم سيقتلون أربعين كاظمياً، فعدد أصابع أيدي الإنسان عشرة وتضرب في أربعة، هذا إذا ما كانوا يقصدون أصابع كل الأطراف! وعلى هذا المنوال كانت تجري المعارك، وفي تلك السَّنة تفرّقت المواكب، وشُغِل النَّاس بالمعركة. أتذكّر عندما تحصل الصِّدامات بين المواكب تكون كراسي المقاهي وطاولاتها أسلحة عادةً، وقد شهدتُ أكثر مِن معركة وفي سنوات مختلفة.

توظيف عاشوراء سياسياً

بدأ توظيف أو استغلال عاشوراء سياسياً منذ بداية الدَّولة الصَّفوية[2]، عندما أراد الصَّفويون خلق أيديولوجيا مقابل الأيديولوجيا العثمانية، فاتجهوا إلى توظيف العاطفة الحسينية، فأدخلوا فيها ما أدخلوا، خصوصاً أنهم وضعوا الحجر الأساس للتَّشيع رسمياً بإيران. أتذكّر أن أحدهم نظمَ قصيدةً لأحد السَّلاطين الصَّفويين، فقال له السُّلطان: ما هي قيمتي أنا! إنما أنظم قصائد في الإمام الحسين، فأنا لا شيء. بمعنى كانوا يدفعون النَّاس ويحثّونهم إلى العاطفة الحسينية، فاستطاعوا مِن خلالها أن يؤثّروا تأثيراً كبيراً في المجتمع.

---

(1) لا تبجين: لا تبكين. أمجانه: مكانه.

(2) بدأت كدولة رسمياً في ظل الشاه إسماعيل العام 1501، فيعدُّ هو المؤسس، واستمرت نحو مئتي عام.

أذكر قصةً مفادها: أن منطقة أذربيجان الإيرانية دخلت، بعد الحرب العالمية الثانية، في الاتحاد السُّوفياتي السَّابق، وتشكّل فيها نظامٌ شيوعيٌّ أو اشتراكيٌّ، مثل بقية بلدان السُّوفيات، ففكر رئيس وزراء إيران قوام السَّلطنة في الأربعينيات، وكان ذلك في عهد الشَّاه الأخير محمد رضا، كيف يسترجع ما أخذ الاتحاد السُّوفياتي مِن إيران، فإيران ليست لديها قُدرةٌ على الحرب مع روسيا، فخطّطوا بتوظيف العزاء الحسيني، فالأذربيجانيون يقيمون عزاء الحسين، فلا تقدر السُّلطات السُّوفياتية منعهم مِن إقامة العزاء.

حصل أن عزاء أذربيجان إيران يتقدّم ويخترق الحدود الفاصلة، بين الدَّولتين، عبر مسيرة مليونية اقتحمت الحدود، ولما التقى الموكبان، أو العزاءان، سقطت السَّيطرة السوفياتية على ما اقتُطع مِن أذربيجان الإيرانية، وهذا الحدث يُعدّ شاهداً صريحاً على إمكانية توظيف العاطفة الحسينية واستثمارها سياسياً.

كانت القوى كافة تستغل مراسم عاشوراء، استغلها الشيوعيون والقوميون النَّاصريون، وكان يتردّد في المواكب اسم جمال عبدالنَّاصر. كنت أزور موكب آل بدير القادم مِن محافظة النَّاصرية إلى كربلاء في زيارة الأربعين (في العشرين مِن صفر)، لأن أولاد عمي هم رؤوساء ذلك الموكب، وذلك في العهد الملكي. فأتى مفوض شرطة وتغدّى معنا، وهو قادمٌ مِن بغداد لحماية الأمن بين المواكب، وقال: العجيب الذي شاهدته أن موكباً فيه مستهلات

(شعر) عن جمال عبدالنَّاصر، فسألت أحد اللطَّامين في ذلك الموكب: ما هو دخل جمال عبدالنَّاصر في عزاء الحسين؟ فقال اللطَّام وكان رجلاً بسيطاً: إنه مِن أصحاب الحسين ألا تعرفه!

بمعنى، أن ذلك الإنسان كان يجهل عبدالنَّاصر، ويعتقدُ أنه مِن أصحاب الحسين، شأنه شأن حبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة، وهم مِن شهداء اللطَّف بكربلاء. كذلك وظّف الحزب الشِّيوعي العِراقي عزاء عاشوراء أفضل توظيف، وكانت مستهلات الرَّدات في العام الأول مِن الثورة 14 تموز 1958 أكثر مِن غيرها لصالح اليسار.

لم يكن «حزب الدَّعوة» موجوداً في ذلك الوقت، لذا لم يجر الحديث عن توظيف الدَّعوة لعزاء الحسين، فمَن قال بوجوده قبل العام 1959 فهو يُخرِّف، لكن كان هناك فكر إسلامي مِن دون وجود حزب بهذا الاسم، ومثلما قلنا كان «للدَّعوة» بعد تأسيسه دور إيجابي في محاولة تنزيه مراسم عاشوراء مِن الممارسات غير اللائقة. لكن بعد تولي السُّلطة، صار لحزب «الدَّعوة» موكب باسمه «الدَّعوة»، ورأيت لافتته بأم عيني، عبر الفضائيات، فأنا لا أستطيع الذِّهاب إلى كربلاء إنما أراقب المشاهد عبر الشَّاشات.

أجد حزب الدَّعوة الآن يستغل قضية الحسين، مثلما استغلها آخرون مِن قَبل. يتقدم هذا الموكب مسؤولو الحزب وهم موظفون في الدَّولة، وأسسوا موكب الجامعات ويستغلّون المناسبة لهم. حتى

إن طارق الملا النجم، وهو المسؤول في أمانة مجلس الوزراء قبل تركه أو عزله لا أعلم، قال لي: ألا تريد زيارة قبر الحسين، فأنا غداً أذهب للاشتراك في موكب الجامعات، والمالكي نفسه يُقيم مجلس عزاء.

للأمانة أقول: إن نوري السعيد، رئيس وزراء العِراق الأسبق، هو الوحيد الذي لم يستغلّ قضية الحسين، بل العهد الملكي كلُّه لم يستغلها أو يوظفها لصالحه، أي لم يلتفتوا إلى أقصر الطُرق إلى قلوب البسطاء، مع ما فيها مِن رياء، بل على العكس أرادوا تشذيبها، فمنع رئيس الوزراء الأسبق طه الهاشمي مواكب التَّطبير، واختصر ما يُقام في الشَّوارع الآن على المساجد فقط. لهذا استُغلت عاشوراء ضد العهد الملكي، لأنه لم يبادر إلى استغلالها لصالحه.

كان الاعتقاد أن حصر مراسم عاشوراء في الحسينيات والمساجد يقلل مِن مظاهرها غير اللائقة، لكن وجودها خارج المسجد والحسينية يعطيها مظهراً شعبياً، وآنذاك لم تكن تمارس في هذه المشاهد المقرفة والمسيئة للشِّيعة والتَّشيع، فكانت لا تتعدّى اللطم المعقول والمستهلات الشِّعرية. لقد وصل الحال الآن إلى مستويات هابطة، ناهيك عن ترك العمل لأسابيع، فمثلاً سألني أخي: أتعرف كم موكب عزاء بالرِّفاعي؟ قلت: أظنه موكباً واحداً! قال: سبعة وعشرون موكباً، وسبعة مواكب خاصة بالتَّطبير، وهي مدينة ليست بالكبيرة! فقس على هذا.

مِن قصص التَّظاهر الاجتماعي بعاشوراء نقل لي السَّيد تقي الخلخالي، وهو مِن أهل الكوفة، أنه أقام موكباً للتَّطبير، وهو نفسه لا يُطبِّر، وكان يعتمر الكشيدة. قال: «لما سمعت أن هناك حلالاً وحراماً في تلك الممارسة قصدت الشَّيخ محمد رضا آل ياسين (ت 1951)، المجتهد المعروف، استفتيه، وكانت معي ورقة أُريد أن يكتب لي فتوى فيها، فقلتُ له: يا شيخنا ما هو رأيك في موضوع التَّطبير، فقد اختلف حوله النَّاس»؟

أجابه الشَّيخ آل ياسين قائلاً: «قُطعت يدي إذا سطرت فيها (يعني مسألة التَّطبير) سطراً واحداً». فالشَّيخ كان يعرف أن رأيه لا يؤخذ به، أي ليس له تأثير، ومِن شروط الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكر هو وجود التَّأثير. لكن المستفتي الخلخالي أشاعها على أن الشَّيخ آل ياسين مع التَّطبير وليس ضده، بينما هو ليس كذلك إنما أحجم عن الإجابة لأنه شعر بعدم تأثيره، أي إن فتوته لا تمنع التَّطبير، والحكمة تقول: «لا رأي لمن لا طاعة له».

دور المرجعيات

كانت للسَّيد أبي الحسن الأصفهاني (ت 1946) المرجعية المطلقة، أي إنه كان مرجعاً كبيراً بلا منافس، وافق مع رأي السَّيد محسن الأمين في ما ذهب إليه مِن محاولة لتشذيب مراسم عاشوراء، وكان يدعم موقفه الذي طرحه بالشَّام، واستمرّ به حتى وفاته السَّنة 1952، لأن الأصفهاني كان مرجعاً مفرداً، له تأثير

في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، بينما الشَّيخ محمد حسين كاشف الغطاء (ت 1954)، وهو المتنوّر كان ضده، وتلك مِن الغرائب والعجائب.

كذلك مِن أعجب العجب أن عبدالحسين شرف الدِّين (ت 1957) بلبنان، وهو العالم المتنوّر الشَّفاف وصاحب كتاب «المراجعات» المشهور، اتفق مع الشَّيخ عبدالحسين صادق صاحب الحسينية بالنَّبطية على تأييد التَّطبير، وكان لدى الأخير موكباً للتَّطبير، وهي كانت الحسينية الوحيدة، آنذاك، يُمارس فيها التَّطبير، وكان هذا الموقف مضاداً لجهود السَّيد محسن الأمين، بينما كنت أعتقد أن شرف الدِّين سيقف مع الأمين لا ضده في هذه القضية بالذَّات.

كان المراجعون، وما زالوا، محكومين بالمصلحة في عدم الوقوف أو التَّصريح ضد تلك الممارسات، فمثلاً السَّيد موسى الصَّدر، أحد أبرز وجهاء الشِّيعة بلبنان، ومِن المتنوّرين غيّبه النَّظام الليبي السَّابق في السَّنة 1978 وحتى يومنا هذا، كان يؤيد رفع ولاية الإمام علي بن أبي طالب، أو ما يُعرف بالشَّهادة الثَّالثة، مِن الأذان، لكنه في الظَّاهر كان يُقاتل مِن أجل إدخالها، وهي لا وجود لها في الفقه الشِّيعي، أي إن رسائل العُلماء خالية منها، إلا مَن ذكر وجودها استحباباً لا شرطاً في الأذان، وكانت لا تُرفع في أذان الشِّيعة بلبنان، وبالفعل أُدخلها وكسب شعبية طاغية عِبرها. فصارت صلاة الجمعة بلبنان أُسبوعاً للسُّنَّة وأسبوعاً للشِّيعة.

ما يحدث في عاشوراء، وما ثبت مِن اختلاف الأذان أخيراً بالعِراق وسابقاً بلبنان، أراها كلها مداخلَ سياسية، لأجل مجاراة العواطف، فالمالكي أخذ نحو 700 ألف صوت، فلو وقف ضد ممارسات عاشوراء أو غيرها ما أخذ ذلك العدد، فانتخابه كان عاطفياً وليس على البرنامج والأداء الحكومي أو السِّياسي.

لك هذه الحمضية مِن حمضيات الكلام، أو ما تسمّيها أنت ملحة: هناك عبارة: أَيس كريم، كنت سمعتها مِن الحاج رِضا السِّماوي، بأن أحد العِراقيين كان لا يقرأ ولا يكتب، إنسانٌ أُميٌّ مثلما يُقال، كان يُسمي الآيس كريم، وهو نوع مِن المرطبات الشَّهيرة، «أيس يكريم»، فعندما سمع بخطاب عبدالكريم قاسم في ضم الكويت إلى العراق، وكان قد مرَّ على محل يبيع الآيس كريم، فقال: «أيس يكريَّم»، أَي لا أمل لك. أنا أقول: إن الوضع العِراقي الحالي وتوظيف المقدّسات لا يدوم، فهو «أيس يكريَّم» لمن يعتمد عليه في السِّياسة.

تجدبد المنبر الحسيني

في تجديد المنبر الحُسيني كان الفضل في البداية للشَّيخ جعفر التوستري، وكان عالماً مجتهداً، عاش قبل 150 عاماً، فقبله كان عاشوراء يقتصر على مقتل الحُسين، بحسب رواية أبي مخنف[1]، ثم أدخل التوستري عليه مسائل الفقه والتَّاريخ

---

(1) لوط بن يحيى الأزدي، مؤرخ أو إخباري روى قصة مقتل الإمام الحسين، عن آخرين، توفى السَّنة 157 هـ.

وتحليلها، فهو بدأ مجتهداً ثم صار منبرياً، لهذا جاء بشيء جديد إلى المنبر. فأنا على قناعة أن المطوّر الأول للمنبر الحسيني هو الشَّيخ التوستري. كذلك كان السَّيد صالح الحلي مِن المطوّرين للمنبر، بحسب عِلمه، أما الكثير مِن الروزخونية[1] فهم ساروا على طريقة قال شيخي، وتسمى بالفارسية: «مسألة كوه»!

لم أمارس أنا القراءة على المنبر الحُسيني، إنما كنت خطيباً، أتحدّث عن الحسين، وفي أي مكان يُطلب مني إلقاء كلمة أرتقي المنبر، لكن ليس كروزخون، إنما كخطيب، لأنني لا أُجيد الحِرفة، فشأنها شأن بقية الحِرف تحتاج إلى خبرة وممارسة، وأنا لا أمتلك الخبرة ولا الصَّبر على التَّدريب، فأين قُرّاء المنبر الحُسيني مِن فارسه الشَّيخ أحمد الوائلي! ليس هناك سوى الشَّيخ الوائلي قارئاً يُعدّ مِن الفحول والمجدّدين في المنبر.

أما الشَّيخ محمد علي اليعقوبي (ت 1964) ففي وقته كان فارس الميدان وهو متبحرٌ في الأدب والتَّاريخ. وهناك قُرّاء آخرون متميّزون، لكن ليس لهم في الحداثة أو التَّجديد إنما شغلهم السرد التَّاريخي لقصة الحسين. أما الوائلي فقد أدخل إلى المنبر الحسيني نمطاً جديداً.

---

(1) جمع روزخون، وهم قراء العزاء الحسيني، وبحسب مطهري في «الملحمة الحسينية» أن أصل روزخون منحوت من كتاب حسن الكاشفي (ت 910 هـ) «روضة الشهداء»، والروزخون هو قارئ هذا الكتاب في العزاء، خلال الفترة الصفوية.

أما السَّيد صالح الحلي (ت 1940) فأعتبره أبرز خطيب منبري خرج في تاريخ المنبر الحسيني، وكان السَّيد أبو الحسن الأصفهاني ضده، وقد أفتى بتحريم قراءته، والحلي أخذ يُشهّر بالسَّيد محسن الأمين، ويُنسب إليه البيت الآتي في هجاء السَّيد الأمين:

يا راكباً إما مررت بجلقِ
فابصق بوجه أمينها المتزندقا

قيل ولست متأكداً إذا ما كان البيتان التَّاليان لصالح الحلي، وقالهما في محسن الأمين، أم كانا لشاعر آخر هجا فيهما الأمين:

ذرية الزَّهراء إن عُدِّدَت
يوماً ليطري النَّاس فيها الثَّنا
فلا تعدوا محسناً منهم
لأنها قد أسقطت محسنا(1)

في الصُّغر، أيام الصِّبا، كنت أُمارس اللَّطم، لكن بعد أن وعيت تركت تلك الممارسة، حتى علي الوردي (ت 1995)، وهو مثقفٌ وعالم اجتماع معروف قال لي يوماً: سيّد طالب أنا أيام ثورة

(1) كان السَّيد الرِّفاعي يحفظ البيت الثاني، وقد وردا أنهما لرضا الهندي، ومنهم مَن يقول إنهما بين أن قيلا في محسن الأمين أو محسن أبو طبيخ، لأنه كان على خلاف مع الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ، السيد رضا الهندي نفى أن قال في السيد محسن الأمين مثل ذلك

(جعفر الخليلي (ت 1985)، هكذا عرفتهم، بعناية: محسن عقيل، بيروت: دار المحجة البيضاء 1 ص 82)

رشيد عالي الكيلاني (1941) كنت لطّاماً لطّاماً! لكن هل استمرّ الوردي لطّاماً بعد أن تثقف واكتسب العِلم! طبعاً لا. بطبيعة الحال، لا نريد مِن النَّاس كلهم أن يكونوا علي الوردي، إنما نطلب لهم الثَّقافة المعقولة، التي يترفّعون فيها عن الممارسات غير اللائقة، مثل: اللَّطم والتَّسوط والتَّطبير وفوضى المراسم أو الطقوس أو الاحتفال في هذه المناسبة.

لماذا لا يتحرك المراجع

تسألني لماذا لا يتحرك المراجع: ليس للمراجع سوق في هذه المناسبة، أي لا يسمعهم أحد، فإذا المرجع مثلاً السَّيد علي السِّيستاني يصدر فتوى ضد التَّطبير الآن سيُخالفه الآخرون مِن المراجع، وبالتَّالي لا تُسمع كلمته، فمعنى ذلك أنه سيُهان. أما أَبو الحسن الأصفهاني عندما أصدر فتوى في هذا المجال لأنه كان فريد زمانه في المرجعية، أي إنه مثلما تقدّم لم يكن هناك ما يوازيه درجةً.

أرى الأمر ليس خوفاً على الحقوق المالية، مثلما تفضّلت، وهو دفع الخمس، إنما خشية عدم التَّأثير، فالشِّيعة لا يتوقفون عن دفع الخمس، وعلى وجه الخصوص بالنِّسبة إلى المتدينين منهم. بل أقول على العكس إن أصحاب المواكب عادة ليسوا مِن النَّاس المتدينين أو الملتزمين، فهم بالتالي لا يدفعون الحقوق، فإذا كان يباشر التَّطبير بالقامة قُبيل شروق الشَّمس ورأسه مدمّى فمتى يؤدي فريضة الصَّلاة، وكيف يُصلي، وما هو دافعه لإعطاء الخُمس!

كانت أكثر الأيام حرية لمواكب عاشوراء هو زمن عبدالكريم قاسم، لم يمنعها، وصوره تحملها المواكب في كلِّ مكان، وهو رجل عسكري لا صِلة له باستثمار هذه المناسبة، والنَّاس شعرت بالمودّة تجاهه، وقد أخذت إذاعة بغداد تذيع قصة مقتل الإمام الحسين، في يوم عاشوراء، بصوت الشَّيخ عبدالزَّهراء الكعبي المشهور (ت 1974).

قضية الطَّائفية

مِن المفروض أن يُنظر ويُراجع في الكثير مِن ثقافتنا، بعين معاصرة تتطابق مع منظور ديننا الإسلام، فالذي يحصل في ما نرى مِن تفاقم النِّزعة الطَّائفية، لدى الشِّيعة والسُّنَّة، على حدٍ سواء، كله مُحاكم أمام الإسلام.

أنا لا أقول بالتَّخلي عن المذاهب، وإنما لماذا التَّعصب؟! إن ما يظهر في الفضائيات مِن رجيع، يَحق لي أن أسمّيها فضلات، وليست فضائيات. فهذا المدعو بالسَّيد مجتبي الغبي يشتم بخالد بن الوليد، وأنه يقول عنه كذا وكذا، وينعته بنعوت سمجة يترفّع أي إنسان عن قولها. أقول: مثل هذا رجل مأجور يقوم بدور ما، وكل مَن ينطق بمثل هذا الكلام هو رقيع. وأن يصوّر العِداء بين عمر وعلي إلى هذا الحد مِن الصفاقة.

نعم، بحسب رأيي وأنا عالم دين شيعي، حدث ما حدث في سقيفة بني ساعدة (11 هـ)، بعد وفاة الرَّسول (صلّى اللّه عليه

وسلم)، لكن علي لم ينزل إلى هذا الخطاب الطَّائفي، الذي يُبث ويبشر فيه باسمه. كان خطاب فاطمة الزَّهراء في ذلك الوقت خطاباً تاريخياً، فيجب أن يكون هناك أخلاق في الخلاف، إذا استخدمت الزَّهراء أُسلوب مجتبي وغيره مِن الطَّائفيين، لم تبق الزَّهراء ابنة محمد، بل يصبح اسمها عوراء بدلاً مِن زهراء، وحاشى ابنة النَّبي أن تكون كذلك.

نعم، هناك شرائح اجتماعية للأسف تعتاش على المظلومية، مع أنها بالحقيقة لا تقصد سوى منافعها مِن هذا التَّشاحن الطَّائفي، فيجب أن يظهر أسلوب راقٍ في التَّعاطي في مثل هذه القضايا. فقد حصل تقارب، على المستوى الرَّسمي، في هذا المجال، وأن السَّيد الخميني، بعد الانقلاب الإسلامي بإيران، جوَّز الصَّلاة خلف السُّنَّة، ومنع السَّب والشَّتم، بل إن هناك جزئين مِن كتاب «بحار الأنوار» لمحمد باقر المجلسي (ت 1699) قد مُنعا مِن الطبع، لما فيهما مِن كلام غير لائق بحق الآخرين.

الفصل العاشر

أنا وأولاد السَّيد الحكيم

كان أكثر حياة صاحبنا بالنَّجف مع آل الحكيم، بعد آل الصَّدر، وربطته صلات منذ الشَّباب وحتى الكهولة مع محمد مهدي الحيكم، ومع مرجعية الحكيم، حتى صار وكيلاً لها بمصر، وهو في هذه المذكرات أو الأمالي يذكر الوقائع كما هي، فمنها ما هو يُرضي، ومنها ما لا يُرضي، فإذا سُجّل المرضي ونسخ غير المرضي مِن الذَّاكرة لا تحظى المذكرات بالمصداقية، فما دامت عن زمن سرى ومضى، فلا ينبغي حجب غير المرضيات مِن الوقائع.

كان هذا الفصل ملحقاً بفصل آخر لكن لا بدَّ من نوع مِن التناسب في الموضوعات والحجوم ما بين الفصول، كنا تناقشنا معاً حول المرضي، ولا المرضي فقال: «لا خير في ما أُملي إذا لم آت على الحوادث كما هي، ومَن يعزّني ويحبّني يتحمل صراحتي». فكَان له ذلك.

قال: كان السَّيد مرتضى العسكري عندما ذهب إلى أداء فريضة الحج، بحدود العام 1963، ذهب إلى السَّيد محسن الحكيم قائلاً له: سأذهب إلى الحج ولا أريد أن تفرغ أو تبقى الحسينية بلا إمام، واختار لها السَّيد طالب الرِّفاعي طول فترة غيابي. لم يكن لي علم بهذا الأمر. إلا أنه قبل غروب الشَّمس بساعتين وقفت سيارة أمام بيتي بالكوفة، وإذا فيها مهدي الحكيم، فلما خرجت قال: اجهز بسرعة، أو اعتمر عِمامتك، وتعال معي. فنحن ليس لدينا سوى العِمامة والصَّاية (القفطان) والمِداس (نعال خاص

بأهل العمائم على ما يبدو)، أقصد ألبستنا ليست معقدة، ولا تأخذ وقتاً في ارتدائها.

نزلت وسلمني مهدي الحكيم عشرة دنانير، فسألته عن الموضوع، قال: هذا مصروف لك مِن السَّيد (يعني والده السَّيد محسن) سيخبرك رشيد الصَّفار، وكان معه في السَّيارة، أما هو فقد نزل وتركنا. قال الصَّفار: السَّيد العسكري انتدبك لتقيم مقامه في حُسينية المباركة الكائنة بالكرادة الشَّرقية حتى يعود مِن أداء فريضة الحج. ثم سلّمني الصَّفار رسالة أو كتاب التَّكليف مِن السَّيد محسن. قرأت الكتاب ولم يُعجبني استهلاله. فقد استهله بالعبارة: «إلى ولدنا السَّيد طالب الرِّفاعي». في ذلك الوقت كنت أرى نفسي شيئاً، فمثلاً لو كتب حجة الإسلام مثلاً لقبلتُ، لذا رفضتُ الأمر.

فقررت عدم الذِّهاب واستلام المهمة، أو تنفيذ التَّكليف، وإن كان صادراً مِن المرجع محسن الحكيم. وصلتُ إلى بغداد ونزلت عند رشيد الصَّفار، وكان مديراً عاماً للمصرف الزِّراعي على ما أظن، وسابقاً كان موظفاً صحياً عندنا بالرِّفاعي، ثم درس الحقوق وتدرّج في الوظيفة حتى صار مديراً عاماً. أتذكّر أنه جرى الحديث بيننا، فقال: أتعرف ما معنى مفردة «عَفلق»؟ قلت: لا. قال: الفِرج الواسع[1]. الشَّاهد ليس هذا.

---

(1) قالها محمد مهدي الخالصي في إحدى خطبه في الجامع الصَّفوي بالكاظمية عندما اختلف مع البعثيين عِقب انقلاب 8 شباط 1963. وكان متفقاً معه.

بعدها زرتُ الكاظمية، لم أذهب إلى الحسينية المباركية، فذهبت إلى السَّيد إسماعيل الصَّدر، وكان عائداً توّاً مِن النَّجف، ولم أتحدث بتكليف المرجعية، وكان لإسماعيل موعدٌ مع آخرين لمقابلة أو مواجهة وزير الأوقاف، فؤاد عارف، كان ذلك في وزارة الحرس القومي.

كنا بالكاظمية نسمع أن أشخاصاً سريين يقودون الحكومة، وأن أحدهم محسن الشِّيخ راضي، هذا ما يُشاع، ولعله ليس واقعاً، فأخبرني السَّيد إسماعيل أنه سيخرج، وكان أول القادمين مهدي الحكيم. فقال مستغرباً: أنت هنا ماذا تفعل، والسَّيد (محسن الحكيم) أرسلك إلى مكان آخر! فقلت: السَّيد أرسل ولده وليس أنا! فقد قرأت الكتاب ووجدت فيه خطأ، فأنا ابن السَّيد داوود، وليس ابن السَّيد محسن الحكيم. فالسَّيد قد كتب ولدنا، فأدركت أن هناك خطأً في الكتاب، وانت ولده وليس أنا.

فقال: الجماعة في حُسينية المباركة يسألون عنك! وبذلك سأتصل وأقول لهم: عالمكم موجود عند السَّيد إسماعيل الصدر فتعالوا! أما برنامج مواجهة وزير الأوقاف فقد تغيّر تماماً، فقد اعتذر مهدي مِن الصَّدر بعدم ذهابه معه، وانشغل بقضيتي.

ذهبنا إلى حسينية المباركة، ومؤسسها الحاج عبدالباري هو أحد تُجار الشِّيعة، وهو الذي ساعد في تأسيس كلية أُصول الدِّين التي عميدها مرتضى العسكري. أذّن المؤذن فقدمني مهدي

الحكيم بلقب علمي، فقال: حجة الإسلام. فقلت لمهدي: هذا الصَّحيح، فليس لي تسليم الجماعة بالحسينية كتاباً مِن المرجع يقول: يصلكم ولدنا! وكأني ما زلت ألعب في الشَّارع! فقال: السَّيد محسن يكتب لأكبر شخص بولدنا.

قلت له: لكنه لا يكتب لمرتضى العسكري ولدنا، بل يكتب له: حجة الإسلام! وأنا لستُ أقل مِن مرتضى العسكري درجةً. هذا، وبقيت إماماً لحسينية المباركة لمدة شهر أو أكثر، حتى عاد إمامها العسكري، وعند توديعي للمصلين ومرتادي الحسينية، قالوا: سيدنا إن شاء الله أنت تبقى معنا، السيد مرتضى يشوف (يجد) له مكاناً آخرَ! أتذكر أني مازحتهم قائلاً: بسرعة بايعتوا ونقضتوا البيعة يا أهل الكوفة[1]! والعياذ بالله.

كان مرتضى العسكري يهدف هدفاً حزبياً خاصاً بنشاط «حزب الدَّعوة»، قال لي بعد انتهاء مهمتي في حُسينية المباركة بالكرادة الشَّرقية مِن بغداد: أهدف أن تأتي إلى هنا (إلى بغداد)، وأن تصبح إماماً للمسجد الجديد، مسجد التِّميمي، ورأيت ألا يكون مجيئك إلى بغداد مفاجئاً، فجعلت نيابتك لي في إمامة المباركة تمهيداً وخطوة أولى نحو الهدف، وهي إمامتك لمسجد التِّميمي، وهو في موقع استراتيجي بالكرادة الشَّرقية أيضاً.

(1) يقصد مبايعة الإمام الحسين، عام 60 هـ، وعلى ضوئها أرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل، ثم سار هو إليه فأنقضوا البيعة وحدث ما حدث في محرم 61 هـ.

لكن مثلما يُقال: «وإذا يُحاس الحيس يُدعى جندبُ»[1]. فلما رأوا المسجد مركزاً استراتيجياً أعطوا إمامته إلى السَّيد محمد مهدي الحكيم، نجل المرجع محسن الحكيم، وليس لي! شُيِّد المسجد مِن إرث الحاج محمد التِّميمي، وهو مِن تجّار الشِّيعة الكبار، مِن ثلثه (ما يتعلق بالإرث)، وسمي باسمه «مسجد التميمي».

هذا هو موقف أولاد السَّيد محسن الحكيم مني دائماً. فمثلاً أهل الكوت نصّوا على أن أكون داعياً لهم، لكن بجهود السَّيد محمد باقر الحكيم أُعطيت الكوت للشيخ سليمان اليعفوفي مِن أهل لبنان. كذلك نصّ عليَّ أهل العمارة، وعلى عبدالهادي الفضلي، ولم نذهب لا أنا ولا الفضلي، ذهب شخص آخر. على أية حال كانت قضايا المرجعية تُدار في مسجد التِّميمي بالكرادة الشَّرقية حيث هناك مهدي الحكيم.

بعد ما حصل عمدت مرة متخابثاً أن أُسمع السَّيد مهدي ما لا يعجبه، عندما كنت جالساً عند مرتضى العسكري، وبالمصادفة دخل علينا مهدي الحكيم، فسألني سؤال بعد أن سلّم بحرارة:

بماذا مشغول الآن؟ قلت له: الآن أنا مشغول بتفسير آية الكنز[2]! وكان مسماراً[3].

(1) عجز من بيت يُنسب إلى عمر بن الحارث بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة المعروف بالأحمر، وهو جاهلي (المرزباني، مُعجم الشُّعراء، ص 26 حققه: عبدالسَّتار أحمد فراج):

وإذا تكون كريهةٌ أُدعى لها   وإذا يُحاس الحيسُ يُدعى جندبُ

(2) ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التَّوبة: 34).

(3) كناية عراقية مشهورة تعبر عن التذكير بعيب ما بكلام غير مباشر.

كان أولاد السَّيد الحكيم مختلفين في الاتجاهات، فمحمد رضا الحكيم كان يُساير القوميين بأصنافهم المختلفة، ويجنح إلى الدَّولة، لا يُريد أن يكون ضدّها، على الرَّغم مِن مواقف والده المتشددة كان موقفه ليناً مِن أي حكومة. أتذكّر شيئاً: أن السَّيد أبو القاسم الخوئي بعثني إلى الدكتور عبدالرَّزاق محي الدِّين في قضية ما، فلما ذهب إليه سألني: لماذا السَّيد (محسن الحكيم) يقف منا كلَّ هذا الموقف المتشدد، وولده محمد رضا عندنا دائماً، فهو الآن عند طاهر يحيى، ويقصد رئيس وزراء العراق في عهد عبد السَّلام عارف وعبد الرَّحمن عارف!

قلتُ له: السَّيد ليس لديه تناقض، ومحمد رضا يتصرف مِن دون عِلم والده. فالقصد أن أولاد السَّيد على اتجاهات مختلفة، محمد مهدي ومحمد باقر لهما اتجاه، وأمهما اللبنانية ابنة بزي، ولمحمد رضا اتجاه خاص به، وهو شقيق السَّيد يوسف أكبر أولاد الحكيم. فعندما يأتي السَّيد محسن وأشكو له مِن محمد باقر، يقول لي: محمد باقر أخوك ما به معك؟ فأجيبه قائلاً: اتصالي بك، ليس لي علاقة بالسَّيد باقر، ومَن قصد البحر استغنى عن السَّواقي، وأنت البحر.

أما ما حصل لي مع السَّيد محمد باقر الحكيم فمشاكل عديدة، كنت واضحاً بالتعبير عنها، وأسمعه ما يرد على لساني مِن نقد، ولم أكن أعطيه ما يريده، حقيقةً كنت متعالياً عليه في هذا الجانب، فهو يصغرنا أنا ومهدي الحكيم، ويحاول بطريقة

ما فرض وجوده، لكن على حسابي. فلما أمر والده السَّيد محسن الحكيم بإصدار مجلة باسم «الدَّعوة الإسلامية»، وليس لها علاقة بحزب الدَّعوة، اخترت أن أكون صاحب الامتياز، واتفق محمد باقر مع متصرف كربلاء على اسمي كصاحب امتياز، وأن أذهب إلى المتصرف لإنجاز المعاملة، أو ما يتعلق بالموافقات الرَّسمية، فتأخّرت ببغداد، وكان باقر يسأل عن الطلب، ولم يقبل مني عُذر تأخري مِن إنجاز الأوراق، وأنا أعترف كان التأخير إهمالاً مني، وقصدت بعد ذلك دار السَّيد محمد باقر الصَّدر، فوجدت هناك محمد باقر، فقال لي بحدة: هكذا سيدنا تفعل!

فأجبته غاضباً والشَّرر يتاطير مِن عيني، فقلت له «أُبَيقر (تصغير باقر) إلزم حدك، واعرف مع مَن تتحدث، أنا أراك ذاك أبو كذلة (ذؤابة) تلعب في الطريق»! وبالفعل كنت رأيته وهو ما زال صغيراً في المدرسة الابتدائية. وأضفت: ليس لأنك ابن محسن الحكيم! فالسَّيد على الرأس والعين، لكني أتكلم معك أنت. فحمل ذلك في قلبه عليَّ. ولما ذهبت وكيلاً لوالده بمصر قال: مِن أين تمويلك (النقود للمصاريف) تريده؟ قلت: من الكويت. فكلّف ثلاثة مِن التجار يمولونني بالمصاريف، وهم: زيد الكاظمي، ومحمد أبا زرد، ويعقوب البهبهاني.

الفصل الحادي عشر

مرجعية العرب والإيرانيين

لا يخفى أن الهيمنة في المرجعية الدِّينية الشِّيعية هي للجانب الإيراني، مثلما أن معظم جامعي الحديث والفقهاء والكتّاب والفلاسفة مِن أهل السُّنَّة هم مِن إيران وما وراء النَّهر. فأغلب المراجع الدِّينية، ما عدا آل كاشف الغطاء: جعفر الكبير (ت 1812) وأولاده الثَّلاثة: موسى وعلي وحسن، لم يبرز مرجعاً عربياً بالنجف، أقصد بحجم أبي الحسن الأصفهاني (ت 1946) مثلاً.

نعم هناك مراجع كبار ينتسبون لسلالة النِّبي، لكن لا يكون مرجعاً إلا بعد نسبته إلى المدن الإيرانية التي عاش فيها أو أجداده. توسّع السَّيد الرِّفاعي في هذا الموضوع، وهو بالفعل يشغل الكثيرين. كانت وجهة نظره كونه عربياً، ومع ذلك أعطى أسباباً وجيهةً لتقدم الإيرانيين بشكل عام في الدراسة الحوزوية والتقدم في الاجتهاد.

بطبيعة الحال إن للأموال التي تُجبى مِن المناطق الإيرانية وكثرة المُقلدين دوراً، فقال: «حتى محمد باقر الصَّدر لو تقدم أن يكون المرجِع الأكبر لا يتم ذلك إلا بعد أن يُرد إلى أصفهان، حيث عاش أجداده، فيكون: أغايي أصفهاني، لا باقر الصَّدر». تحدث بصراحة مع تحفظه على العديد مِن أسئلتي واستفساراتي، فكم سألته عن التفصيل في قضية الأموال وكيف تجبى وأين تذهب، إلا أنه أخذ يؤجل ويؤجل حتى قال: «هذا موضوع شائك يحتاج إلى بحث دقيق يصعب الإلمام به في هذه الجلسات». وكان له ذلك.

قال: كان السَّيد أبو الحسن الأصفهاني (ت 1946)، متفرداً في المرجعية، وإلى جانبه كانت مرجعية السَّيد حسين البروجردي (ت 1961) النَّاشئة آنذاك بإيران، فغير ذلك لم تكن هناك مرجعية تضاهي أو تساوي الأصفهاني، ولما مات أبو الحسن برز عدد مِن المراجع، في النصف الثَّاني مِن الأربعينيات، منهم: الشَّيخ محمد رضا آل ياسين، والسَّيد محسن الحكيم، وهو رقم واحد مكرر إلى جانب آل ياسين، والسَّيد محمود الشَّاهرودي(ت 1975)، والسَّيد حسين الحمامي (ت 1959)، والأخير برز مرجعاً بين العرب، أو انحصرت مرجعيته في العرب الشِّيعة فقط.

هناك مراجع أقل انتشاراً مثل: الشَّيخ محمد حسين كاشف الغطاء (ت 1954)، وهو مشهور في الأدب والوجاهة الاجتماعية، ففي هذا هو الأول، لكنه كان يرى نفسه شيئاً آخر، أي مِن المراجع الكبار. فهؤلاء الأربعة، منهم العرب ومنهم العجم، ومنهم ذوو أُصول أعجمية احتلوا ساحة التَّقليد لدى الشِّيعة، وأتى بعدهم السَّيد عبدالهادي الشِّيرازي (ت 1962).

كُنت أُقلّد الشَّيخ محمد رضا آل ياسين، ومِن بعد أخذتُ أُقلّد السَّيد عبدالهادي الشِّيرازي، وبعد حين خَلعت الطَّوق، فأصبحت لا أحتاج إلى تقليد أحد، فلي في الاجتهاد حصة بعد الدِّراسة والممارسة العلمائية. مات الشَّيخ محمد رضا آل ياسين فوزّع تقليده على بقية المراجع الأحياء، وأكثر حصة مِن مقلديه

ذهبت إلى السَّيد محسن الحكيم. أتدرون مَن كان يتولّى توحيد المرجعية لدى مرجع أو مرجعين؟ هو سيدنا عزرائيل حفظه اللّه، لأنها تتوحد بالموت.

يعتمد بروز المرجع على مؤهلاته العلمائية والتَّقوائية وقوة المبشرين بمرجعيته، وهم أُناس كثيرون منهم الخُطباء والصَّحفيون وغير ذلك. فالمبشرون بمرجعية السَّيد محسن الحكيم، قاموا له بالتبشير على أحسن وجه، ومنهم تلامذته مثل: السَّيد حسين مكي، ومحمد تقي الفقيه، والشَّيخ حسن معتوق، فهؤلاء الأقطاب بالتبشير له، وهناك قطب آخر في التَّبشير للحكيم هو السَّيد محمد سعيد فضل اللّه، عم السَّيد محمد حسين فضل اللّه، ووالده سيد رؤوف فضل اللّه، وإن الأخيرين، أقصد الأخوين فضل اللّه، وإن مالوا إلى مرجعية عبدالهادي الشِّيرازي، لكن الحصة الكبرى مِن المقلدين كانت للسَّيد الحكيم، وللعلم هناك مصاهرة بين آل فضل اللّه والحكيم، فوالدة السَّيد مهدي الحكيم، زوجة السَّيد محسن، هي خالة السَّيد محمد حسين فضل اللّه.

عندما مات السَّيد حسين البروجردي بعث شاه إيران محمد رضا بهلوي (ت 1980) برقيتين في التَّعزية، واحدة إلى السَّيد محسن الحكيم، وأخرى إلى السَّيد أحمد، وهو علم طهران، وكانت له مكانة كبيرة هناك، وله أستاذية على السَّيد روح اللّه الخميني (ت 1989)، أما تأثير بازار طهران فكان مع السَّيد محسن

الحكيم، والحكيم وإن كان أصله عربياً، كونه طباطبائي، لكنه يُعدّ بروجردياً، فجده الرابع أو الخامس جاء حكيماً، أي طبيباً، مع أحد السَّلاطين العجم، واسمه السَّيد مراد، وهو باعتباره حسني لُقب بالطباطبائي، وبعد وفاة البروجردي انفرد بالمرجعية، فالتَّقليد صار له.

الفرس والعرب

لم يقلّد العجم، أو الإيرانيون، السَّيد محسن الحكيم إلا بعد أن أعادوه إلى البروجوردية، أي بعد أن طبعوه بطابع العُجمة، ولو أن محمد باقر الصَّدر ظل حياً لقُلّد بصفته أغايي أصفهاني، لأن جده صدر الدِّين كان معروفاً بأغايي أصفهاني، وهم تحدّروا إلى إيران مِن جبل عامل. نعم سيُقلّد الإيرانيون الصَّدر، لكن بعد أن يصير أَصفهانياً، وإلا لا يُقلّد، والسَّبب عُرقي فارس أو إيران على العموم.

نستطيع رؤية ذلك بوضوح مِن خلال الهيمنة الفارسية على الحوزة. فالعرب ما كانوا معروفين بكثرة في الحوزات الدينية، كطلبة وأساتذة، كانت الكثرة للفرس، والموارد المالية تأتي مِن بلاد فارس، والمرجع يكون مرجعاً محترماً إذا كان البازار الإيراني معه، فالقصة مال واقتصاد في الأخير، ورداً على سؤالك للسياسة دورها أيضاً.

فالسياسة الإيرانية أرادت إخراج المرجعية مِن إيران إلى النَّجف كي تتجنّب تأثيرها، لكن الثقل في الحوزة الدِّينية كان

للجانب الفارسي، ومِن هناك يتخرّج العلماء المجتهدون، فإذا كان هناك عشرة طُلاب عرب يكون مقابلهم مائة طالب حوزوي إيراني. إذا كان هناك مجتهدان عربيان هناك مقابلهما عشرون مجتهداً إيرانياً فارسياً.

فنحن كطلبة كانت حصّة الخبز، التي نأخذها ونتقوّت بها يومياً، تأتي مِن إيران، فأموال المرجعية، وما يخصّ الحقوق الشَّرعية تأتي مِن إيران، وليس هناك حقوق تدفع مِن قِبل العرب، بشكل ملموس، حتى جاء انقلاب 14 تموز 1958 فصار لدينا متدينون يدفعون الحقوق، بسبب الموقف السِّياسي آنذاك، الذي أطنبنا في تفاصيله. أما مرجعية آل كاشف الغطاء الأولى، وأقصد مرجعية آل كاشف الغطاء الأولى[1]، فأموالها كانت تأتي كحقوق شرعية مِن إيران أيضاً.

على حد علمي أن المرجعية الشِّيعية التقليدية المعروفة بدأت بصاحب جواهر الكلام، الشَّيخ محمد حسن النَّجفي (ت 1854)، فكان كتابه مفصّلاً في الفقه الشِّيعي، ثم جاء مِن بعده مرتضى الأنصاري (ت 1864)، ثم تدريجياً أمست المرجعية مؤسسة، وأن الحقوق، أي الخُمس، تؤخذ مِن قِبل المرجعية، وصكوك الغفران، إذا صحّت العبارة، تؤخذ منها أيضاً.

---

(1) يقصد الأب جعفر الكبير كاشف الغطاء (ت 1812)، وأولاده: موسى كاشف الغطاء (ت 1826)، وعلي كاشف الغطاء (ت 1837)، وحسن آل كاشف الغطاء (ت 1846)، أما مرجعية آل كاشف الغطاء الثانية فتمثلة بالحفيد محمد حسين كاشف الغطاء، وتسمية العائلة جاءت مِن اسم كتاب كشف الغطاء الذي صنفه جدهم جعفر الكبير.

وإذا نظرنا في ما قبل، فإن الشَّيخ المفيد (ت 413 هـ)[1] يُعدُّ مرجع المراجع، وليس هناك حقوق تُجمع له في ذلك الزَّمان، لكن هناك مراجع كانوا يملكون أموالاً وعقارات، فالسَّيد أو الشَّريف المرتضى كان له عدد كبير مِن القُرى تدرّ عليه أموالاً، وكان يمنح رواتب لطلابه، وكان يمنح غير المسلمين رواتب أيضاً، لأنهم كانوا يسكنون في القُرى التابعة له.

أما في العهد الصَّفوي فالأمر اختلف، فالمراجع صاروا يمثلون السلاطين، وقد استعان الملوك الصفويون بالمراجع اللبنانيين العرب مِن جبل عامل، وكان في مقدمهم الشَّيخ عبد العال الكركي، واستخدموا الحر العاملي صاحب كتاب «وسائل الشِّيعة»، وعبد الصَّمد البهبهاني، وكذلك طائفة مِن علماء البحرين. وتلك قصة طويلة.

في أمر التَّعصب للعنصر الفارسي، أو الإيراني على العموم، هناك قول سمعته مِن شيخي المجتهد عباس الرُّميثي: «ما أصير مرجعاً أنا عربي عربي عربي»! كان الشَّيخ أُستاذي وأستاذ محمد باقر الصَّدر وآخرين، وكان مِن المجتهدين المبرزين، أما أنا فاتخذني ابناً، وكان يدعوني: بابا سيّد طالب.

في يوم مِن الأيام كنت جالساً معه في السِّرداب في داره بالنَّجف بعد تناول الغداء معه، فقلت: شيخنا أنا الآن آكل وأشرب

---

(1) عُرف بابن المعلم، وهو محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري، ولد بمنطقة عكبرا القريبة مِن بغداد، ويُعد مِن أبرز علماء الشيعة في زمانه.

معك، وغداً عندما تصير مرجعاً يجب أن أقف في الطَّابور حتى أصل إليك! وكان ممدداً فجلس، وأخذ يقول: «لا بابا أنا ما أصير مرجعاً، أنا عربي عربي عربي». ويقصد أنه ليس أعجمياً، فلا يمكن لعربي أن يصبح مرجعاً، وحتى إذا أصبح مرجعاً فيكون ضمن حلقة ضيقة مِن العرب، عشيرة مثلاً أو حي لا أكثر.

الصِّراع على المرجعية

كانت هناك صراعات تصل إلى حد الانتقام، ويستخدم فيه الخطباء والحواشي، فمثلاً ما أعرفه أن السَّيد صالح الحلي استُخدم لإثارة النَّعرة العربية الأعجمية داخل الحوزة الدِّينية خصوصاً، والمجتمع النَّجفي عموماً. اتجه صالح الحلي اتجاهاً ملائياً، ودرس دراسة علمية مركزة، إلا أنه تخصص في الخطابة المنبرية، وبرع بها حتى ردّدت عند وفاته عبارة: «يا لسان المنابر يا ابن فخر الدِّيانة... خلتك مِن يسده خالي شخصك مكانه». كان معروفاً بالجرأة في الخصومة، وإذا لم يجد أحداً يشتمه يعود ويشتم نفسه، فيجوز لنا تشبيهه بالشاعر الهَجاء الحُطيئة بغطاء المنبر الحُسيني.

لما حرّم السَّيد أبو الحسن الأصفهاني خطابة الحلي مِن على المنبر الحُسيني اجتمع أهل الكوفة مِن بزازين وخياطين وبقالين؛ وحاولوا كسر هذا التَّحريم، مِن قِبل مرجع لا يُشق له غبار مثل أبي الحسن، فأقاموا مجلساً في السُّوق، وكانت فسحة مِن الأرض فارغة،

وكان يقرأ وهم في دكاكينهم يستمعون، لم يجرأوا على الجلوس عند منبره بسبب تلك الفتوى، فربُّما قاطع النَّاس التَّعامل معهم إذا عرفوا أنهم يكسرون فتوى المرجع، فقرأ بلا جمهور يسمعه.

حكى لي مَن كان يفتدي السَّيد صالح الحلي بنفسه، هو علوان شكوري، وكان مِن عوام الكوفة، ويقول نخوة لصالح الحلي: مَن هو أبو الحسن الأصفهاني هناك أبو مهدي، ويقصد السَّيد الحلي. قال: أنا أسمعه وما تعنيني فتوى تحريم قراءته!

وبعد أن بدأ صالح الحلي بالقراءة في مجلس البقّالين والبزازين، ولم يجد ذلك الجمهور الذي كان، صاح مِن فوق المنبر: علوان شكوري! فأجابه: نعم نعم! فقال له: اللّه يطيح حظك، وأعادها. فقال: ليش مولانا؟ فقال: وطاح حظ سيد صالح الحلي! ويقصد نفسه. ثم أردف قائلاً: سيد صالح الذي يقرأ على الآلاف الآن يقرأ على علوان شكوري فقط!

كانت هناك مقاطعة صارمة للسيد صالح الحلي، بسبب تحريم قراءته وضديته للسَّيد أبي الحسن الأصفهاني. حكى لي الشَّيخ محمد علي اليعقوبي، خطيب المنبر والشَّاعر المعروف: «كانت لدى سيد صالح دار على شاطئ الفرات بالكوفة، وكنت أتمشّى على الشَّاطئ، فنظرني السَّيد صالح مِن داره، وكان يظنّ أني أتيت إلى زيارته، خلال تلك المقاطعة الاجتماعية له، ولما وصلت إلى داره أخذت أسرع في المشي، وهو ينتظر، فأخرج رأسه

قائلاً: حتى أنت يا أبا موسى، ولم أجبه». كانت قطيعة تامة ضده بسبب تلك الفتوى.

كان لسانه بذيئاً، فلما يريد شتم العلماء مثلاً يأتي بقصة على المنبر عن قماش «البرك»، وهو قماش خاص مِن الصُّوف تخاط منه ثياب العلماء الكبار، وحياكته إيرانية متقنة. ثم يعطف في حديثه على العباءات التي تُسمى بالنَّائيني، وهي مصنوعةٌ بمنطقة نائين بإيران أيضاً، ويأخذ بالتفاضل بينهما، ثم يصيح مِن فوق المنبر: تباً لك يا أصفهاني وكأنه يقصد قماش البرك، لكنه يقصد المرجع أبا الحسن الأصفهاني، وتباً لك يا نائيني وكأنه يقصد العباءات، لكنه كان يقصد المرزا محمد حسين النَّائيني (1936).

بلغني أنه عُقد مجلس حسيني في زمن فيصل الأول (ت 1933) للسيد صالح الحلي بمدينة الكاظمية، صحن مرقدها، بمناسبة عاشوراء، وكان في الأيام الأُولى لمجيء الملك فيصل إلى العِراق (1921)، وكان الملك يحاول التَّقرب مِن أبناء المجتمع العِراقي، وبينهم شيعة الكاظمية، والشَّيخ محمد مهدي الخالصي الأَب كان حاضراً، أي قبل نفيه إلى إيران. وليس هناك مَن هو أفضل مِن الحلي لارتقاء المنبر في تلك المناسبة.

عرف الحلي أن الملك كان موجوداً في المجلس فجاء بقصة عرّج فيها على طير البوم، وقال: لماذا البومة تقصد الخرائب،

وأخذ يفلسف سكنى البومة في الخرائب، حتى قال: إذا الله أطال عمر ملكنا سيكثر البوم بالعِراق. سمعها الملك فيصل وسكت. هذه هي طريقة صالح الحلي لا يحيد عنها سواء كان في مجلسه إنسان عامي أم ملك.

هناك رجل كاسب بالنَّجف يعتمر كشيدة، مع أنه في أعداد المجتهدين، واسمه باقر القاموسي، كان مقدساً عند النَّاس، وفي بيت القاموسي هناك مجلس حُسيني يُعقد عادة في أيام عاشوراء، ومِن عادته يُقدم الطَّعام فيه لمجموعة خاصة بعد انتهاء القراءة أو الخطابة، والطَّريقة هي أن يأتي أحدهم ويشاور ممَن يدعون إلى تناول الطَّعام، فيُقال لهم همساً: «تأخر لتناول العشاء»، من دون أن يسمعها الآخرون. فالمجلس ربَّما ضمّ الألف شخص، لذا يختارون عدداً منهم.

لم يكن عند الشَّيخ باقر القاموسي اهتماماً في الخلافات الجانبية، بين المرجعيات، أو بين الأفراد، فأراد مِن السَّيد صالح الحلي القراءة في مجلسه، سواء أرضي المرجع أبو الحسن أم لم يرض. ولمنزلته ليس هناك مَن يتمكن مِن معارضته، فهو إضافة إلى أنه رجل مجتهد مِن تلاميذ المجتهد قُلي، وهذا بدوره مِن تلاميذ صاحب المكاسب مرتضى الأنصاري، وتلك ميزة بحد ذاتها، وصادرة مِن مرجع كبير متفرّد في المُرجعية، كان تاجراً متمكناً مادياً، وما لهذا مِن أثر في النُّفوس. فأُشيع أن صالح الحلي سيقرأ في بيت القاموسي أيام عاشوراء لتلك السَّنَّة.

سمع أبو الحسن الأصفهاني بالأمر، وأن فلاناً ينوي كسر فتواه في صالح الحلي، فعمد فجراً وارتدى كامل ثيابه ووضع عباءته على رأسه، كي لا يعرفه أحد مِن المارة، واتجه إلى دار القاموسي، وأن نهار اليوم سيُعقد أول مجلس فيها يُحييه السَّيد صالح الحلي، فطرق الباب وفتح القاموسي له، فوجد نفسه وجهاً لوجه مع المرجع الكبير أبي الحسن الأصفهاني، وكانت مفاجأة له لم يتوقعها، أن يطرق على بابه المرجع الأعلى فجراً. فقال له: تفضل سيدنا!

قال الأصفهاني، بعد أن رفع طرف العباءة مِن على رأسه، لم أتِ لأجلس، إنما أتيت لتذكيرك بالآتي، وأشار إلى عمامته وجلبابه وعباءته: هذه العِمامة عِمامة جعفر بن محمد (الإمام الصَّادق)، وهذا الجلباب جلباب جعفر بن محمد، وهذه العباءة عباءة جعفر بن محمد. إذا أنت تُريد أن تُهين جعفر بن محمد فأنت حرٌّ! والسَّلام.

كان المتفق أن يعقد القاموسي المجلس ويُحييه صالح الحلي، والنَّاس أخذوا خبراً وسيأتون بأعداد كبيرة، فجمهور الحلي لا يوصف بكثرته. فبعد أن ذهب المرجع، قام القاموسي بقفل باب داره، وأخذ المفتاح عنده كي لا يفتحه أحد غيره. فهرع النَّاس على أمل سماع قراءة الحلي، إلا أن صاحب الدَّار وقف في البلكون وأخذ يُخاطب القادمين: آسفين لا يوجد مجلس عندنا! وانتهى الأمر. أتيت بهذه الحكاية لأبين قوة المرجع وهيبته في النُّفوس مع عظمة

وحظوة الخطيب صالح الحلي إلا أنها لم تنفعه في الصِّراع مع المرجع.

استفاد المراجع الآخرون مِن هذا الصِّراع، الذي كان أبو الحسن أحد أقطابه، ومنهم السَّيد محسن الحكيم. نقل لي الشَّيخ قاسم محي الدِّين، أحد الأجلاء المحترمين، مِن أُسرة آل محي الدِّين، بالحرف الواحد: انزعج أهل الحِلة مِن السَّيد أبو الحسن الأصفهاني لفتواه ضد صالح الحلي، وكانوا يتعصبون له.

فجاء منهم وفد إلى النَّجف يسألون هل هناك مجتهد عربي بالنَّجف يصلح أن نقلّده؟ وكانت هناك دعوة لمرجعية السَّيد محسن الحكيم، لكن مرجعية الأصفهاني لا أحد يجرؤ التقدم عليها، لأن زعامته كانت تغطي الأجواء كافة، وتمنع مِن بروز مرجع آخر. والكلام لمحي الدِّين: فقيل لوفد أهل الحِلة هناك مرجع، فسألوا عنه فقيل لهم: اسمه محسن الحكيم، فذهبوا إليه وأخذوا يقلّدونه.

أظن أن مرجعية الحكيم بدأت مِن هناك، ثم صار له مقلدون ببغداد، مثل السَّادة الحسينية آل بو عيسى، بدأوا يقلّدونه وصاهروه، فزوجته أم السَّيد يوسف والسَّيد محمد رضا مِن السَّادة آل بو عيسى.

في ذلك الصِّراع دخل السَّيد صالح الحلي تحت جناح الشَّيخ أحمد كاشف الغطاء (ت 1926)، وكان بداية التَّعصب العربي له. صار هناك نوع مِن العصبية بين المشايخ والسَّادات داخل النَّجف.

فكان هناك شاعر اسمه مهدي الحجار، قال شعراً ينبز فيه السَّيد أبا الحسن الأصفهاني، ما معناها: هل وجدتم في قرآنكم «بغمبر أويا خوي»؟! وكان يعني بغمبري رسول اللّه. بمعنى أن القرآن عربي فمِن أين أتى العجم. لكن الواقع غير هذا تماماً، فقد كان المال يأتي إلى المرجعية مِن بلاد العجم لا مِن بلاد العرب، وأعني بذلك دفع الخُمس.

أخبرت مرة مِن المرات السَّيد مرتضى العسكري، وهو أحد وكلاءِ السَّيد محسن المبرزين، ومِن ذوي الشَّأن عنده، عن حاجتي فأنا أُعدّ مِن القراء ليس لي مصدر مادي، وقلت له: هنا ألاحظ أُناساً لا يُقاسون بي، أقل مِن درجتي كثيراً، لكنهم أصحاب مكانة لدى المرجع، وأعني السَّيد محسن الحكيم، على ما قال الشَّاعر الطَّغرائي[1] في لامية العجم:

تقدمني مَن كان شوطهم وراء خطوي إذا أمشي على مهلٍ

فقال لي: سيد طالب لا تروح بعيداً، إن خمسمائة دينار عراقي تأتي بها إلى المرجع، من الحقوق، تصبح لك عنده منزلة، كأن اهتدى بك مائة نفر! هذا ما سمعته نصّاً مِن السَّيد مرتضى العسكري، وهو مسؤول عنها، وإذا كانت هذه المعلومة كفراً فأنا ناقل الكفر، وناقل الكفر ليس بكافر.

---

(1) مؤيد الدِّين الحسين بن علي الأصفهاني الطغرائي، وزير وشاعر وله في مؤلفات في الكيمياء، توفى السَّنة 513 هـ، واشتهر بقصيدته: لامية العجم.

في الحوزات الدِّينية كان الأعاجم هم الأغلبية، وما يخصّ الصَّرف على العتبات المقدسة مِن تذهيب القباب، وفرش الأروقة بالسِّجاد الفاخر كان يأتي مِن بلاد العجم أيضاً. فقد ذُكر لي أن أم عبدالواحد آل حاج سكر، وهم شيوخ آل فتلة، قالت: بس العجم يحيكون زوالي (سجاجيد) ويهدونها إلى الحضرة العلوية! فكان عندها غزل (صوف مغزول)، وطلبت حياكة سجادة فخمة جداً كي تُضاهي بها سِجاجيد العجم، وظلّت الحائكات يحكنَ فيها لفترة طويلة، حتى أُنجزت السِّجادة (العربية).

طلبت مِن ولدها عبدالواحد أن يستخدم نفوذه كي تُفرش السِّجادة في الحضرة العلوية ليصلي عليها المصلون. فعرف آل فتلة وبقية العرب أن أم عبدالواحد هي صاحبة تلك السِّجادة، فكلما راحوا يزورون يتجمهرون حولها، فضاق القائمون على خدمة الضريح مِن ذلك، فنقلوها إلى خزينة الهدايا وسمّوها «خليجة الحجية»، فالسجادة في اللهجة العامية تُسمى خليجة. بينما الأعاجم كانوا يأتون بالكاشان والنَّفائس مِن الهدايا ولا تُذكر أسماؤهم فيها، ولا أحد يعرف هذه وتلك لمَن.

عودة إلى بدئه، قلنا انضوى صالح الحلي، في الصِّراع بين المرجعيات، تحت جناح أحمد كاشف الغطاء، وهو مجتهد وأحد تلاميذ الأخوند محمد كاظم الخراساني، والشَّقيق الأكبر للشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، وكان للعرب في ذلك الزَّمن عصبية له مقابل مرجعية أبي الحسن، ولما تعرّض الأخير لصالح

الحلي وحرّمَ خطابته اشتدت العصبية ضد أبي الحسن، وليس المقصود بها الوقوف مع الحلي إنما الاجتماع على ضدية المرجع أبي الحسن، وكان هذا أمراً ظاهراً للعيان.

كانت الأطراف تصرف أموالاً في هذا الصِّراع على المؤيدين. فمثلاً كان مهدي الحجار فقيراً، ناكثه الفقر نكثاً إلى درجة العدم، فبعث برسالة إلى السَّيد أبي الحسن الأصفهاني مملوءة بالتَّنابز بالألقاب، إلا أن أبا الحسن أرسل له مبلغاً لا بأس به لأجل سحبه مِن حلبة الشَّيخ أحمد كاشف الغطاء، فاستقبل الحجار المال، وأيام قليلة وأصدر أبو الحسن كتاباً يُعينه به عالماً بمنطقة ماركَيل بالبصرة، كوكيل له، وبهذا سكت الحجار ولم يتكلم ضد مرجعية الأصفاني.

نقل لي الشَّيخ عبدالرَّزاق المكَرم بأن الشَّيخ الأردبادي، على الرُّغم مِن أنه كان فارسياً، لكن لديه الرأي السَّيّئ في أبي الحسن الأصفهاني، فكان يناله في مقارض الكلام. إلا أن المال يلعب دوره في تغيير الآراء والمواقف. قال المكَرم: ذهبنا إلى سامراء وإذا أرى الأردبادي يُصلي وراء أبي الحسن!

وكان المكَرم جريئاً في حديثه ومواجهاته مع الآخرين، فقال للأردبادي، في تلك اللحظة: أي زنديق، في الأمس تشتم الرَّجل، فما حدا مما بدا حتى أراك تُصلي خلفه اليوم؟ فردَّ عليه: «شهد خمسة عدول بأنه عادل»! ويقصد أنه بعث إليه خمسة دنانير! وكنا بالعِراق نسميه: نوط أبو الخمسة! فكان مبلغاً له وزنه.

شاهِدنا كان الصَّرف قائماً، بما يؤلف القلوب وما يفرقها في خوض تلك الصِّراعات. فمِن جانبه كان الشَّيخ أحمد كاشف الغطاء يصرف على أصحابه، الذين يشايعونه في هذا المجال، ويدعون إلى مرجعيته، على اعتبار أنه كان يرى نفسه أعلم مِن أبي الحسن الأصفهاني وأقدر منه، وبأنه مِن أوصياء السَّيد محمد كاظم اليزدي (ت 1919) وتلامذته، ومِن تلامذة الأخوند محمد كاظم الخراساني (1911).

ربَّما هناك أيدٍ سياسية وراء تلك الخلافات إلى جانب ما تقدّم، سواء أكانت مِن قِبل إيران أو العراق، فالغاية هي إشغال النَّجف عنهم، وأعني عن أصحاب السُّلطة في كلا البلدين. هذا مجرد تصوري الخاص، وقد أكون مخطئاً. نقل لي السَّيد عباس المكَرم، وهو عربي: كنا في عصر السِّيد أبي الحسن ننشد مرجعية عربية، ولم نرَ أليق مِن مرجعية محسن الحكيم، على أساس أنه مرجع عربي، وكان أشدنا تعصباً لهذا التَّمهيد السِّيد سعيد الحكيم، وهو ليس مِن أُسرة آل الحكيم نفسها، بعدها أرسله السَّيد أبو الحسن إماماً بالبصرة وفي جامع الإمام علي أو مقامه.

لا يُستغرب مِن أن الخلاف حتى داخل الأُسرة الواحدة، قال لي المكَرم: كان السَّيد محمود الحكيم، وقد أدركت حياته، على جفوة شديدة مع أخيه الأصغر السَّيد محسن، ومعلوم أن الأخير عندما كان والده السَّيد مهدي بلبنان كان حملاً في بطن أمه، وولد

ولم يشهد أباه وعاش يتيماً فتولّى تربيته السَّيد محمود، وهناك آخرون لهم جفوة مع السَّيد محسن بسبب المرجعية.

مثلاً: كان السَّيد حسن الحكيم يعتبر نفسه عالماً كبيراً، وهو ابن أخ السَّيد سعيد الحكيم والد محمد تقي الحكيم، المار ذكره في أكثر مِن مكان، فكفّ بصره نتيجة كثرة قراءته في الكتب السُّود والصُّفر، وأعني الطَّبعات الحجرية القديمة، فله جفوة مع السَّيد محسن. لم أعرف حيثيات تلك الجفوة، وبقيت لسنوات بالنَّجف ولم أعرف سببها، لكن الواضح أمامنا هناك جفوة وشديدة. لم يشخّص السَّيد حسن نفسه، مِن قبل، حتى حصل أن ذهبتُ مع شيخيَّ محمد علي الخمايسي وعباس الرُّميثي إلى مجلس عزاء في المناسبة الفاطمية، وهي تعزيةٌ تُقام في مناسبة وفاة الزَّهراء، سلام الله عليها.

كان المجلس في دار السَّيد صادق ياسين الصَّعبري، وهو مِن السَّادة الصعبرية. في المجلس هناك غرفة خُصِّصت للعلماء المجتهدين، ونحن بقية المعممين، الأصغر منهم، لا نزاحمهم على الجلوس فيها، فدخل الشَّيخان الخمايس والرُّميثي إلى تلك الغرفة الخاصة، وجلسا في مكان أراهما مِن بُعد لكن لا أسمع حديثهم، فرأيت سيداً أعمى ولباسه رث، وكان هو المتكلم والبقية ساكتة سامعة، ويحرّك يديه مع حديثه كثيراً، فقلت في نفسي: مَن أجلس هذا الأعمى مع العلماء في تلك الغرفة، فظننت يقوم بإزعاجهم! هكذا كنت أنظر إليه بلا معرفة، إنه مجرد أعمى.

لما خرجنا مِن العزاء سألت الشَّيخ عباس الرُّميثي: مَن يكون هذا الأعيمي (تصغير أعمى)، مَن هو حتى كان يأخذكم حاصلاً فاصلاً بالحديث؟ فقال لي: ألا تعرفه! قلت: لا. قال: هذا أعلم آل الحكيم السَّيد حسن الحكيم. وكان يقصد أعلم مِن السَّيد محسن الحكيم. فمنذ ذلك الوقت أخذت أتطلّع باحترام وتوقير إليه، فطلبتُ منه درساً في كتاب «الرِّياض» للسَّيد علي الطَّباطبائي، وكان معروفاً بصاحب الرِّياض، لشهرة كتابه. فلما دخلت إلى داره قرأت عند عتبتها أمارات الذُّلة والمسكنة، فليس هنا أذل مِن الفقر! لما فتح الباب لي وإذا بها غرفة فوق السُّطوح، والغبار يتطاير داخلها، كان معدماً تماماً.

كنت بحاجة ماسة لعلمه، فانعقدت بيني وبينه علاقة، وأخذتُ أستفيد منه، وشاءت الأقدار أن أذهب إلى مصر ممثلاً للمرجعية (1969)، فوجدت نفسي بحاجة لعالم أعلم مني يُساعدني في حل بعض الإشكالات الفقهية والاجتهادية، فأنا بمصر ومقابل الأزهر العريق، وقبلوا بي في موسوعة جمال عبدالنَّاصر الفقهية، لهذا كنت بحاجة إلى مَن هو أعلم مني.

فلما زرت النجف طرحت الموضوع على السَّيد محسن الحكيم مباشرة، فقال لي: نفكر في تعيين أحد العلماء معك، ولم أشخّص أحداً. فلما قال لي: نُفكّر رجّحت أنه سيقبل ما سأقترحه عليه.

فذهبت إلى السَّيد حسن الحكيم قائلاً له: سأخذُك معي

إلى مصر، فسُر بالخبر، وراح وخاط له جبة جديدة نظيفة، وعدّل لحيته، المهم أخذ يتهيأ، حتى أُشيع في المجتمع أن السَّيد حسن سيذهب معي إلى مصر. فقال لي أحدهم «ماذا تفعل بواحد مِن آل الحكيم معك بمصر. ممكن يطردك ويصير بمكانك»! فقلت: هذا أُستاذي لا يفعلها معي. فقالوا: هذا حكيمي يفعلها، وأنت حُرٌّ ولك الخيار! هكذا كان يجري الحديث.

لما حان موعد عودتي إلى مصر زرت السَّيد محسن وذكّرته بحاجتي لعالم معي. فقال لي: لمَن ترجّح لهذه المهمة؟ فقلت: أرجح أستاذي السَّيد حسن الحكيم. فطأطأ السَّيد محسن رأسه، ثم رفعه وقال: أليس عندك غيره؟ وسكتَ وأنا سكتُ أيضاً. ونُسيت القضية حتى مات السَّيد حسن. فالشَّاهد هناك خلافات حادة بسبب المرجعية تؤدي إلى الإقصاء.

عند بداية وصولي إلى النَّجف، أو بعدها بسنتين، كان هناك رجل يُعرف بعبدالخالق الأفغاني، وهو الخادم الخاص للسَّيد محسن الحكيم، ولا ترى السَّيد محسن إلا ويسير وراءه هذا الأفغاني، فهو مثل ظله، في وقت أتذكر توفى الدُّكتور عزُّ الدِّين آل ياسين، وهو ابن الشَّيخ راضي آل ياسين عالم الكاظمية في زمانه، وتقرر أن يُدفن في المقبرة التي أسكن فيها، فهي مقبرة آل ياسين. فقال لي الشَّيخ مرتضى آل ياسين: أخبر السَّيد محسن الحكيم حتى يحضر التَّشييع.

كنت أعرف وجود حساسية قوية بين بعض آل ياسين والسَّيد محسن الحكيم. فالشَّيخ محمد حسن آل ياسين كان لا يرتاح للسَّيد محسن الحكيم علانيةً، ولا يُسميه باسمه إنما يسميه: ابن سيد مهدي. وبطبيعة الحال كان هذا خلافاً على المرجعية. لكن كانت هناك علاقة وثيقة بين الشَّيخ محمد رضا آل ياسين والسَّيد محسن الحكيم، إلا أن ولده الشَّيخ محمد حسن آل ياسين صار بعد وفاة والده عدواً لدوداً للسَّيد محسن، ولهذا الخلاف لم يحضر السَّيد محسن تشييع المتوفى لوجود ابن عمه.

هناك قصة طريفة تتعلق بالموضوع أودّ سردها: فكّرت مِن باب أخذ هذا الخلاف بنظر الاعتبار، وبعد أن كلّفني الشَّيخ مرتضى بإخبار السَّيد محسن، أن أذهب إلى السَّيد الحكيم مباشرة، لهذا ناديت على خادمه عبدالخالق الأفغاني، لكنه أخذ يصيح بوجهي، وربَّما اعتبرني طالباً مساعدة، فقد واجهني بخلقٍ متعجرف، وأنا لحظتها لم أسكت له، فكلت له الصَّاع صاعين، وفي داخل الصَّحن وأمام النَّاس، وحتى تناولت السَّيد محسن نفسه، بسبب خادمه هذا.

فلما وصل الخبر إلى السَّيد محسن، ولا يعرف عبدالخالق اسمي ولا أي شيء عني، فظلّت العيون تبحث عني، فما كنت أعرفه أن السَّيد محسن لن يسمح بالتَّحرش بكلبه، نقولها لتوضيح الصورة وإلا السَّيد ليس لديه كلب، فكيف يشتم ويُهان خادمه الخاص،

ففي هذا الأمر لديه حساسية قصوى، لذا أخذوا يبحثون عن اسم الشَّخص المتجاوز على عبدالخالق، ولم يصلوا حتى بعد شهور.

إلا أن شخصاً اسمه أحمد السِّماوي، الذي أعدمه النِّظام السَّابق، وهو نجل الشَّيخ حميد السِّماوي صاحب القصيدة التي عارض بها إيليا أبو ماضي في «لستُ أدري». فتعهّد السِّماوي بالكشف عن هذا الشَّخص، الذي هو أنا. كان ذلك بحدود العام 1952 والشَّيخ محمد حسين كاشف الغطاء يستعدّ للذِّهاب إلى باكستان، هو والسَّيد محمد تقي الحكيم، لحضور مؤتمر إسلامي هناك، فأقام كاشف الغطاء حفلاً بالمناسبة، وكنا طلبة نذهب إلى مثل تلك المناسبات، وأتذكّر أنه في هذا المهرجان برز اسم الشَّيخ عبدالمنعم الفرطوسي شاعراً، وكلما كان كاشف الغطاء يستحسن بيتاً مِن القصيدة يقف معبراً عن استحسانه.

عند نهاية الحفل تقدّم نحوي أحمد السِّماوي وسألني بخبث: سيّد طالب ما بك مع عبدالخالق خادم السيد محسن الحكيم، فظننته شهد الحادثة، وهو ليس كذلك! فأجبته: دع عنك هذا، وأتعجب مِن سيد محسن الحكيم يُعين مثل هذا خادماً عنده. فراح وأخبرهم خبري، بأن سيّد طالب هو الذي شتم خادم السَّيد محسن.

فحصل يوم مِن الأيام أن أصادف السَّيد محسن ومعه خادمه عبدالخالق، وكان خارجاً مِن الصَّحن العلوي، فمن الواجب أن أؤدّي له التَّحية، وأقف بين يديه، وتقدمت فقبلت يده، فهمس

بإذنه خادمه: هذا هو الشَّخص الذي فعل كذا. فأتذكر قال: سيدنا نشكركم، وانتهى الأمر عند هذا الحد.

لم يكن الخلاف والصِّراع على المرجعية بالنَّجف فقط، بل أتذكّر كنا جالسين في خدمة المرجع الكبير شريعتمداري، في مؤسسته دار التَّبليغ العلمية، أنا والشَّيخ محمد جواد مَغنية في قُم، وذلك العام 1976، وفتح حديث عن الخلافات بين شريعتمداري والمراجع الآخرين، قلت: المفروض أن يكون بين المراجع الصَّفاء والوئام، فهم ليسوا كبقية النَّاس، فخلافهم هذا ينعكس على المُقلّدين! فالتفت نحوي السَّيد شريعتمداري وقال: سيدنا لا أُريد منهم شيئاً يخصّ مرجعيتي، ولا مدحاً ولا تقديراً، أريد منهم الاعتراف بإسلامي فقط، فإنهم يشككون حتى بإسلامي! وكان يقصد مرجعية السَّيد محمد كاظم الكلبكياني.

مرجعية آل الشِّيرازي

أقصد الأسرة الشِّيرازية بكربلاء، ولا أقصد الشيرازيين الآخرين، مِن أمثال المرجع محمد حسن الشِّيرازي (ت 1895) صاحب فتوى التنباك الشهيرة، ولا المرجع محمد تقي الشيرازي (ت 1920)، الذي زامن ثورة العشرين وخاض فيها. سمعت المديح الكثير للسَّيد محمد الحسني الشيرازي، المتوفى العام 2001.

لم أتكلّم حول المرجعية الشِّيرازية لولا أن أحد الصَّحافيين اتصل طالباً مقابلتي في منزلي بمدينة توليدو وهايو الأمريكية، فسألته ما الغرض مِن الزيارة أو المقابلة قال: أنت تعرف الكثير

عن السَّيد محمد الشِّيرازي، كما حدّثني البعض، وبمناسبة وفاته طلبت المقابلة معك. قلت: نعم أعرف الكثير مثلما ذكرت عن الشيرازي، ولكن هو في نظري كالعملة النَّقدية لها وجهان، فأنت وأنا سمعنا الوجه الأول وبقي الوجه المغيب في كتمان العدم، فإذا رغبت أن تسمع مني ذلك الوجه فأهلاً وسهلاً، وإذا تريدني أقول كلمات تأبين فوفر عليك وقتك، ولا تتجشم السَّفر إلينا. فقال: أُفكّر وأرجع إليكم الجواب! فلم أسمع منه ردّاً حتى الآن.

نسيت أن أقول لهذا الصَّحفي إنه قبل مدة وجيزة انتقل إلى رحمة الله فقيهاً ومرجعاً وعارفاً كبيراً هو السَّيد عبدالأعلى السِّبزواري(ت 1993)، وكنت أنت وأمثالك موجودين هنا، فهل سمعت أن أقام له أحدٌ مجلس فاتحة أو تأبين، وأنت جنابك قد سمعت فهل: كتبت عنه سطراً واحداً في صحيفتك أو نقلت خبر وفاته؟ أقول إنه أعلى مِن السَّيد محمد الشِّيرازي في منزلته العلمية، بل فوق ذلك بكثير وكثير جداً.

بعد وفاة أبيه محمد مهدي الشَّيرازي طرح السَّيد محمد الشِّيرازي نفسه مرجعاً، وكان والده أحد العلماء المجتهدين بكربلاء، ومع ذلك فكان تقليده لا يتعدّى حدود كربلاء، وفجأة بولده يُقدّم نفسه مرجعاً وفقيهاً مجتهداً في قِبال أولئك الشَّوامخ: آل ياسين والحكيم وغيرهما، فدهش المراجع مِن ظهور هذا الشَّاب اليافع وتصديه للمرجعية بعد وفاة والده، وهو لم يكن مِن

أهل الاجتهاد حينها، فالسَّيد محمد الشِّيرازي لم يأت إلى النَّجف ولم يحضر بحوث أساطين علم أُصول الفقه.

فأنا وغيري مِن شباب الحوزة الدِّينية آنذاك كان لنا موقفنا السِّلبي مِن مرجعية الشِّيرازي الابن، لكنه أخذ يتمدّد في مرجعيته على الرَّغم مما لدينا مِن مواقف سلبية نحوه لا كشخص إنما كعلم واجتهاد إلى أن بلغ عدد كتبه حين وفاته المئات التي لا أرى حاجة في وصفها، فأهل العِلم يعرفونها حق المعرفة مهما بلغت كميتها، وتعددت موضوعاتها المعرفية.

قد يستكثر القارئ هذه الشَّهادة في حق الرَّجل المذكور، وربما يتّخذ موقفاً يتناسب معه إيجاباً أو سلباً، فله الخيار في ذلك. لكن الحقيقة والواقع أُدلي بشهادتي بأني ربَّما أقول قد ظلمت الرَّجل بمقدار ما رأيت الذين برزوا هذه الأيام وأعلنوا عن مرجعياتهم، أمثال الشَّيخ عفيف النَّابلسي (لبنان)، والشَّيخ عبداللَّطيف البري (أمريكا- ديترويت) ولآخرين، ممَن امتلأت بهم السَّاحات في الحوزات الدِّينية، الذين تصدوا للمرجعية بغير حق.

فإذا نظرنا في مرجعية محمد الشِّيرازي، وقد استمرت نصف قرن، والرَّجل يراجع ويقرأ ويدرس وبمرور هذا النصف قرن لعله وصل درجة مِن العِلم تؤهّله أن يكون على عتبة الاجتهاد، أي العلم البدوي، فأول المطر قطر، وليس الاجتهاد المطلق. فأقول في السَّيد الشِّيرازي، كي أكون منصفاً أن رأيي باجتهاده

مثلما تقدّم، لكنه في الورع والتَّقوى والزُّهد يعتبر في المقدمة مِن الفقهاء المجتهدين.

أما مَن هم دون السَّيد محمد الشِّيرازي بمراتب وأخذوا يتصدّون للمرجعة ويشتهرون، بلا حق، في الاجتهاد، فينطبق عليهم قول الشَّاعر(1):

لقد هزُلت حتى بدا مِن هُزالها

كِلاها وحتى سامها كلُّ مفلسِ

كنت في زيارة إلى البحرين، بدعوة كان الفضل في ترتيبها يعود لسفير البحرين العام 1974 الأديب تقي البحارنة، وصادفت زيارتي شهر رمضان، فرُتبت لي محاضرات في بعض المؤسسات، وأقيمت في ذلك الوقت أربعينية المرجع محمود الشاهرودي مِن قِبل مجموعة مِن الإيرانيين المقلّدين له، ووجهت لي الدَّعوة للمشاركة، وهنا كان عدد مِن المروجين لمرجعية السَّيد محمد الشِّيرازي، فقد التفّت حوله مجموعة مِن الشَّباب الأغرار، وكان في ذلك الوقت موقفاً شديد السِّلبية مِن مرجعية هذا الرَّجل، فجاءت كلمتي ملأى بالحماسة والتشريح والتَّجريح بهذا المستوى مِن المرجعيات، التي لا تمتلك المؤهلات، التي تضعها بهذا المستوى، لكن ذلك كان قبل وفاة الرَّجل بسبعة وعشرين عاماً.

---

(1) بيت ضمّنه أبو علي الحسين بن سعد الآمدي (ت 444هـ) في قصيد له (الحموي، معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس 3 ص 1063):

تصدر للتدريس كلُّ مهوس   بليد تسمَّى بالفقيه المدرسِ

فحق لأهل العِلم أن يتمثلوا   ببيتٍ قديمٍ شاع في كلِّ مجلسِ

فضل الله وشمس الدِّين

أنا صديق الاثنين، السَّيد محمد حسين فضل اللّه (ت 2010) والشَّيخ محمد مهدي شمس الدِّين (ت 2001)، وكنا في أعمارٍ متقاربة، وربَّما كبرتهما بسنة أو سنتين. كان الوئام والإخاء والتَّفاني قائماً بين الاثنين في أثناء وجودهما بالنَّجف. كنت أراهما معاً في درس الخارج عند الشَّيخ عباس الرُّميثي والسَّيد الرُّوحاني، ومذاكرتهما الدراسية معاً، بل ما بينهما أكثر مِن علاقة كلٍّ منهما بإخوانه الصُلبيين. وبعد أن تركا النَّجف إلى لبنان ظلّت، بحسب ما بلغني، العلاقة وطيدة بين الاثنين.

عندما أزور لبنان أنزل في ضيافة السَّيد فضل اللّه أولاً لأنه صديق، وثانياً لوجود محل للضيافة عنده، فأحياناً يأتي إلى غرفتي وأطرحُ عليه بعض الأمور، وأطلب منه تبنيها أو يحاول عرضها على المرجعية بالنَّجف لتبنيها، فكان يقفُ بهيئة الاستعداد ويقول مازحاً أنا جاهزٌ للمحاكمة تفضل! فكان يقول لي: سأتداول الأمر مع الشَّيخ أبي إبراهيم، يقصد محمد مهدي شمس الدِّين، هكذا كنت أسمعه منه.

قال لي في أحد الأيام: إن الشَّيخ محمد شمس الدِّين تقدّم بطلبٍ منك! قلت: ما هو! قال: أن تحلَّ في يوم الجمعةِ عنده للعشاء والمبيت. تمَّ ذلك وسهرنا أنا والشَّيخ حتى صلاة الفجر. كذلك إذا طرحتُ عليه قضيةً ما، يردّ قائلاً: سأتذاكر ذلك مع السَّيد أبي

علي، ويعني محمد حسين فضل الله. هكذا كانت الأحوال بينهما أنقلها كما هي يقيناً وجزماً ومِن معايشة.

لكن عندما كنت بأمريكا، وهي مرحلة ما بعد مصر بالنِّسبة إلي، أخذَتْ تصلُني أخبار تخالفُ انطباعي عمَّا بين السَّيد والشَّيخ، أسمعه وأنفي ما أسمع، وأقول: ما هذه إلا إشاعاتٌ مغرضةٌ. حتى حصل أن جاء الشَّيخ شمس الدِّين زائراً إلى أمريكا، في حدود العام 1995، وكنت حينها في زيارة قصيرة إلى كندا، فهاتفني جماعة أن أحضر لاستقبال الشَّيخ، فاعتذرت بسبب وجودي خارج أمريكا.

حصل أن طلب الشَّيخ زيارة مؤسستي هناك، فعدتُ وجمعنا بعض الشِّيعة للاجتماع به، فعاتبني لعدم وجودي في استقباله عندما وصل إلى أمريكا، فاعتذرت بالسَّفر. كان الآخرون يُطلقون عليه لقب الإمام، أما أنا فأعبّر عنه بالمفكر الإسلامي والحُجة وهكذا، وجلس معي في مكتب المؤسسة، ومن ثم ذهب للقاءٍ له بكنيسة، وافترقنا ولم أفتح معه ما حصل بينه وبين فضل الله.

بعدها ذهب إلى مدينة نيويورك وألقى خطاباً في مؤسسة السَّيد أبي القاسم الخوئي هناك، فوجّه أحدُهم سؤالاً له: ما رأيك بالسَّيد محمد حسين فضل الله؟ فأجاب، ما ليس على عادته، قائلاً: هذا قاتل، هذا يلوغ بدماء المسلمين، هذا سفاح إلى غير ذلك مِن النُّعوت! ولما وصلني خبر هذه الكلمة لم أصدقها، فقيل لي: تأتيك مسجلة. وللأسف كانت صحيحة.

لقد وصل الحال أن أخ الشَّيخ عبدالأمير شمس الدِّين عندما دخل فضل اللّه إلى مجلس الفاتحة على روح الشَّيخ مهدي شمس الدِّين أخذ يصرخ: خالفتم وصيةَ أخي. على أساس أنه أوصى ألا يحضر فضل اللّه مجلس العزاء به. فقام نبيه بري وأسكته، وكان ذلك في مجلس الفاتحة المقامة على روح الشَّيخ محمد مهدي شمس الدِّين.

على قاعدة الشَّيء بالشيء يُذكر أن هناك ما نقل من فتاوى للسَّيد محمد حسين فضل اللّه مِن نمط أن التَّدخين لا يُبطلُ الصّوم، فهذه الفتاوى والآراء وغيرها هي بالأساس لشيخنا وأستاذنا، أنا وفضل اللّه وغيرنا، الشَّيخ عباس الرُّميثي، فإنه أجاز الدُّخانَ في رمضان، وكنت أجلس معه وأراه يُدخن وهو صائم.

أما أنا فأدعو السَّادة الفقهاء مِن أئمة الشَّريعة إلى حماية الملايين مِن خطر الدُّخان، وتحريمه في رمضان أو غير رمضان، بعد أن قرأتُ تقريراً علمياً يقول: التبغ يقتل نصف مَن يتعاطونه تقريباً! فلا بدَّ من أن يحدث تغييرٌ كبيرٌ يُدهشنا به العلماء المجتهدون مِن النجف وقُم والأزهر، وجامعة الزَّيتونة وغيرها مِن المؤسسات والمراكز الدِّينية، أن تنطلق فتاواهم في حُرمة التَّدخين.

هناك علماء دين كبار أدمنوا على الدُّخان، وربَّما كان أبرزهم السَّيد أبو القاسم الخوئي، والسَّيد محسن الحكيم، الذي توقّف عنه بعد أن أصيب بمرض. كان الفضل في حمايتي مِن

التَّدخين منذ بداية حياتي، هو إصابتي وأنا طفلٌ صغيرٌ بمرض، وأن بعض العجائز نصحت أمي أن تسقيني حليباً مغموساً بالتبغ، فكرهت رائحته ومذاقه إلى يومنا هذا. فالحديث يقول: «لا ضرر ولا ضرار»، فالضرر ما يضر به الإنسان نفسه، والاضرار بالاستطراد إلى الآخر، وفي حال الدُّخان هم المتضررين مِن دخان المدخن!

كذلك لشيخنا عباس الرُّميثي بجواز حلق اللحية، حتى إن الشَّيخ محمد رضا آل ياسين قال لأبناء آل ياسين، مِن الأفندية غير المعممين، وقد حلقوا لحاهم: قلّدوا الشَّيخ عباس الرُّميثي فإنه يراه كراهية. كذلك كان الشَّيخ الرُّميثي يقول في طهارة الخمر، إنه حرام شرابه، لكنه ليس نجساً. قالها الرُّميثي ونحن كنا ندرس في المقدمات، أي في الأيام الأولى مِن الدراسة الدِّينية في بداية عقد الخمسينيات مِن القرن الماضي.

تعديل المرجعية وإلا

عندما أقول إن المرجعية تتآكل، أقصد أنها إذا لم تُساير الزَّمن، وتقلبات الحدثان، فإنها ستتآكل، وأشك في استمرارها بعد حين وسط هذه التقلبات الجامحة في العالم وفي المنطقة. فالنَّاس مِن أبناء الطَّائفة الشِّيعة يتساءلون عن قضية تحديد هلال رمضان وشوال، متى يتفق المسلمون على هلال واحد، بل متى يتفق المراجع على هلال واحد، فالاختلاف الآن بين مراجع الدِّين بمدينة واحدة.

كذلك هناك تساؤل مُلِحٌ حول الحقوق الشَّرعية، أين تُصرف وما هي فائدة الشِّيعة منها، وتساؤل آخر مُلِحٌ أيضاً عن دور الأبناء ونفوذهم في المرجعيات، ويأتي بعده نفوذ الأصهار والمقربين والحواشي على العموم، كلها أسئلة بحاجة إلى إجابات مقنعة، ونحن نعيش في عصر مختلف عن مرجعية السَّيد محمد كاظم اليزدي (ت 1919)، فأرى الزَّمن سيجعل المرجعية تضطر إلى تعديل نفسها بنفسها وإلا تآكلت واضمحلت!

الفصل الثَّاني عشر

إمام الشِّيعة بمصر

بدأت محطة أخرى في حياة صاحبنا، فهو صار إمام الشِّيعة بمصر، هكذا أخذت المؤسسات الدِّينية والرَّسمية تُسمّيه، وما هي إلا فترة قصيرة ويتخذ وزير الدّاخلية شعرواي جمعة قراراً بتسفيره، ويحميه مِن تنفيذه جمال عبدالنَّاصر، ثم يأتيه ما هو ليس في الحسبان أن تنتصر الثورة الإسلامية بإيران ويأتي الشّاه معزولاً إلى القاهرة، ويموت فيها، ولم يجدوا سوى طالب الرِّفاعي يُصلّي على جنازته، فكثر الخصوم، وصار اسمه على كلِّ لسان.

عاش بالقاهرة نحو ستة عشر عاماً (1969–1985)، تزوج امرأة مصرية، وافترقا في ما بعد، وما زالت المفردات المصرية جارية على لسانه بلا قصد. وحدث أن تقابله الصَّحافية سلوى حجازي، وتسأله ماذا يحب أن يستمع من أغاني السّيدة، وليس هناك رفض، فقال إذا كان كل ولا بد فأغنية «إلى عرفات الله»، فاجتمعت على صاحب العمامة السَّوداء بلوتان أو مثلبتان حسب تصور خصومه من أهل العمائَم أيضاً: الصَّلاة على جنازة الشَّاه (الكافر) وطلب أغنية لأم كلثوم! فشهّر به مَن شهّر قائلاً: كيف بعالم دين يمثل المرجعية الشِّيعية يطلب الاستماع إلى الأغاني!

قال: بعد أن وضعتُ قدمي على تُراب مدينة العِلم بالنَّجف الأشرف، بدأت أُؤسّس مكتبةً شخصيةً في غرفة المقبرة، مثلما مرَّ بنا الحديث عنها، اتجهتُ إلى اتخاذ مثال لي في حياتي، فوجدت في جمال الدِّين الأفغاني(ت 1897) مثالاً، فكنت معجباً

كلَّ الإعجاب بهذه الشَّخصية، ولما كان خليفته محمد عبده(ت 1902) اتجهت إليه مثالاً لي مِن بعده.

فأخذت أقرأ كلَّ ما يتعلّق به، فقرأت «تفسيره»، وكتاب «العقيدة» وغيرها، فصرت مِن المتأثرين بالشَّيخ محمد عبده، وما زاد مِن تعلقي به أنني كنت جالساً والسَّيد محمد باقر الصَّدر في بيته، وجاء ذِكر محمد عبده، الصَّدر لفت نظري قائلاً: إن محمد عبده كان شيعياً. ففكرت أن ذلك كان مِن النَّاحية العاطفية أما مِن النَّاحية العقلية فلا.

فقلت للصَّدر وما الدَّليل على شيعية الشَّيخ محمد عبده؟ قال: كلامه! قلت: أين ورد كلامه؟ قال: في شرحه على العضدية[1]، وهي مشروحة من قِبل أكثر مِن واحد، وأن محمد عبده وضع تعليقه على الشَّرح. قلتُ: وماذا جاء في التَّعليق؟ قال: لما جاء على الفِرق السَّبعين أو الاثنين والسَّبعين، فقال: تفترق[2] أمتي على كذا مِن الفرق؟ فقلت: وما في ذلك؟ قال: إنها كلمته الأخيرة، فقد قال: ولعلَّ ما يقوله الدَّاماد أقرب إلى الحقيقة. ومعلوم أن الدَّاماد كان أحد أقطاب العهد الصَّفوي، ويُسميه الشِّيعة العقل الحادي عشر. قال الصَّدر: مِن هذا استنتجت على شيعية محمد عبده.

---

(1) رسالة العضدية، مختصر المنتهى في الأُصول، لابن الحاجب عضد الدين الإيجي (ت 756 هـ).

(2) مير باقر الداماد، وقوله إن جميع الفرق المذكورة في الحديث، حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، هي فرق الشيعة، وأن الناجية منهم فرقة الإمامية.

لم أكتفِ بهذا، إنما أخذت أبحث في العضدية فقرأت ما نقله لي باقر الصَّدر، لذا صرت متعلقاً عاطفياً بمحمد عبده أكثر من السَّابق. كذلك أن تلاميذ الشَّيخ ساروا على طريقه مثل الشَّيخ سليم البشري (ت 1916)، والشَّيخ محمود شلتوت (ت 1963)، فكلُّ هؤلاء شدّوني إلى مصر. فأنا ثقافتي شمولية، أُطالع الفقه والأدب وغيرهما مِن مجالات المعرفة. ففي الأدب كانت كتابات محمود عباس العقاد قِبلتي، وكنت أقدّسه في مجال الأدب، وقرأت أكثر ما خطه قلم العقّاد، فصارت لي صلةٌ به.

أتذكر كنت في مدينة الحمزة الشَّرقي العام 1964، التابعة للواء العمارة، وأنا هناك سمعت المذياع يُنعي العقاد، فشعورياً جلستُ وكأن رجليَّ لم يعينا ني على الوقوف. وبعد العقاد اتجهت إلى قراءة عائشة عبدالرَّحمن (بنت الشاطئ)، وقراءة أمين الخولي زوجها، وكنت أقرأ كلَّ ما يكتبه الخولي. لقد أعجبتني في العقاد عبقريته، وشموليته في المعرفة، كان بالجملة في نظري عملاقاً.

بعد هؤلاء ارتبطّتُ بطه حسين (ت 1973)، عشقته إلى حد ما، وخصوصاً في كتابه «الأيام»، وما تقدم مِن حديثي كنت شريكاً مع السَّيد حسين بحر العلوم في غرفة واحدة داخل مدرسة القوام بالنَّجف، وبعد الدرس نتجاذب أطراف الحديث. كنت أقول له: كنا ننتقد أسلوب الأخوند محمد كاظم الخراساني، صاحب كتاب «الكفاية» لتعقيده. فرد السَّيد حسين: لو كنتُ مبسوطَ اليد، وعندي وفرة مِن المال، كبقية المراجع، لأتيت بطه حسين إلى العِراق،

وأجعله يدرِّس في الحوزة، إلى أن يُكملَ كتابِ «الكفاية» باتقان، ثم أقول له: أعِد صياغة الكتاب بأسلوبك، أُكتبه بأسلوب كتاب «الأيام». بعدها تكون مهمته قد انتهت.

بعدها صارت لي علاقات بالوافدين المصريين إلى العِراق، مِن علماء الأزهر، الذين عملوا في كلية الحقوق ببغداد وكلية الشَّريعة، وكنت ألتقي بهم، مثل المتولي عبدالباسط، ومحمد الذَّهبي، الذي قتله الإرهابيون وهو وزير أوقاف. صارت مصر، مِن خلال هؤلاء، شيئاً بالنِّسبة إليّ. فكنت أسأل: كيف الوصول إلى القاهرة؟ فقالوا: الطَّريق سهلة، تذهب إلى لبنان وتأخذ الباخرة وتصل عبر البحر خلال يوم أو يومين لا أكثر.

أما سلامة موسى (ت 1958)، وهو أحد الكبار أيضاً، فقد قرأت له ووجدتُهُ خطيراً وخطيراً جداً فحذِرت مِن قراءته، فهو يسري في فِكر الإنسان سريان الدَّم في جسده! وأتذكّر جيداً أنه عندما توفى سلامة موسى، هرع إليّ السَّيد إسماعيل الصَّدر، شقيق محمد باقر الصَّدر، قائلاً بلكنته المميزةً: «سيّد طالب، سيّد طالب، هلك سلامة موسى، هلك سلامة موسى إلى صقر وبئس المصير»! لهذا لم أقرأ لهذا أكثر مما قرأت خشية مما سيسري في فكري، تلك مخاوف الشَّباب وبدايات الطَّريق[1].

(1) جاء ذلك تعليقاً على سؤالي له: أقرأت لسلامة موسى، فقال ما تقدم. فقلت له: لو قرأت له عقلي وعقلك.

مصر أمنيتي

كان السَّفر إلى القاهرة أمنيتي وأُمنية السَّيد حسين بحر العلوم أيضاً، فقررنا الذِّهاب إلى سورية ومنها نسافر إلى مصر، في وقت ما، لكن الظُّروف لم تساعدنا. فلما تخرجت مِن كلية الفقه بالنَّجف، ضمن الدُّفعة الأُولى، طمحت إكمال دراستي بالقاهرة، ففي العام 1967 أخذت شهادتي من الكلية المذكورة وصادقتها مِن جامعة بغداد، فقد اعتُرف بكلية فقه النجف في العام 1959، وتلك حسنة مِن حسنات عهد عبدالكريم قاسم أن اعترف رسمياً بهذه الكلية، وقد ساعد في إخراج ذلك هديب آل حاج حمود، وكان مؤثراً في ذلك الوقت، كان عبدالجبار عبدالله (ت 1969) رئيساً لجامعة بغداد، وهو مِن طائفة الصَّابئة المندائيين، كان الأخير عملاقاً بحق، أحترمه جداً، وقد آذاني كثيراً ما حصل له مِن ألم بعد انقلاب 8 شباط (فبراير) 1963[1].

على أية حال صدّقت شهادتي في الدَّوائر المختصّة وسافرت إلى القاهرة، وكان المجمع العلمي المصري يعقد مؤتمره هناك، وكان الدُّكتور عبدالرَّزاق محي الدِّين والسَّيد محمد تقي الحكيم مشاركين في المؤتمر، مع وفود مِن أنحاء العالم العربي، فقلت: أستغلُّ وجود عبدالرَّزاق محي الدين كي يساعد في تقديم أوراقي إلى الجهات المصرية، فله علاقاتٌ كثيرة هناك. سألت عنه فقيل

---

(1) عالم في الفيزياء، مِن الطائفة المندائية بالعِراق، رئس جامعة بغداد (1959-1963)، أُعتقل إثر إنقلاب شباط (فبراير)، وتوفى 1969.

لي إنه نازل في فندق الخيام بالقاهرة، وكان هو رئيس المجمع العلمي العِراقي حينها، فذهبت إلى الفندق فقالوا: لم يصل بعد.

انتظرت قليلاً فجاء السَّيد محمد تقي الحكيم فزرته، وأخبرته بما أنا نويت عليه للدَّراسة بالقاهرة، فقال: عبدالرَّزاق موجود. فقلت أذهب وأعود صباحاً، ولا أزعجه فربما ما زال نائماً أو مشغولاً. نزلت في فندق فلسطين، وعدت إلى مقابلة الدُّكتور عبدالرَّزاق الساعة السَّابعة، وانتظرت حتى الثَّامنة مقابل غرفته، فلمحته قد خرج، وكان يرتدي ثياب النَّوم البيجامه.

فدخلت عليه، فقابلني بالسُّؤال العِراقي المعروف: شكو ما كو! فقلت له: قدِمت إلى القاهرة للدَّراسة في دار العلوم لتحضير الماجستير فيها، وأريدُ القبول مِن هذه «الصلعة» و(طبطبت) على صلعته! فأجابني: تدلّل سيّد طالب، لدينا مشوار أنا وتقي الحكيم وتعال معنا، وبعدها سنذهب سوياً إلى دار العلوم.

ذهبنا معاً إلى موعده مع وكيل جامعة الأزهر الدُّكتور عبدالسَّلام، وذهب الحكيم إلى المكتبات واشترى كتاب «الأُصول» للبزدوي، وهو مِن أهم كُتب الأُصول عند السُّنَّة، ثم ذهبنا إلى دار العلوم، وأول مرة أراها، وتقع في شارع المنيرة بالقاهرة، المتفرع مِن القصر العيني. دخلنا وراء عبدالرَّزاق محي الدِّين، وكان وزيراً في الدَّولة العِراقية في زمن عبدالرَّحمن عارف، وهو خريج دار العلوم، فأخذوه بالأحضان، وكان أحد الموجودين الأديب بدوي

طبانة. فسألنا عن العمادة، فقال عبدالرَّزاق للعميد تمام حسان: أتيتكم بهدية! هذا السَّيد هو خريج كلية الفقه بالنَّجف، ويعتبر مِن عُلماء النَّجف، وأحبَّ أن يواصل دراسته العليا في كلية دار العلوم.

طلب العميد الأوراق، فسلّمته شهادتي، وعقد مجلس الكلية اجتماعاً سريعاً، وخلال نصف ساعة، جاء العميد مستحصلاً قرار أو موافقة مجلس الكلية، وبهذا دخلتُ في السَّنة التمهيدية للماجستير[1].

كيف صرتُ وكيل المرجعية

أخذت أتردّدُ على مصر، بين فترة وأخرى، وتعرفت هناك إلى بعض الشِّيعة المصريين، بعدها أصبحت وكيلاً، أو ممثلاً، للسَّيد محسن الحكيم بمصر، وقصة ذلك: أن ذهابي إلى مصر كوكيل مرجعية كان بفضل الحاج أحمد القندرجي، فهذا الرَّجل صاحب محل لتصليح الأحذية بالنَّجف. يُسافر إلى مصر على الدَّوام، مثلما يُقال (للأناسة)، بالطَّريقة الشَّرعية، وتزوج شابة مصرية عمرها نحو 14 ربيعاً بينما كان هو في السَّبعين مِن عمره.

فصارت، مِن خلال سفراته المتكررة، صِلات مع الشِّيعة بمصر، وخصوصاً بالحاج أحمد خضرا والحاج توفيق برغل، وهما شخصان وجيهان بين الشَّيعة بمصر، وأصلهما مِن لبنان، فتذاكرا

(1) انهى مرحلة الدِّراسة في كلية الفقه بالنَّجف (1962)، والماجستير من جامعة القاهرة- كلية دار العلوم في موضوع «أُساليب التوكيد في القرآن الكريم»(1976)، والدُّكتوراه في موضوع «نحو الخليل- دراسة وعرض» (1981)، وكان المشرف على الرِّسالتين الدُّكتور علي النَّجدي ناصيف.

الأمر مع أحمد القندرجي، وقال لهم: لماذا لا يأتي وكيل للمرجعية يُدبّر أُموركم الفقهية هنا، ويدير مناسباتكم الدِّينية؟ فقال له: وكيف نأتي بعالم دِين مِن النَّجف؟ قال لهما: هذه بسيطة، أكتبوا رسالة، أو خطاب، إلى المرجع السَّيد محسن الحكيم، فيرسل لكم ممثلاً عنه. فكتب أحدُهما كتاباً وبعثه بيد أحمد القُندرجي إلى السَّيد الحكيم، وهذا سلمه إلى مكتب الحكيم بدوره.

كنت أتردّدُ على أحمد القندرجي، فدكانه كان تحت كلية الفقه بالنَّجف، يتبع لوقفية منتدى النَّشر. في يوم مِن الأيام قال لي: سيّد طالب لي طلب عندك! قلت: تفضل. قال: شيعة مصر بعثوا معي كتاباً إلى السَّيد محسن الحكيم على أساس يرسل إلهم مرشداً أو ممثلاً عنه. فقلت: وما دخلي في الأمر؟ قال: أريد متابعة الكتاب الذي حملته من مصر إلى مكتب المرجع. فقلت: إذهب إلى بيت السَّيد واسأل عن الكتاب الذي حملته له مِن مصر.

فرد عليَّ باستغراب: أحمد القندرجي يذهب إلى بيت السَّيد محسن الحكيم! فمن يشتريه بفلس، ومَن يسمح له بمقابلة الحكيم! فأرجو أن تذهب أنت وتسأل عن الموضوع حينما تواجه الحكيم، فهؤلاء (المصريون) يلحّون بالرَّسائل عليَّ، وأنا لا أمتلك جواباً لهم! وعدتهُ بمتابعة الموضوع، والسؤال عن مصير الرِّسالة، وهو أمر بسيط.

ذهبتُ إلى السَّيد محسن الحكيم في وقت مناسب، لحظة

خروجه مِن البراني (ديوانيته) قاصداً منزله بالكوفة كعادته يومياً. دخلت إليه ووجدته جالساً بمفرده، وكنت أشعرُ بمحبته واحترامه لي، ويُقدّر نشاطي السَّابق في العام 1958، ويعلم أني في «حزب الدَّعوة» أيضاً. قلت له: سيدنا هناك قضية خاصة بالشِّيعة بمصر، وقد بعثوا إلى جنابكم رسالة فهل وصلتكم؟ قال: نعم. قلت: حملها أحمد القندرجي، وهو كلفني أن آتي له بالجواب، والشِّيعة هناك يلحّون عليه! وأنا أُريد جوابكم كي أُخبره به، فبماذا تتفضل؟

قال: اجلس. وأضاف: مَن أبعث إلى مصر، هل ترى عندي أحداً أبعثه! قلت: مرجعية السَّيد محسن الحكيم ليس لديها مَن تبعثه ممثلاً لها، إذا قلنا نحن ذلك لا تقبلها منا! قال: نعم سأقبلها. فقلت: أرسل السَّيد محمد تقي الحكيم! فأجابني: هذا لا يذهب، ومَن أعرفه لا يذهب لا أُحرجه بالتكليف. فقلت: ابعث الشَّيخ محمد جواد آل شيخ راضي! قال: هذا أيضاً لا يذهب.

وأضاف: أنت تعرف مَن لا أُريدهم لمثل هذه المهمة كُثُر، وهم جاهزون لقبول التَّكليف. بعدها: نظر بوجهي وقال: إذا كلّفتك أنت أتذهب! فحينها ذُهلتُ، وما كنت أتوقّع ذلك. فقال: أراك سكتَّ! ولم أُجِبْ. فكررها ثلاث مرات. فقلت: أذهب بحُكم «الحكم أقوى مِن التَّكليف أي لا مندوحة مِن تنفذيه»! فقال: حكمت عليك استعد مِن الآن.

الاستعداد للسَّفر

انتهينا إلى أن السَّيد محسن الحكيم حكمَ عليَّ بالذّهاب إلى مصر ممثلاً لمرجعيته هناك، كان ذلك في العام 1969، وقال لي: أصدرتُ تكليفاً آخر إلى الشَّيخ محمد الرَّشتي للتشاور معك في الأمر، وتهيئة ما يلزم. كان الرَّشتي أحد الذين يديرون كيان المرجعية، ويسمَّون هؤلاء عادةً بالحاشية، أي حاشية المرجع، وهو يُعدّ مِن أفضل الشُّيوخ بين أترابه، ووالده الشَّيخ الرَّشتي أحد شُراح كتاب «الكفاية» للأخوند، وأحد أعمدة تأسيس منتدى النَّشر بالنَّجف، الذي نهض به الشَّيخ محمد رضا المظفر (ت 1963)، ولما أُفتتحت كلية منتدى النَّشر درسَ فيها فترة مِن الزَّمن، على الرَّغم مِن تقدمه بالسِّن. أما ولده محمد فمثلما قلنا كان مِن الذَّوات النَّقية المصفاة.

قال السَّيد الحكيم سأضمُّ إليك الشَّيخ محمد الرَّشتي للتَّشاور معه في ذِهابك إلى مصر، فقلت في نفسي: إن هذا الرَّجل مِن سعاة الخير وإنسان بسيط في طبعه، وعلاوة على ذلك أنه مِن أصل تركي لا فارسي، ليس لديه ما هو معروف ومعهود، في الغالب مِن الأحيان، عن حواشي المراجع، فقبلت به، ولو كان غيره لربَّما تعقّد الأمر، وما قبلت.

جلسنا الجلسة الأُولى للتداول والتَّشاور، وبعد انتهاء الجلسة قال لي الشَّيخ الرَّشتي، هل لديك مانع مِن انضمام السَّيد محمد

بحر العلوم إلينا؟ لنكون ثلاثة في تلك الاجتماعات. فعرفتُ أن هذه (شنشنة)، أن السَّيد بحر العلوم عَرف في تكليفي ممثلاً للمرجع بمصر ويريد أن يدسَّ رأسه! فقلت: لا مانع لديَّ، فدخل معنا بحر العلوم، ولا أتذكر ما دار بيننا فتلك تفاصيل، لكني أتذكر ما دار منها حول النَّجف.

في أحد تلك الاجتماعات، وكنت أسير مع الشَّيخ محمد الرَّشتي تحت السُّوباط، عند رأس أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، داخل مرقده، لمحنا الشّاعر عبدالغني الخضيري، وكان أحد ظرفاء النَّجف المعروفين، فلما رآني مع الرَّشتي كأنه استغرب هذا الاجتماع بين الرِّفاعي والرَّشتي، فلم تكن لديَّ صلة ما بالرَّشتي، ولا صداقة أو زمالة سابقة، فصاح بصوته الجهوري:

أيها المنكحُ الثُّريا سُهيلا عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا استقلت وسهيل إذا استقل يماني[1]

قصد الخضيري ما الذي جمع هذين المختلفين بالطبع والاهتمام، مثلما قيل:

سارت مشرقةً وسُرتُ مغرباً شتانِ بين مُشرقٍ ومغربِ

---

(1) لشاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة (ت 93 هـ)، وقيل كان يتغزّل في امرأة يقال لها الثريا بنت علي بن عبدالله الأموية، وقد تزوجها سهل بن عبدالرحمن بن عوف الزهري، فقال فيهما.

استمرت اللقاءات بيني وبين الشَّيخ محمد الرَّشتي أكثر مِن شهرين، وكنت أعتقد أنه لو اقتصر الاجتماع عليَّ والرَّشتي لانتهينا مِن المهمة خلال ثلاث جلسات أو أكثر بقليل، فبحر العلوم مِن دفعتي في كلية الفقه وصديقي في الوقت نفسه، لذا لم آخذ دخوله في اجتماعاتي مع الرَّشتي بشكٍّ مثل أنه يريد الذّهاب مكاني، لأن ذلك قرار المرجعية وليس رغبات الأفراد. كانت تلك الاجتماعات مثلما تقدّم عبارة عن تمهيد لذهابي إلى مصر ممثلاً للمرجعية الشِّيعية، بحسب تصورات المرجعية وتصوراتي. كنت أول وكيل للمرجعية بمصر، فليس هناك طلب مِن قَبل.

مع اعتقادي بأن بحر العلوم لا يريد الذِّهاب ممثلاً للمرجع بمصر، لكن اتضح لي أنه كان راغباً في ذلك، إلا أن ظروفه لا تسمح له، عرفت ذلك عندما زُرت لندن في كانون الأول (ديسمبر) 1985، وكنت جالساً في مجلس فاتحة أُقيمت على روح أحد المراجع، السَّيد نصر الله المستنبط (ت 1985)، وكان صهر الإمام أبي القاسم الخوئي على ابنته الكبرى، توفى المستنبط في حياة الخوئي، وكان مرشحاً أن يكون مرجعاً بعده، ولو عاش المستنبط بعد وفاة الخوئي ما وصلت المرجعية إلى السَّيد علي السِّيستاني، فهو المرشح للصَّلاة مكان الخوئي، وأن الأخير كان يرجع له لاعترافه باجتهاده، لكن الأقدار سارت باتجاه آخر.

في ذلك المجلس جاء محمد بحر العلوم، وما إن سلّم عليَّ حتى رمقني بنظرة فيها ما فيها مِن علامات الاستفهام. ولما أخذ

مكانه مِن المجلس أفصح عما في نفسه، فقال لي: سيّد طالب ماذا عندك بلندن، هل نحن زاحمناك بالقاهرة! فقلتُ له: هوّن عليك يا سيد محمد، إن لندن بالنسبة إليّ محطة مرور لا أكثر فأنا ذاهبٌ إلى أمريكا. لقد عاملني السيد بحر العلوم والسيد مهدي الحكيم، في زيارتي تلك إلى لندن، وهما مِن أصدقائي، ومهدي صديقي وشريكي في الدَّرب مثلما تقدّم، بما ترك في نفسي مِن الحزن والألم.

المباشرة بمصر

كان السَّيد محسن الحكيم قد حمّلني كتاب اعتماد إلى الشِّيعة بمصر، دخلتُ القاهرة ليلة العاشر مِن المحرم 1969، ونزلت في فندق أطلس مِن الدَّرجة الأُولى، فشاهدني، وأنا بعمامتي السَّوداء، بعض الطُّلاب العِراقيين في قبة الغوري، التي ذهبت إليها، وألقيت كلمةً فيها بمناسبة استشهاد الإمام الحسين، فقالوا لي: نريد منك إقامة مجلس في مرقد السَّيدة زينب، المعروفة هناك بأم هاشم، أو في مسجد رأس الحسين.

فقلتُ: سأزوركم في مسجد الحسين، أما المجلس الخطابي سيكون في مرقد السَّيدة زينب. التقيت بهم نهار العاشر، وهو يوم عاشوراء، في سيدنا الحسين، ففرغنا مِن الزيارة وتواعدنا ما بعد صلاة العصر في المجلس عند مرقد السيدة، وكانوا خمسة إلى عشرة طُلاب، جلسنا في زاوية مثل غيرنا، بلا منبر الخطابة، كان الكلام على الإمام الحسين، لا يستفزّ ولا يضرُّ أحداً.

بعد أن أدّيتُ صلاةَ العصر بدأت أتحدّثُ عن كربلاء، ومصيبة الحسين بكربلاء، وأخذ المصريون يتجمعون حولنا، فصار العدد بحدود الخمسين إلى السِّتين، ثم أتى أحدهم، وكأنه مِن آل عبدكه، وأقصد الشَّقي العِراقي المشهور، قوي البُنية، حملني إلى منبر المسجد في مرقد السِّت زينب، وقال: يجب أن يسمع الجميع هذا الحديث، ويبدو أنه كان مسؤولاً عن إدارة المسجد، واتى بمكبرات الصَّوت ووضع المايكرفون أمامي.

فارتقيت المنبر، وأنا معتمرُ العِمامة وهو مشهدٌ غير مألوف مِن قبل بالقاهرة، وبدأت أتحدّث، حتى امتلأ المسجد، وذلك في محرم 1969، فعبدالنَّاصر كان موجوداً في الحكم، ومخابراته ما زالت آنذاك تصول وتجول، فتجمّع رجال الأمن وكأن هناك انقلاب، ولسان حالهم يقول: مِن أين أتى هذا المعمم.

فجاء شيخ مسجد السِّت زينب، الشَّيخ شهلوب (رحمه الله)، ومدير المركز عمارة، فحان أذان المغرب وسكتُّ، فجاء شهلوب وأنزلني من المنبر وأخذ بيدي إلى محراب الصَّلاة، وطلب مني إمامة الصَّلاة وكان كذلك. بعد انتهاء الصَّلاة، قال: أنت بدأت الحديث عن الحسين، فبعد صلاة العشاء نريدك إتمامه عن ستنا أم هاشم السَّيدة زينب.

كان رجال الأمن مضطربين، فبعد أن انتهيت مِن الصَّلاة بالمصلين عدتُ إلى المنبر، وتحدثتُ عن السَّيدة أم هاشم، وقبل

أن يحين أذان العشاء نزلت مِن المنبر وخرجتُ مِن المسجد، والناس كانوا ملتفين حولي بكثرة، يتبركون بي، فجاء العسكر وعملوا طوقاً حولي حتى خرجتُ بشق الأنفس مِن بوابة المسجد، فأتوني بسيارة تاكسي أخذتني إلى الفندق، ولم أشهد مثل هذا المشهد في حياتي قط.

لم أستخدم طريقة قراء المنبر الحسني عند ارتقاء المنبر، إنما خطبت بطريقتي الخاصة، أعتقِد أن هناك تأييد سماوي لي في ذلك الموقف، وإلا أنا ما كنت أُحرك شفتي، وكأن الكلام كان يتدفق مِن دون جهد مني. مِن ذلك الموقف أخذت المباحث المصرية تترصدني، فقد ظهرتُ على السَّاحة المصرية بلا رخصة أو استئذان أو حتى عِلم.

كانت قبة الغروري مركز ثقافي، تُقام فيه المناسبات، يستأجره عادة الشِّيعة لقيام مناسباتهم، فليس لديهم مكان خاص، ويأتون بمتحدثين مِن أمثال الشِّيخ محمد الغزالي، وأبو الوفاء التفتزاني، وكان الأخير يحمل شهادة دكتوراه في الفلسفة، ومِن بعد صار شيخ مشايخ الصُّوفية، والشَّيخ إبراهيم بن بدران، وحيدر شيرازي، وهو شيعي مصري، ثم أنا ألقيت فيه كلمة.

معلوم أن شيعة مصر هم مِن أُصولٍ لبنانية وإيرانية وسورية، ولما أتى طالب الرِّفاعي صار كيانٌ للشيعة، فلما وصلت القاهرة صارت علاقاتي عبر مطعم يُعرف بمطعم المنظر الجميل، وأجلس

فيه بعمامتي لم أفارقها ولا لحظة واحدة. وفي يوم مِن الأيام دخل شخصان يعرفهم صاحب المطعم، وعرّفهما بي، وكانا مِن أهل التَّصوّف، لكن شعرت أن دواخلهما شيعية. أحدهما اسمه منير عفيفي، وهو أخو العميد في الجيش المصري أمين عفيفي المتزوج مِن رُقية ابنة الرئيس المصري محمد أنور السَّادات.

شرعنا بالحديث عن النَّجف والإمام علي بن أبي طالب، فوجدتهما شيعة في القلب، أي شيعة بالعاطفة، وعقليهما شيعيين أيضاً، فانطلق شيخ منير قائلاً: إني فسّرت الآية: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1]، بأنها جاءت في سيدنا عليٍّ. وما كنت أعرف ذلك، فوجدته متقدماً على شيعيتي وأنا الدَّارس بالنَّجف.

ثم قال: نحن نعمل مناسبات لآل البيت. فصادف حلول مناسبة وفاة الإمام الحسن بن علي، فقلتُ له: أنتم مهتمون بجانب الإمام الحسين، وليس لكم علاقة بالآخرين مِن أئمة آل البيت، فعلى الأقل اهتموا بأخيه الإمام الحسن. كانوا لا يعرفون سوى المولد، يسمَّون المناسبة هكذا، سواء كانت وفاة أم ولادة. فقال: سنعمل له مناسبة، عبر جمعية «أولو الألباب» وهي جمعيتهم.

زرتُ هذه الجمعية، وقرروا عقد مجلس خاص بالإمام الحسن، وأن تُلقى الكلمات مِن قِبلهم، وطلبوا مني الحضور فحضرتُ، فأُلقيت مدائح وكلمات في المناسبة، وجاء دوري فتكلمتُ. دخل رجلٌ مِن

---

(1) سورة الزُّخرف، آية: 4.

الصُّوفية في أثناء كلمتي، وكانت وظيفته وكيل وزارة، على ما أتذكّر، واسمه محمد الحسيني عبدالغفار، فلما شاهدني حسبني مطراناً قُبطياً، وأنا أرتدي جبتي السوداء وعِمامتي السَّوداء، وهي ثياب تشبه ثياب رجال الدِّين الأقباط، مع فارق عدم وجود البشت عندهم. فظن أن قَساً قبطياً يتحدّث عن الإمام الحسن، لكن قيل له: إنه شيعي. فجنّ جنونه، وقمت بالمقارنة بين سلوك الحسن والسُّلوك الصُّوفي، وبعد أن انهيت حديثي قلت: إذا كان هناك استفسار أو سؤال فأنا على استعداد للإجابة.

انبرى وكيل الوزارة، وهو على ما يبدو مِن أصل أزهري، فقال: يا جماعة نحن اجتمعنا للحب، ولا نريد شيئاً آخر يخرجنا عن هذه الدَّائرة، فأسئلة وأجوبة ستؤدي إلى الاختلاف والمشاحنات والمناكفات. لم يكن هذا قصده أبداً، إنما قصد إسكاتي. ومِن باب المصادفة أني نوّهت للحاضرين بأني سأُقيم مجلساً باسم الإمام الحسن في بيتي، ووزعت الكارت الذي يحمل العنوان عليهم، بعد أن تركت الفندق عشت في دار، ثم في شقة.

فأتوا جماعة، ومنهم شيعة عراقيون، مِن بغداد والنَّجف، وتحدثت عن صاحب المناسبة وتفرّق المجلس، إلا أن عبدالمجيد عباس، وهو وكيل وزارة في العهد الملكي العراقي، وهو رجل بسيط في معلوماته، ظل جالساً، وفي هذه الأثناء دخل رجل وهو صاحبنا الصُّوفي محمد الحسيني عبدالغفار، الذي أراد إسكاتي في المجلس السَّابق، فقمت وحييته، وظل جالساً مِن دون أن يشرب

الشَّاي، على ظن أن الشَّاي الذي قدمتهُ ليس له، فلما دعوته لشرب الشَّاي، قال بنفرة وحِدَّة: أهو لي!

طرح السؤال عن الزُّبير بن العوام وعائشة، وما حدث بالبصرة في ما عُرف بمعركة الجمل (36هـ)، فأجبته بطريقة مهذبة قائلاً: أما السَّيدة عائشة الفاضلة أم المؤمنين فنحن نعتبُ عليها لموقفِها مِن علي بن أبي طالب، وعلى اعتقادنا أن علياً ليس فيه عيب حتى تخرج عليه محاربة، وهي مِن روّاد فضائله. وأما ابن عمتنا الزُّبير (كوني سيّداً من سلالة النبي وأم الزَّبير هي صفية عمَّة النبي) فنعتب عليه أكثر، وكان مِن أنصاره، فما حدا مما بدا عندما أصبح عليٌّ خليفة لماذا تغيّر نحوه. فقال لي: لم أجد في حديثك ما هو غريبٌ، فأنا اعتقد أيضاً في مخالفة مَن حارب علياً، لكنهم صحابة لا نستطيع القول فيهم. فأجبته: إننا مجرد نعتبُ لا أكثر، والعتبُ عادةً يكون بين الأحباب!

بعد أن بقينا وحدنا نهض وأتى بكتاب القرآن، ونظر في مكتبتي الصَّغيرة، التي اتسعت إلى حِمل سبعة أطنان، في ما بعد، وكان القرآن مطبوعاً طبعة إيرانية وَزّع أيام الشَّاه، فظل يتصفح في القرآن، فيبدو أنه أراد التأكد: هل هذا هو قرآن الشِّيعة! لأنه سمع بأن للشِّيعة قرآناً خاصاً، ولم أعرف نيّته تلك إلا بعد أيام، لما بث ما في صدره لي.

عندما كثُرت التساؤلات جلبتُ له كتاب «المراجعات» للسَّيد عبدالحسين شرف الدِّين، وقدمتُ إليه دفتراً لتسجيل اسمه واسم

الكتاب وتاريخ الاستعارة. إلا أنه قال: مَن قال لك إني سأعيده إليك! فقلتُ: لا داعي للدُّخول في جدل، الكتاب مُهدًى لك! فقد شعرتُ أنه كان يبحث عن مشكلة ما معي. ففرح كثيراً، وغاب يومين، وجاء في اليوم الثَّالث، وكانَ في وضع آخر، أتاني مبتسماً، قائلاً لي: أنت إنسانٌ بسيطٌ وطيب! أنا جئتُ إلى هنا، في المرة الأُولى لأمر، ليس الاستماع للمحاضرة في مناسبة الإمام الحسن، بل أتيت لأنشب معركة معك، ونذهب إلى قسم الشِّرطة، كي أُعرّف الدَّولة المغفلة كيف تسمح بوجود شيعي يحاول نشر مذهبه في مصر. لكن لحسن الحظ أن هذا الكتاب - يقصد كتاب «المراجعات» – غيّر أفكاري وهدم أُسسي التي بنيتها ضدك مِن قَبل، وكنتُ أُقدّس رجالاً لو تزلزلت الجبال ما تزلزلت قناعتي في قداستهم.

أخذ يتحدث ويطيل في الحديث. فقال مما قاله: إني جئت اليوم لك بأخ شريكك في ما تعتقد، وهذا الكتاب أحبُّ ألا تخلو مكتبتي منه. فقلت له: إني أهديته لك. كان كتاب «المراجعات» عبارة عن جدل مع سليم البشري، وهو أُستاذ صاحبنا في الأزهر. لم أكن أهدف إلى تحويل مصريين إلى شيعة، إنما كنت طِموحاً في تصحيح ما علق في العقول عن خطأ عن الشِّيعة، أما أن أُريد عدداً أكبر مِن الشِّيعة بمصر فلا أسعى إلى ذلك.

أسّست بمصر دار أهل البيت، ومكتبة، وكان لديَّ مجلس أُسبوعي، وصارت داري معروفة، ومع ذلك واجهتني مواقف قد تكون محرجة.

في تأبين محب الدِّين

كان محب الدِّين الخطيب (ت 1969) متعصباً، وهو مِن أهل الشَّام سلفي أَموي. منذ أوائل مجيئي إلى القاهرة كنت أقرأ الصُّحف المصرية الثَّلاث الكبرى، فقرأت في الصَّحيفة أنه سيُقام تأبين، بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة محب الدِّين الخطيب في قاعة الشُّبان المسلمين في شارع رمسيس. ذهبت إلى مكان الاحتفال، مِن باب الاستطلاع ليس أكثر، وعادة عندما أدخل إلى مكان احتفال ما أُدعا إلى الصَّف الأمامي.

وجدت في ذلك الاحتفال وزير الأوقاف عبدالعزيز كامل، أحد قياديي «الإخوان المسلمين» المعروفين سابقاً، وإبراهيم الطَّحاوي رئيس «الشُّبان المسلمين»، وأساتذة جامعات. أخذ المتكلمون يتناوبون على منبر الحفل، ويفيضون بمناقب محب الدِّين الخطيب، وأنا أعلم عِلم اليقين أن الرَّجل كان طائفياً، وفي ذاته حقدٌ لا يوصف على المخالفين لمذهبه.

كان عريف الحفل يُسمى بابا مسعود، وهو مِن أهل التَّصوّف، وكان يُقدّم برنامجاً بهذا الاسم للأطفال فُعرف بـ«بابا مسعود» وضاع اسمه، وكان يعرفني مِن خلال تردّدي على المجالس التي يحضرها، ومِن تردّدي على الطَّحاوي رئيس جمعية «الشُّبان المسلمين»، ويعرفني حق المعرفة بأنني عالم شيعي، فجاء وهمس بإذني قائلاً: يا شيخ أليس لك كلمة تقولها في هذا الحفل، هكذا

قالها! قلت: ليس لَديّ كلمة، ثم أخذ يُكرر الطلب عدة مرات: ألم تتكلم في الحفل؟

كان المتحدثون يُكيلون المديح للشَّيخ محب الدِّين، فالمناسبة كانت تأبينه. ثم قامت امرأةٌ قَدّمها عريف الحفل، وعرِفت أنها زوجة عمر الرِّيماوي، أحد أقطاب «حزب البعث» بالأُردن، أو مؤسس الحزب هناك. وفي ما قالت: إنها أعدت رسالة الماجستير واستفادت مِن عِلم محب الدِّين في إعدادها، ومدحته كثيراً. بعدها أتاني بابا مسعود قائلاً: يا مولانا الله ينور ألبك (قلبك) تفضل وساهم بكلمة!

قلت له: سأساهم بكلمة لكن بشرط أن تُعلن مِن الآن عن كلمتي، وأن أكونَ آخر المتكلمين، أي أن أكون الخاتمة. وقصدي ألا أحد يرد عليَّ فهي آخر كلمة. فنفّذ بابا مسعود ما شرطت عليه، وما لاحظته أن الحاضرين أخذوا ينسحبون، وذلك لطول الحفل والملل، فقد خرج عبدالعزيز كامل والطَّحاوي وآخرون مِن الشَّخصيات.

لذا رغبت عن الإعلان عن كلمتي كي يبقى مَن يريد سماعها، وما إن أُعلن عن اسمي وبعنوان إمام الشِّيعة بمصر رغب الحاضرون في الاستماع، فتوقف الانسحاب مِن الحفل، يريدون سماع ماذا سيقول إمام الشِّيعة عن محب الدِّين الخطيب، وقد لاحظت في الحفل محمود شيت خطاب، كان ضابطاً في الجيش

العِراقي ثم وزيراً، وهو قريبٌ مِن «الإخوان المسلمين»، ويبدو أن خطاب لاذ وراء إسطوانة مِن إسطوانات القاعة، وحسبتُ أنه أراد منحي حرية الكلام، وكأنه غير موجود، كونه عراقياً سُنياً، وأنا عِراقي شيعي.

لما جاء دوري قمتُ وأنا معتمر العِمامة، وفي تلك اللحظة لم أكن أدري ماذا أقول، وأنا أقف وراء منصة الحفل، وفي مواجهة الجمهور، وفي مناسبة تأبين محب الدِّين الخطيب، وقمت بإرادتي وطوعي لم يغصبني أحد، بمعنى أن الكلام له مسؤولية عليَّ. استهللت الحديثَ بالبسملة والحمدلة، لعلَّ اللّه يفك عقدة لساني وأنطلق بالحديث، وأطلتُ في الاستهلال، إلى حدٍ ما.

ثم قلت: قد يرى المحتفلون بأربعين الفقيد أن مِن العجب العِجاب شيعياً يتكلم في تأبينِ هذا الرَّجل، الشَّيخ محب الدِّين الخطيب! وللأسف الشَّديد أني أُصارحكم يا إخوان أن أهل مذهبي يسمَّونه بعكس اسمه (عدو الدِّين). قد تستغربون أيضاً مِن هذه التَّسمية لأن قومي وأهل مذهبي يعتزون بإسلامهم وبعقيدتهم، بينما الفقيد المُحتفى به قد أخرجهم مِن إسلامهم وعقيدتهم بجرة قلم، ورمى بهم خارج الدَّائرة الإسلامية، فلهذا ومِن باب الحب والإخلاص لدينهم ومعتقدهم الإسلامي أطلقوا على الفقيد هذا الاسم، وسمَّوه بعكس اسمه.

عندما كنت أتكلم على المنصة أسمع صوتاً يشجب ما أقول، وإذا بولده قيس يصرخ عالياً مِن آخر القاعة، وكانت تتسع للآلاف،

قائلاً: «الشُّبان المسلمون دول كلاب أولاد كلاب، جاءوا بهذا الشِّيعي يشتم أبي». سمعتُ أحدهم يحاول إسكاته بشتمه قائلاً: «أسكت أخجلتنا». وتبيّن أنه كان عمّه أخو محب الدِّين الخطيب، ورأيته قام وأسكته، في أثناء كلمتي. كنت مسترسلاً في الحديث حتى انتهيت.

لما نزلتُ كانت عيون أساتذة الجامعات ترمُقني بغضب، وكان بين الحاضرين أحمد فرّاج، مُقدم برنامج «نور على نور» المعروف في السّتينيات، وهو أحد أزواج المطربة صباح. والشَّيء بالشَّيء يُذكر أن الشَّيخ محمد الغزالي عندما التقى مع أحمد فرّاج بالمملكة العربية السُّعودية فجّر قنبلة بوجه فراج، فلما كان الشَّيخ يتحدث ثم عقبه فراج، تعرض تعريضاً خفيفاً بالغزالي، فقال الأخير مِن مجلسه قائلاً: مين ده! قالوا له: أحمد فرّاج. فقال: ها ده زوج صباح (الشَّرم...)! الشَّاهد ليس هذا.

طلب فرّاج أن يسجّل معي حديثاً في برنامجه «نور على نور»، وبعث لي بشخص للاتفاق، وكان برنامجاً جيداً. بعد ذلك قامت زوجة عبدالله الرِّيماوي، التي تحدّثت في الحفل وأثنت كل الثَّناء على محب الدِّين الخطيب، قائلةً: أيها الحفل الكريم أقولها صريحة سافرةً إن كلَّ المتكلمين، وبمن فيهم أنا كنا ننافق، وهذا الشَّيخ الرِّفاعي هو الذي صرّح بالحقيقة. فقلتُ في داخل نفسي: الله أتى بهذه المرأة، وعندها شعرتُ بأنني طاووس، بعد أن كنت مترقباً ما سيحصل بعد انتهاء الحفل، وبتعليقها اختُتم الحفل.

لما خرجت مِن القاعة باحثاً عن سيارة أُجرة لحق بيَّ أخو محب الدِّين، الذي أسكت ابن أخيه وهو يصرخ في القاعة، قائلاً: هل معك سيارة توصلك إلى دارك؟ قُلت: لا سآخذ تاكسي، فعرض عليَّ أن يوصلني إلى داري في سيارته، لكن الهواجس أخذتني، فلعله يريد بي أمراً آخر، وكان الموقف يستوجب ذلك الهاجس، ومع ذلك توكّلتُ وركبت معه وبوجود شخص آخر معنا.

أوصلني إلى داري، وهي تقع في شارع ملاعب الجامعة، ودخل هو وصاحبه وشربنا الشَّاي سويةً، وإذا بأخ محب الدِّين يظهر صديقاً لعبدالرَّسول علي، صاحب الحسينية المعروفة في الكرّادة الشَّرقية، ورئيس غرفة التِّجارة ببغداد آنذاك، وشخصية شيعية معروفة، وهو مِن أهل الثَّراء. سألني عن عبدالرَّسول، فقلت له: إنه صديقي، وقد رأيته قبل يومين هنا بالقاهرة في أوروزدي باك (متجر شهير) في شارع عمر أفندي. ثم أهديت لهما كتباً مِن مكتبتي وصارت معرفة بيننا، ولم يأخذ ما قلته بأخيه محب الدِّين سبباً في كراهيتي.

قرار شعراوي جمعة

وصلةً بما حدث في تلك المناسبة، حصل أن زار السَّيد موسى الصَّدر، رئِيس المجلس الإسلامي الشِّيعي الأعلى بلبنان، القاهرة، وكنت أُدعا معه إلى السَّفارة اللبنانية وأماكن مصرية عديدة، وفي دعوة السَّفارة التقيت بالملحق الثَّقافي اللبناني

مصطفى الرَّافعي، واسمه على اسم الأديب المعروف، وكان شيخ أو إمام الأزهر، وسفير لبنان، وربّما حضر أيضاً وزير الأوقاف المصري عبدالعزيز كامل.

قال الرَّافعي: شيخنا طالب ما هذا الذي فعلته في تأبين الشَّيخ محب الدِّين الخطيب؟ فقلت: ومِن أين عرفت، وأنت لم تكن مِن بين الموجودين في الحفل؟ قال: إن داري التي أسكنها هي لقيس محب الدِّين الخطيب، وقيس أسمعني الشَّريط الذي فيه كلمتك، فسمعتها مِن الألف إلى الياء. وهذا ما أقلقني كونه لا بدّ من أن الحكومة المصرية ستتحرك ضدي، أو أي جهة أخرى.

بالفعل نُقل خبر الحفل، وما جرى فيه بحذافيره، إلى الأمن المصري، وكان آنذاك شعراوي جمعة وزيراً للداخلية المصرية، فأصدر أمراً بتسفيري حالاً. فكيف عرفتُ بذلك؟ عرفت عن طريق بعض المحيطين بإدارة الرَّئيس جمال عبدالنَّاصر، فهم عاملون، أو على صلات، بدوائر الأمن والمخابرات، فلما سمع رئيس المجلس الإسلامي الأعلى المصري، وكان يميل إلي، ورئيس جمعية «الشُّبان المسلمين» إبراهيم الطَّحاوي أيضاً له هذا الميل تجاهي، بقرار تسفيري رفع سماعة التِّلفون على مكتب الرَّئيس عبدالنَّاصر سامي شرف، وقال له أن يخبر الرئيس بقضية تسفير إمام الشِّيعة بمصر طالب الرِّفاعي.

فبمجرد أن سمع جمال عبدالنَّاصر، وكان يعرف بوجودي، الخبر اتصل بشعراوي جمعة قائلاً: الشَّيخ الرِّفاعي ده بتوعي!

وبحسب ما نُقل لي أن عبدالنَّاصر قال كلمته لشعراوي وأغلق سماعة التِّلفون. هذا ما أخبرني به السَّيد موسى الصَّدر عند زيارته للقاهرة آنذاك، وهو سمعها مِن جمال عبدالنَّاصر شخصياً.

كنت قد التقيت بجمال عبدالنَّاصر في مؤتمر علماء المسلمين، عندما طلب اللقاء بالضِّيوف المشتركين، فكانت صورتي خلال المؤتمر محل تعليق وإثارة بسبب عِمامتي المختلفة عن بقية عمائم مصر والشَّام وبقية البلدان. ما لاحظته في تلك اللحظة أن صورة جمال عبدالنَّاصر المنشورة في الصُّحف تختلف كثيراً عن واقع الحال، فقد وجدته، وكان ذلك قُبيل وفاته بشهور، رجلاً ضعيف الصِّحة، سيقانه ترتعش وسِحنة وجهه صفراء.

تحدّث معي وذكّرته بالنَّكسة (حزيران/يونيو 1967) قائلاً: إن شاء الله ستزول آثارها وينصركم الله. لحظتها وأنا أتكلم معه اتكأ عليَّ لدقائق وكأنه يستريح، وأخذ يرتعش، وقمت أنا أرتعش أيضاً لارتعاش بدنه، وبعدها سألني الآخرون: لماذا وقف الرَّيس معك تلك الوقفة الطَّويلة؟ وبهذا ألغي قرار وزير الدَّاخلية القاضي بتسفيري، واستمرت إمامتي لشيعة مصر، وأنا أول وآخر إمام لهم، ستة عشر عاماً (1969-1985). وستأتي فاصلة أخرى مهمة، في حياتي بمصر، وهي صلاتي على جنازة شاه إيران.

زوجة الرَّيس شيعية

كنت في يوم مِن الأيام، وأنا بالقاهرة، أزور الشَّخصية القومية المعروفة أحمد الحبوبي، فنحن جيران، ما هي إلا خطوات

تفصل بيته عن بيتي، وذهب الحديث وجرى عن جمال عبد النَّاصر، فقال أحد المتحدثين: إن زوجة الرَّيس الست تحية شيعية، مِن أصل إيراني وبالضبط أصفهاني كاظمي، وهناك يسمونهم عائلة كاظم، وأعرف ابن عمها محمد إبراهيم كاظم عميد كلية التَّربية في الأزهر، وهو أخو صفيناز كاظم الكاتبة. تعرفت إلى بعض أقاربها، كانوا يبيعون السِّجاد بالقاهرة، وهي حِرفة إيرانية لا منافسة فيها. ليس هذا الشَّاهد.

قال أحمد الحبوبي: أتينا وفداً مع الرَّئيس عبدالسَّلام عارف، وكنا مجموعة مِن الوزراء، منهم شكري صالح زكي، والتقينا بجمال عبدالنَّاصر في استراحته بالإسكندرية، منطقة المنتزه، وفيها قصر المنتزه، ومِن جملة طعام المائدة قدموا إلينا سمكاً، وكان شكري صالح زكي جالساً إلى جانبي، فقال شكري مازحاً: أنتم الشِّيعة تحرّمون أكل هذا النَّوع مِن السَّمك! فالتقط عبدالنَّاصر مفردة «الشِّيعة»، وعلّق قائلاً، وموجهاً الكلام لشكري: «يجب أن تعلم الشِّيعة دَول أخوال أولادي»! فطلبتُ من الحبوبي أن يكتبها لي كي أوثقها فكتبها نصاً مثلما قالها لي.

فقلتُ لماذا لا يكون مصدر آخر يؤيد هذا الكلام، وتلك الواقعة، فبقيت أتحين فرصة اللقاء بشكري زكي، وهو مقيم بأبو ظبي. فبعد حين زار نوري المالكي، بعد أسبوعين مِن تكليفه برئاسة وزراء العراق الإمارات، وكان الوزير السَّابق شكري أحد المدعوين، وأنا أيضاً كنت موجوداً. فسألته قائلاً: أنت ضالتي، حدثني ما جرى

بينك وبين جمال عبدالنَّاصر على مائدته بالإسكندرية، لما كنت مع الوفد العِراقي؟ فحدثني بالحديث نفسه، وأن كلمة عبدالنَّاصر الشيعة أخوال أولادي!

الفصل الثَّالث عشر

مؤتمر الخيبة بالصَّحن 1969

عندما يتكلم ويُطنب في الكلام، يعود ويقول: «ليس هذا الشَاهد»! وعليك ربط تلك المقدّمات، أو مثلما يسميها هو الاستهلالات بجواهر الكلام، كنت أدرك تماماً ليس لي حرفه عما يسمَّيه هو إنسيابية، وكان قد تحدّث عن هذا المؤتمر ضمن ما سرده حول صِلاته بالسيد محسن الحكيم، وأولاده، إلا أنه مِن الصَّعب جعل هذَا العنوان فرعاً مِن فصل، فله قصة مستقلة، ومناسَبة مقطوعة عن غيرها.

كل ما تحدث به الرِّفاعي عبر عن خيبة، حسب تعبيره هو، مع خطورة الموقف، وهنا لا أتفق مع حماسته، فهي تعبّر عن روح انتحارية، وهو أعزل أمام خصم مستميت على السُّلطة، ولديه قوة الدَّولة، واتفق إلى حد ما مع تروي السَّيد محسن الحكيم، فالرَّجل مسؤول عن كلمته والعواقب ستحسب عليه في ذلك الموقف. وقبل مؤتمر الصَّحن تحدث عن معلومة أُخرى، حاول فيها لوم مَن فرحوا أو بشروا بانقلاب 17 تموز 1968، مع أن الرَّئيس الذي عُزل في هذا الانقلاب كان مسالماً، يكتب إليه الحكيم رسائله بعبارة: «ولدنا»!

قال: أحببنا أنا وعبدالكريم القزويني وآخرون، مِن المتدينين النَّجفيين، فتح مدرسة لبناتنا بالنَّجف، ولعلَّ ذلك كان في أوائل العام 1968، أي قُبيل انقلاب 17 تموز بشهور، مدرسة ونريدها ابتدائية دينية خاصة مِن غير المدارس النِّظامية الرَّسمية، فهذه كانت موجودة بالنَّجف.

كنا أنا والسَّيد عبدالكريم والحاج حسين شربة والسَّيد علي البكّاء أعضاء في الجمعية التي تولت متابعة أمر المدرسة، واقترحنا أن يكون الباحث أحمد أمين، وهو مِن أهل الكاظمية أقام بالنَّجف وتوفى وهو يزور مرقد الإمام الحسين، رئيساً لها، وذلك لسمعته الطَّيبة في الوسط الاجتماعي الشِّيعي، فأخذنا العريضة أو الطَّلب لتقديمه ببغداد، ولا بدّ من أن تأتي الإجازة مِن وزارة الدَّاخلية، وكانت الحكومة حينها برئاسة طاهر يحيى، وكان وزير الدَّاخلية آنذاك شامل السَّامرائي.

لما وصلت إلى السَّامرائي احتفظ بالطَّلب، فكانت الطَّائفية تلعبُ دورها في بعض النُّفوس، أو ربما لأنها مدرسة دينية وبالنَّجف، وانتظرنا كثيراً ولم يأتِ جواب، فذهبنا إلى بغداد، وقصدنا عبدالهادي الحكيم، ممثل السَّيد محسن الحكيم الخاص في متابعة الدَّوائر الحكومية. ونزلت أنا عند السَّيد مرتضى العسكري، فقال لي بشأن المدرسة: لماذا هذا الاستعجال، فالنِّظام سيتغير! ويقصد نظام عبدالرَّحمن عارف

سألت العسكري مِن أين تعرف أن النِّظام سيتغير أو يسقط؟ قال: عبدالسَّتار الجواري (صار وزيراً بعد 17 تموز) قال لي ذلك. وكان عبدالسَّتار أستاذاً في كلية أُصول الدِّين، والعسكري كان العميد. لكني كنت واثقاً أن السَّيد مهدي الحكيم كان يعلم تلك المعلومة، وهو ممثل والده في جامع التميمي، وكان مِن المفروض

أن يكون طالب الرِّفاعي إماماً لهذا المسجد، لكن لما رأوه ذا فائدة تغيرت الأُمور. ليس هذا الشَّاهد.

أقول إذا عَلم مهدي الحكيم بشيء فلا بدّ أن والده السيد محسن يعلمه تماماً، بقرينة أن مرتضى العسكري لا يخفي شاردة ولا واردة عن مهدي الحكيم، وبالفعل حدث الانقلاب، وكنا فرحين به أول مرة، على أساس أن يحصل تغيير ما، لكن الرِّياح جرت بما لا نشتهي وصار ما صار[1].

سألنا عن عبدالهادي الحكيم، وكيل السَّيد محسن ببغداد، فقيل لنا: يقرأ (يخطب على المنبر الحسيني) في منطقة قريبة جداً مِن مركز بغداد، فذهبنا إليه وعرضنا عليه موضوع إجازة فتح مدرسة دينية للبنات بالنَّجف، فقال بسيطة، فإذا نذهب إلى الوزير رشيد مصلح، فله علاقة بوزير الدَّاخلية شامل السَّامرائي، وحدد لنا موعداً. حان الموعد فدخلنا على رشيد مصلح، وقد استقبلنا أفضل استقبال، وما زال معكوساً عليَّ استقباله ذلك،

(1) ورد في مذكرات السَّيد مهدي الحكيم ما نصه: «نحن كان لدينا عِلم حقيقي بأن عبد الرَّحمن عارف لن يبقى في الحكم، وكنا نعلم أن البعثيين هو الذين سوف يأتون إلى الحُكم، لأن أحمد حسن البكر (ت 1982) وحردان التكريتي (اغتيل 1971) وفاضل حسن اتصلوا بيَّ بشكل مباشر وقالوا: ماذا تريدون؟ قلنا لهم إننا لا نريد شيئاً سوى قيام حكومة بحيث يشعر أبناء العراق إنها حكومتهم ويدافعوا عنها بكلٍّ قلوبهم لأنها تضمن مصالحهم! فقالوا: نحن استفدنا مِن دروس سنة 1963» (مهدي الحكيم، مِن مذكرات العلامة الشَّهيد محمد مهدي الحكيم حول التَّحرك الإسلامي ف العراق، إعداد: مركز شُهداء آل الحكيم للدراسات التَّاريخية، ص 77-78).

وكنا أصحاب عمائم سُود أربع[1]، وارتاح لمجيئنا إيما ارتياح، وكان يحمل الكؤوس يوزعها علينا بيده وهو قائمٌ بيننا.

فحكى له السَّيد عبدالهادي قضية المدرسة، ووعد بخير، لكن الأمر لم يُحل، فذهبنا وفتحنا المدرسة مِن دون إجازة ونجحنا بذلك. ما أُريد الوصل إليه مِن هذه القصة هو أن المرجعية كانت تعلم بحدوث انقلاب 17 تموز، وكان السَّيد مرتضى العسكري يطمح بمنصب ما، فأراد أن يصبح شيئاً، ولم يكتف بالإمامة.

مبايعة الحكيم على الموت

بعد تأمل بالإيجاب من انقلاب 17 تموز(يوليو) عادت المرجعية تئنُّ مِن قهر البعثيين، فحصل بعد مرور أقل مِن العام على الانقلاب أي في 28 صفر 1389، في ليلة وفاة النَّبي (صلّى اللّه عليه وسلم)، المصادف 17 أيار(مايو) 1969. قبل يوم أو يومين مِن المؤتمر المزمع عقده احتجاجاً على ممارسات السُّلطة في صحن المرقد الحيدري بالنَّجف، كان لي موعد مع المرجع الأعلى السَّيد محسن الحكيم، وأنا وكيله بمصر، وعُدت في زيارة سريعة إلى العِراق.

ذهبتُ إلى داره بالكوفة، وجدت هناك علماء دين إيرانيين، فلما دخلت أراد إبداء اهتمام خاص بقدومي. قال: أنا مِن أجلك

(1) علق السَّيد الرِّفاعي، وهو يضحك: غرابيب سُود.

اختصرت الحديث مع الجماعة، الذين خرجوا الآن، وقلتُ لهم: لدي موعد مع وكيلي بمصر في هذا الوقت.

فتحنا الحديث عن البعثيين ونظامهم، وكان المرجع متضايقاً منهم كلَّ المضايقة، ذلك قبل اتهام نجله السَّيد مهدي بالجاسوسية بفترة وجيزة. ما قاله لي: أخبرتُ إخوانك، ويعني أولاده، والسَّيد مرتضى العسكري ألا يفكروا بالصَّرف المالي والجهد لغرض إسقاط هذه الطُّغمة الحاكمة، والآن قرروا أن أذهب إلى بغداد. هكذا وصف المرجع الأعلى الحُكم القائم آنذاك بالطُّغمة!

تلك الزِّيارة التي هرب عِقبها السَّيد مهدي الحكيم، بعد اتهامه بالجاسوسية عبر اعترافات بُثت في التلفزيون لمدحت الحاج سري تحت الإكراه، وهرب السَّيد مرتضى العسكري، وكانت السُّلطة عملت لهما جوازات سفر كي يخرجا مِن العِراق، هذا ما أعرفه أنا شخصياً. أضاف المرجع الحكيم قائلاً: سأذهب إلى بغداد بعنوان المرض، والجماعة سيقومون بنشاط هناك.

إلا أن البعثيين كانوا قد عرفوا بما يحصل فتحضروا ضد الزيارة. إلا أنه قال لي: قبل ذلك سيُعقد مؤتمر في الصَّحن العلوي بالنَّجف في ذكرى وفاة الرَّسول. فلما سمعتُ منه بنيّة قيام مؤتمر استأذنته بالحديث، فأذن لي وقلت: سيدنا الكلام لا ينفع في هذه الأُمور، وإن مثل هذه المواقف تحتاج إلى دِماء، وأن جنابك تقول: جدي الحسن قال: لا تريقوا دَم.

فإذا أنت ما زلت ملتزماً بهذا الموقف، فإن زمان الحسن انتهى، والقضية تحتاج إلى دم يُراق، وإلا إذا بقيت هكذا فشرٌّ هذه العصابة مستطير على العراق، وبالذات على مرجعيتك والنَّجف. أما إذا أردت إراقة الدِّماء ضدهم فأنا الآن أُبايعك على دمي. قل لي ماذا تُريد قوله في المؤتمر فأنا سأقوله، وبعد ذلك فليحصل ما يحصل، أمضي شهيداً.

فلما سمع كلامي قال لي: أُريدك أن تكون موجوداً في المؤتمر، وتجلس قبالتي. فعندها حسبتُ أن السَّيد سيُكلفني بشيء ما في المؤتمر، وأنا أبايعه على الموت.

مؤتمر الخيبة

كان بيتي في السُّور، والوقت صيف وحر شديد، ففي الشَّهر الخامس (أيار) يكون الجو عادة حاراً جداً، خصوصاً بالنَّجف. جئت إلى مكان انعقاد المؤتمر مبكراً، كي أجلس قُبالة السَّيد الحكيم مثلما اتفقنا، وإذا أجد أبواب الصَّحن مقفلة، فسألت الشِّرطي الحارس في الأبواب عن باب مفتوح فقال: كلُّ الأبواب مقفلة.

فظننت أن السَّيد موجود في الدَّاخل، وأن المؤتمر قد عُقد، وأنا الذي تأخرت عن الميعاد. فأخذت ألوم نفسي وأكلمها: ماذا سأقول للسَّيد. في هذه الأثناء وقفت سيارة السَّيد وترجل منها، وفُتح له باب الصَّحن ودخل فدخلت معه، فوجدت كرسياً مقابل كرسيه بالضبط فجلستُ بحسب الاتفاق.

ما إن أخذ السَّيد محسن مكانه في المؤتمر قام السَّيد هادي الحكيم وتوجّه إلى المنبر، فقلتُ في نفسي إنه سيُقدمني بتوجيه مِن السَّيد محسن كي أتكلم، لكن الأخير كان يرمقني ويطأطِئ رأسه، وأنا شاخص النَّظر إليه لا ألتفت لا يسرة ولا يمنةً لعله يشير لي بحركة ما، وأحدث نفسي: ليس هذا ما اتفقنا عليه، ولعل في البرنامج تغيير ما وسيأتي دوري في الحديث.

لكن عريف الحفل هادي الحكيم افتتح المؤتمر، وطلب مِن السَّيد مهدي الحكيم التَّقدم إلى المنصة لإلقاء كلمة والده المرجع الأعلى محسن الحكيم. فعندها قلتُ: خرجت مِن يدك يا سيّد طالب! ومع ذلك ظلّ الأمل يراودني في أن كلمة نجل الإمام ستعبّر عما أريد التَّعبير عنه.

شرع مهدي الحكيم يتكلم كلاماً إرشادياً منبرياً وعظياً في قيمة العتبات المقدسة، وشخصية الإمام علي بن أبي طالب، وهو كلام يعرفه الجميع، ويقوله الخطباء وقرّاء المنبر الحُسيني يومياً، ولا يحتاج إلى مؤتمر. استمر يتكلم في هذا الإطار، ولم يخرج عنه إلى أي شأن آخر، كشأن مطلبي أو سياسي أو احتجاجي على ما يحدث بالبلاد، وما حدّثني به والده المرجع محسن الحكيم قبل يوم واحد. مع أن المؤتمر كان مزدحماً، فما إن سمع به أهل الكوفة والمناطق المجاورة حتى أتوا إلى النَّجف وحداناً وزرافات، حتى إن بوابات الصَّحن العلوي أُغلقت بعد أن امتلأ بالنَّاس.

كان السَّيد سعيد الحكيم، والد أُستاذي السَّيد تقي الحكيم، هو العقل المدبر والمفكر لمرجعية محسن الحكيم، ولديه نكران ذات، فالمفروض هو الذي يُصلّي عن المرجع الحكيم، لكن المرجع أناب ولده السَّيد يوسف في الصَّلاة عنه، وظل سعيد الحكيم يُصلي وراء يوسف في حضور محسن الحكيم وفي غيابه، مع أنه الأكثر اجتهاداً والأغزر علماً والأكبر منزلةً، لكن مثلما قلتُ إن هذا الرَّجل لديه نكران ذات، لا يهتم بشأن دنيوي أو وجاهي. وكلما تحدثت عن محاسن هذا الرَّجل أجده قليلاً بحقه.

كنت أسمع النَّاس، بعد انفضاض المؤتمر بهذه الصُّورة البائسة، يتبادلون القول: إن السَّيد محسن الحكيم جمعنا حتى يعظنا ولده في شأن العتبات المقدسة! هذا ما كنت أسمعه بعد انتهاء المؤتمر، ومِن الحاضرين. تأخرتُ قصداً أنتظر السَّيد سعيد الحكيم، فأخذت أراقبه إلى أي اتجاه يتوجه كي أذهب معه، لأني أريد أن أسمع رأيه وتعليقه عمَّا حصل.

فما إن اتجه إلى باب الطُّوسي، فللصحن العلوي أبواب عدة، وأشهرها هو الباب المعروف بباب الطُّوسي[1]، تبعته، فقلت له: عمي! فقال: ها بابا سيّد طالب! قلت: هل أعجبك مؤتمر ابن عمَّك! وأعني السَّيد محسن الحكيم. وأضفت: يُعلم النَّاس مقام أمير المؤمنين ومقامات الأئمة؟

---

(1) نسبة إلى مؤسسة الحوزة الدِّينية بالنَّجف شيخ الطَّائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطُّوسي (ت 460 هـ)، وهو مدفون هناك وله مدرسة ومسجد باسمه.

فأجابني نصاً: هذه الكلمة مكتوبة بالاتفاق ويّ (مع) البكر[1]، كتبها سيد مهدي معه، وأتى لقراءتها علينا! هكذا قال لي سعيد الحكيم، وحق الموت الذي أخذ سيد سعيد وسيد مهدي الحكيم. بطبيعة الحال هو لا يقصد أن ذلك حصل، لكنه تشبيه للحالة، أي لا على الحقيقة إنما قالها على المجاز، كون الكلمة كانت تخدم السُّلطة، فهي حرّفت مؤتمر الصَّحن عن مهامه المطلبية.

للأمانة، بعد نحو سبعة أعوام، أي في العام 1976، التقيت بالسَّيد مهدي الحكيم بدولة الإمارات، وكانت في ذلك الحين ما زالت صحراء، فالعمران في بدايته، وكان مهدي الحكيم يشرف على الوقف الشِّيعي بدبي، فدعاني وذهبت إليه ونزلت في ضيافته، وفي إحدى الليالي كنا على مائدة العشاء، فطرحتُ معه ما سمعته مِن السَّيد سعيد الحكيم في شأن المؤتمر بالصَّحن، بأن هذا الخطاب كتبه مهدي مع البكر في القصر، ويعني القصر الجمهوري، فقال لي وأقسم بأغلظ الأيمان: إنه لم يرَ البكر، ولم يذهب إليه آنذاك، ولن يتفق معه على شيء يخص ذلك المؤتمر. أقول هذا للتوثيق والأمانة.

ربَّما يحتج البعض بقوة البعثيين آنذاك، فأنا أنقل ما سمعته بأُذني، وهو لما ذهبت إلى القاهرة، بعد ذلك المؤتمر، وصلتني

---

(1) يقصد رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر (ت 1984)، تولى رئاسة العراق عِقب الانقلاب البعثي في 17 تموز (يوليو) 1968، وحتى 16 تموز 1979 أزاله صدام حسين عنها.

الأخبار باتهام مهدي الحكيم بالجاسوسية، ودخلوا وفتشوا دار السَّيد محسن الحكيم، زارني السَّيد الشَّاعر المعروف مصطفى جمال الدِّين، وكان بالقاهرة، فقلت له: أبا حميد حدثني، فالأخبار عندي متضاربة. فقال: ماذا أُحدثك عن جماعتك! يقصد المرجعية الدِّينية. فقال أُحدثك بما شاهدته بأُم عيني، واسمع مني:

«لما حدث واُتهم مهدي الحكيم بالجاسوسية، وما حدث مع السَّيد والده، اهتزت النَّجف، بين مصدّقٍ ومكذّبٍ، فذهبت إلى بغداد، ومنها إلى دار فاتك الصَّافي، صديق أحمد حسن البكر، فقلت له: فاتك ماذا فعلتم! هذا السَّيد محسن! أأنتم مجانين تتحارشون بالمرجعية؟ فأخذ فاتك يضطرب لما سيحصل، ونحن في هذه الأثناء زار نجل المرجع السَّيد محسن السَّيد محمد رضا الحكيم دار فاتك».

فقال له: «تفضل سيد أي خدمة، أي طلب، فأنا حاضر لكلِّ ما تأمرون. فقال له محمد رضا: ليس لديَّ شيء سوى أن السَّيد الوالد يريد العودة مِن بغداد إلى النَّجف، ويطلب ألا يُعتدى على سيارته! هذا هو مطلبنا. فكلّم فاتك الصَّافي رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر عبر الهاتف، وأنا عنده، فأخبره بما طلب محمد رضا، فقال البكر لفاتك: ما خلي يطلع كي نرتاح ونام ليلنا»!

هذا ما شهد به مصطفى جمال الدِّين، فأنظر كيف كانت المرجعية قوية، وكيف كانت سلطة البعثيين ضعيفة مقابلها.

بينما كانت الحكومة العِراقية السَّابقة، التي أخذ عِلم مرتضى العسكري ومهدي الحكيم، ومؤكداً المرجع له دراية، بالانقلاب، خصصت طائرة لنقل السَّيد محسن الحكيم إلى الحج، وأنا رأيت رئيس الوزراء طاهر يحيى يركب معه إلى داخل الطَّائرة مودّعاً، وصار لهذا السَّفر صداه، وقد جاءت الوفود مِن كلِّ حدب وصوب لمشايعة السَّيد، وكان الموكب أوله ببغداد وآخره بالحلة، ورأيت المتصرفين: الحلة وكربلاء على رأس المودعين. إلا أن بعض الشِّيعة لم يعجبهم استخدام المرجع لطائرة حكومية، فقالوا: يجب تجار الشَّورجة يستأجرون له الطَّائرة.

الفصل الرَّابع عشر

شريعتمداري بعد الثَّورة

كان يتحدث عن صداقته، أو علاقته، بشريعتمداري، بشيء من البهجة، بل قُل بشيءٍ من الغرور في هذه العلاقة، فهو يعلم أكثر مني مَن هو شريعتمداري، ذلك المرجع الذي أغلق سماعة التلفون بوجه الشَّاه فرحل الأخير، بعد أن ضاقت عليه امبراطوريته الشَّاسعة. فشريعتمداري كان امبراطوراً موازياً، في القوة والتَّأثير، لكن ما كان في الحسبان أن تنجح الثَّورة بمعونته لتستولي على مرجعيته وتسجنه في داره، وتمنع الصَّلاة على جنازته.

إنها قصة مثيرة يسردها السَّيد طالب الرِّفاعي في أماليه كشاهد عيان، وهو عندما يلفظ اسم شريعتمداري يعتدل في جلوسه ويرفع يده إلى الأعلى، وكأنه شاخصاً أمامه ينظر في عينيه. في هذا الفصل كان الرِّفاعي خطيباً، أما الجمهور فأنا لا غيري.

قال: زرت إيران مرات عدة، لكن الحديث سيجري عن زيارتي لها بُعيد الثَّورة بشهر أو أربعين يوماً، والتقيت هناك بالمرجع الكبير المجتهد محمد كاظم شريعتمداري (ت 1985)، فهو يأتي الأول في سلّم التَّقليد الدِّيني والمكانة في المرجعية، بعد السَّيد حسين البروجردي، وكلّ المراجع الذين أتوا بعد البروجردي هم مِن تلامذته إلا شريعتمداري، كان مرجعاً وصاحب رسالة معروفة، وأن الحديث عن هذا المرجع وعلاقتي به يطول، وسأطنب فيه.

فقبل ذلك، أي العام 1972، سافرت مِن القاهرة إلى إيران بعنوان زيارة الإمام علي الرِّضا (عليه السَّلام)، وكانت حينها

العلاقات الرَّسمية مقطوعة بين مصر وإيران، وكان ذلك منذ أيام جمال عبدالنَّاصر، واستمرت مقطوعة حتى تسلم محمد أنور السَّادات رئاسة الدَّولة، ثم أخذت تعود في ما بعد. كان محمد وكيلي قائماً بأعمال السَّفارة الإيرانية بالقاهرة، وهو يرئس شُعبة الرَّعايا الإيرانيين هناك، ومقره السَّفارة الأفغانية، لأن باب السَّفارة الإيرانية كان مغلقاً. التقيت بمحمد وكيلي في معرض الكتاب الأول بمصر، وتعرّفت إليه، على الرَّغم مِن أنه كان ممثلاً لحكومة الشَّاه، لكني فهمت منه أنه يُقلّد السَّيد الخميني!

ترتيب السَّفر

ظلت الصِّلة بيني وبين وكيلي جيدة، وحينها تحسّنت وعادت العلاقات بين الحكومتين المصرية والإيرانية، وفهمت منه أنه ابن خالة المرجع المعروف السَّيد محمد الرُّوحاني، وهو مِن قم ووكيلي أيضاً مِن هناك، ولما أراد الذِّهاب إلى الحج جاءني يأخذ مني بعض التَّعاليم الخاصة بشعائر الفريضة.

سألته: أنت تُقلّد مَن؟ قال: أُقلّد السَّيد أحمد الخونساري وأعمل وفق رسالته. فقلت: لدي الرِّسالة وفيها شرح لشَّعائر الحج. لكنه في السَّابق كان يُقلّد السَّيد الخُميني، ثم رجع وقال: أُقلّد الخونساري! كان هذا التبدل عندما تحسنت العلاقات بين إيران ومصر فكان عليه التَّخلي عن تقليد الخميني المعارض لحكومة الشَّاه، كون هذا يضر به رسمياً، وهو موظف دبلوماسي.

قيل لي: إن للسَّيد أحمد الخونساري أُستاذية على السَّيد الخُميني في أيام شبابه، وكان الخونساري ليس مع الثَّورة الإسلامية بإيران، وقد تأكدتُ مِن صحة ذلك بنفسي عندما زرته وسألته: سيدنا ما هو موقفك مِن هذه الثَّورة، ولم يجب لا بالسلب ولا بالإيجاب، وإنما أخذ يورق في الصَّحيفة السَّجادية، وتوقف عند ورقة منها، وقال لي: اقرأ. قرأت في الصحيفة السَّجادية ما نصه: «كلُ راية رُفعت قبل راية الإمام المهدي إنها راية ضلالة»! وعندما انتهيت قال لي: هذا هو رأيي. الشَّاهد ليس هذا.

بعد أن وصلت إيران مِن قبل، في العام 1972، نزلت عند الشَّيخ حسن سعيد جلستوني، وقد حمّلني السَّيد موسى الصَّدر رسائلَ إلى مجموعة مِن العلماء، ومِن بينهم جلستوني، ومرَّ يوم أو يومان، وقال لي الأخير: سيدنا رفاعي السَّيد شريعتمداري يدعوكم إلى زيارته وتنزلون في ضيافته. كان ذلك بعد مرور ثلاث سنوات على وجودي كوكيل أو ممثل لمرجعية النَّجف بمصر.

اللقاء بشريعتمداري

سألت: كيف أذهب إليه؟ قال: ستأتيك سيارة وفيها مَن يُرافقك حتى منزل السَّيد شريعتمداري. في اليوم التَّالي جاءت سيارة شريعتمداري الخاصة مع مرافق خاص لي، وهو الدُّكتور جعفر شهيدي، وهو أُستاذ للغة العربية، واسمه معروف في المؤتمرات العلمية والثَّقافية العربية، وكنتُ قد تعرّفت إليه بمصر في أحد المؤتمرات.

وصلنا مدينة قُمَ إلى دار التَّبليغ التابعة للمرجع شريعتمداري، كان المرجع يأتي لزيارتي في دار التبليغ، وأتناول الطَّعام على مائدته، فانعقدت، منذ ذلك التاريخ، وشيجة قوية بيني وبينه. وكان هناك الشَّيخ محمد جواد مَغنية منتدباً للتدريس هناك، وهو المرجع الكبير الذي لا يُشق له غبار.

وددت الذِّهاب إلى أصفهان، فقال الشَّيخ مَغنية للسَّيد شريعتمداري: إن السَّيد الرِّفاعي لا يعرف أحداً بأصفهان! فكتب كتاباً إلى كبير علماء المنطقة أغايي الحاج حسين خادمي، وهو ابن عم آل الصَّدر. قال خادمي: أمنا ابنة كاشف الغطاء، وإن إخواننا الآخرين أُمهاتهم إيرانيات بالعقد المنقطع. هكذا كان يحدّثني، قال بالزواج المنقطع، ويقصد بالمتعة. ذلك لأن والده كان يخشى مِن عدم العدل فلم يجمع مع أمه زوجةً أُخرى بالعقد الدَّائم، وهي ابنة الشَّيخ كاشف الغطاء، ويعني جدهم الأعلى صدر الدِّين المعاصر للشَّيخ جعفر الكبير (ت 1812).

سمعتُ مِن السَّيد محمد صادق الصَّدر، وهو والد محمد محمد صادق الصَّدر (اغتيل 1999)، وقد أتى بولده محمد ليدرس على يدي، وتم ذلك، انتقاداً ما لخادمي، قائلاً: هو صدري الأصل، فلماذا تلقّب بخادمي؟ فلقب خادمي هو مختصر خادم الشَّريعة، ويعني جده أو والده كان يُلقّب بهذا اللقب، ومِن عادة الإيرانيين أنهم كانوا يختزلون أو يختصرون في الأسماء، وكان آل الصَّدر غير مرتاحين لهذا اللَّقب.

كان أغايي حسين خادمي عالماً نحريراً أُصولياً فقيهاً، وله دور كبير في الثَّورة الإيرانية، وهو رئيس عُلماء أصفهان، وهو آية الله عظمى. ولما أتاني الشَّيخ مَغنية بالكتاب الموجّه إلى خادمي قال له شريعتمداري وهو يسميه الكتاب: إن سيّد رفاعي قد خرق قانون البروتوكول، أي قانون تعاملي مع الأشخاص، فأنا لا أكتب كتاباً خاصاً في موضوع شخصي، لكن سيّد رفاعي خرق هذا الالتزام.

أخذت الكتاب ووصلت به إلى أصفهان وسلّمته إلى أغايي خادمي، فنزلت في ضيافته، حتى إنه عندما غادرت أصفهان حمل حقيبتي في عباءته وأخذ يسير ورائي احتراماً، مع أنه مرجع كبير وآية الله عظمى، فكان منه ذلك خلق راقٍ. وتزوّدت بكتب مِن مكتبته، التي يُديرها ولده السَّيد حسن، وكان غير معمم، وشحنوها لي إلى القاهرة، وكان ثمنها وقيمة شحنها على حساب المرجع.

زرت إيران بعد الانقلاب بشهور، أسميه انقلاب لا ثورة ولك أنت خيار المفردة التي تراها مناسبة، ونزلت بطهران عند السَّيد معين شيرازي، وهو صديقي ويزورني عندما كان يأتي إلى القاهرة، وبعد أن سمع بوجود السَّادة آل النُّوري أخذني إلى بيت في شمرانات، وهو بيت مرتضى النُّوري.

أحببت السَّفر إلى مدينة قُم، فقالوا: أين تنزل؟ قلت: عند عباس كاشاني، وهو زوج ابنة أحمد أمين، صاحب كتاب «التَّكامل في الإسلام» الذي مر بنا ذكره في الكاظمية، فاتصلتُ بالسَّيد عباس، وقلت له: أنا الآن عند مرتضى النُّوري، وسآتي بعد يومين إلى قُمِ وسأنزل عندك، فرح الرَّجل كثيراً.

موقف شريعتمداري

في اليوم المحدد لسَّفري اتصلوا بيَّ وقالوا: يجب أن يكون وصولك إلى قُم قبل الصَّلاة، فالسَّيد شريعتمداري قرر زيارتك بعد صلاة المغرب بنفسه، فاحسب حسابك. وبالفعل وصلت مع الغروب، ونحن هناك جاء شريعتمداري وحاشيته.

ومِن باب المصادفة كنت قبلها ذهبت إلى مشهد، حيث مرقد الإمام الرِّضا، وفي الطَّائرة عادة ما أشغل نفسي بنظم أبيات مِن الشِّعر، فانفتحت قريحتي على أبيات تحية للمرجع المذكور، وما حصل مِن سلبيات مؤلمة بُعيد الثَّورة، منها إهانات، ومنها قتل أناس، وغير ذلك خلال شهرين مِن قيامها، هذا قتلوه بتهمة الزِّنا وذاك محجور عليه في داره لا يخرج، وكانت محاكمات صادق خلخالي قائمة، فنظمت هذين البيتين وأنا في الطَّائرة، واقصد بالوديعة سقوط شاه إيران ونجاح التغيير:

كاظم الغيض يا مدار الشَّريعة
إنـها في يديك أضحت وديـعـة
شمّر السَّاعدين في الذبِّ عـنها
قبـل أن تحلَ فـيـها الفجـيعة

ما إن استقر المجلس بالسَّيد شريعتمداري حتى قلت له: لدي ما أُريد قوله فيك شعراً! فقال: قل أمام الموجودين. فما إن أنشدته الشَّطر الأول مِن البيت الأول: «كاظم الغيض...» استحسنه وابتهج،

وأخذ يقول: أحسنت أحسنت. وأخذت أردد: كاظم الغيض يا مدار الشَّريعة. فصاح شريعتمداري، وهو المرجع الكبير الذي لا يشق له غبار: قلم وكاغد! فقال لأحدهم: أكتب. وتوجه نحوي قائلاً: أعِد. وعندما كنت أنشده: شمّر السَّاعدين أمثل له ما أقول بيدي.

كنت أزوره صباحاً وعصراً، «طَرَفَي النَّهَارِ وَزُلَفًا منَ اللَّيْلِ»[1]، مع أنه يصعب الوصول إليه في تلك الأيام، بداية الثَّورة والدُّنيا مقلوبة على رأسها، لكني كنت أُكلّف جماعة يأتون بي عبر الأزقة، لأن الطَّريق العامة كانت مزدحمة جداً، لعلي لا أُبالغ إذا قلت: إنه إذا نُشر دخناً فوق الرُّؤوس ما سقط على الأرض لكثرة النَّاس. كان يمكن للصحف، ومَن يريد مقابلة شريعتمداري مِن الإعلاميين لا يمكنه أخذ حديثاً منه إلا أن ينتظر إلى اليوم الآخر أو بعد أيام، أو ربَّما ينتظر أُسبوعاً. بينما كان اللقاء بالسَّيد الخميني، وهو قائد الثَّورة يؤخذ منه الحديث في اليوم نفسه.

كانت زعامة شريعتدمداري مِن الضخامة بمكان، ومرجعيته بين الترك الأذربيجانيين واسعة جداً. حتى إن مرة مِن المرات سمع أولئك أن خلافات ظهرت مع شريعتمداري، بعد الثَّورة، فجاءوا بطوابير مِن السَّيارات، وملأوا مدينة قُم عدداً. كنت أتناول معه وجبة الغداء أو العشاء. أتذكر كنت جالساً عنده عندما جاء ياسر عرفات، قائد الثَّورة الفلسطينية، إلى إيران، وسلمّوه مقر السَّفارة الإسرائيلية في ذلك اليوم الذي وصل فيه.

(1) سورة هود، آية: 144.

خلال زيارتي تلك كنت أزور كبار العلماء، وأحدهم كان مِن علماء شيراز، وهو بهاء الدِّين محلاتي، وكان مريضاً، وهو مِن المجتهدين الكبار، ويعتبر نفسه أكبر مِن السَّيد الخميني، ومعارضاً له في الوقت نفسه، ويصدر نشرات ضده، كان ولده مجد الدِّين صديقي، فزرته، ولما هممت بالخروج تخفيفاً عليه، اعترضني مجد الدِّين طالباً مني التَّأخر قليلاً، قائلاً: سيأتي رئيس الوزراء وبني صدر وآخرون لزيارة الوالد، فأحبُّ أن تكون أنت موجودا، فبعد ربع ساعة سيأتون جميعاً.

وصل عدد مِن الوزراء ومحافظ طهران، وسألوا عن صحة المجتهد محلاتي، وكان مِن المفروض أن يأتي رئيس الوزراء مهدي البازركان، وهو أول رئيس وزراء بعد الثَّورة، فأناب عنه بني صدر، واعتذر الأخير قائلاً: رئيس الوزراء مشغول وأنقل تحياته لك. في تلك اللحظات وأمام بني صدر طرحت موضوع قطع العلاقات مع مصر بعد نجاح الثَّورة، فقلت له، وكان يعرف العربية قليلاً، فلم يكن بيننا تُرجمان: لماذا قطعتم العلاقة مع مصر، ولماذا لم تقطعوها مع السوفيات مثلاً. أقول ذلك ليس مِن باب الدِّفاع عن مصر، إنما مِن باب الإشفاق عليكم، فلدى مصر إعلام مؤثر وإمكانية مِن المفروض أن تحافظوا على حيادها تجاهكم!

فردّ بني صدر قائلاً: أتتكلم نيابة عن المصريين؟ فقلت: لا. بل أتكلم مِن مصلحة الثَّورة التي قُمتم بها. أما مصر فلا تنقص ولا تُزيد بقطع علاقاتكم معها، فلو تتركون مصر على الحياد، وأنا

كإمام دين شيعي وأعيش بمصر سيضرّني قراركم هذا كثيراً. فردّ بني صدر: سننظر في الأمر، وسيكون خيراً إن شاء اللّه.

توقع الحرب مع العِراق

كذلك عندما ذهبتُ إلى قُمَ طرحت قضية قطع العلاقات مع مصر على السَّيد شريعتمداري، وكنا نحتسي الشَّاي معاً، أنا وهو فقط لا يوجد ثالث لنا. قلت: هذه الممارسة ليست في مصلحة الثَّورة، ولا مصلحة إيران. قال: سيدنا هذا أمر صدر مِن النَّاحية! ويعني بالنَّاحية الإمام صاحب الزَّمان، فعندما يقولون: زيارة النَّاحية يعنون زيارة الحجة المنتظر. قال أيضاً: نحن التزمنا ألا نعارض في الوقت الحالي.

في زيارة أخرى له، خلال السَّفرة نفسها، أي قبل الحرب العراقية بسنة وشهور عدة، أخبرني شريعتمداري قائلاً: سيدنا أغا رفاعي حكومتنا هذه ستجرنا إلى حرب مع جارتنا الإسلامية العزيزة العِراق! وبيننا وبينها وشائج جوار وعلاقات، وهذا شيء ليس مِن صالح الجمهورية الإسلامية. لم يبرز ذلك في الإعلام على الإطلاق، بل حدّثني به تماماً قبل الحرب، التي انفجرت بين العِراق وإيران في أيلول (سبتمبر) 1980.

الخميني يُلغي الأحزاب

في تلك الآونة بدأ ظهور حزبين: حزب «خلق مسلمان» ويرئسه شريعتمداري نفسه، وحزب «جمهوري» ويرئسه بهشتي، والأخير

يرئسه باسم الخميني. وصل عدد حزب شريعتمداري، في غضون فترة وجيزة، إلى المليون وربع المليون منتم. فلما وجد السَّيد الخميني أن حزب شريعتمداري قد اتسع، وفاق حزبه حزب بهشتي، أصدر قراراً إلغاء الأحزاب، أو الحزبية. مع أن حزب «خلق مسلمان» تشكّل بموافقة السَّيد الخميني نفسه.

شريعتمداري والثَّورة

ما كان شريعتمداري يريد الثَّورة. كنت أنا معه وثالثنا كان الشَّيخ محمد جواد مَغنية، في عهد الشَّاه، إنه قال بالنص: «سيدنا أغايي رفاعي إن الشَّاه لا يُريد منا مدحاً، ولا يريد منا تبجيلاً وتقديراً، الشَّاه يريد منا السُّكوت عنه، فلا يدور في خلده احتراماً أو مدحاً منا». وبعد الثَّورة مِن النَّاحية القلبية لم يعترف شريعتمداري بمرجعية الخميني، هذا مستحيل، بل إن مرجعية الخميني صارت أمراً واقعاً بعد الثَّورة، فهو لم يكن بالأساس مرجعاً يُضاهي شريعتمداري، حتى يعترف به الأخير مرجعاً.

قال لي: أنا فرضت على السَّيد المعروف لديك (يقصد الخميني) ألا يستبد في الأمر وحده، ويجب أن نجتمع نحن الأربعة. يقصد: شريعتمداري، والخميني والسَّيد محمد رضا الكلبكياني والسَّيد أغايي شهاب الدِّين مرعشي. قال: أنا قررت هكذا، ونحن نجتمع رباعياً الآن. كان ذلك بُعيد الثَّورة بشهر أو أربعين يوماً مرت على الثَّورة 1979.

صرت وكيلاً لشريعتمداري

لا زلنا في العام 1979، بعد أن انتهت زيارتي إلى إيران، وأني اعتذرت مِن شريعتمداري بعدم تمكني مِن تلبية دعوته لقضاء رمضان بمدينة مشهد، حيث مرقد الإمام الرِّضا، وبأني أريد السَّفر في رمضان إلى دولة الإمارات العربية المتحدة، فقبل عذري وسمح لي بالسفر، وأعطاني كتاباً يقضي بأني الوكيل العام لمرجعيته في الشَّرق الأوسط. فلما ذهبت إلى دولة الإمارات العربية المتحدة وصلت زوجتي المصرية إليها، وأخبرتني بأن الحكومة المصرية أغلقت طريق العودة بوجهي، بعد معرفتهم بزيارتي إلى إيران.

فقامت اتصالات بيني وبين جماعتي بالقاهرة، منهم عباس جعفر النُّميري، هو عِراقي يدرس بالقاهرة، ومتجنّس بالجنسية الإماراتية، فقال لي: اصبر فأنا سأرفع قضيتك إلى رئاسة الجمهورية، وهناك مَن يدعمنا، وخصوصاً منصور حسن، وزير شؤون رئاسة الجمهورية. وأضاف: إن المخابرات أغلقوها بوجهك، لكن العمل جارٍ عبر رئاسة الجمهورية.

كنت مِن عادتي إذا ما وقعت في محنة أقرأ دعاء اسمه الدُّعاء المصري، وإذا ما قرأته أشعر كأني اخترق الحديد والنَّار والرَّصاص. وكانت ليلة جمعة وأنا عند صهري بالإمارات، ونويت السَّفر بلا موافقة، فقالت زوجتي: أنت ممنوع مِن السَّفر! قلت لها: بعد هذا الدُّعاء سأدخل مصر. غادرت إلى مصر ونزلت إلى المطار

فمنعوني من الدُّخول، ودخلت زوجتي وأنا بقيت في الحجز، واتصلت بعباس النُّميري، فقال لها: لماذا صمّم على المجيء ولم ينتظر.

فصارت مراجعات مع الجهات الرَّسمية في تلك الليلة، فأخذ حسن التُّهامي، وهو أكبر مِن مرتبة وزير في رئاسة الجمهورية، والوزير منصور حسن، الخبر وأوصلاه إلى الرَّئيس أنور السَّادات، فأمر الأخير منصور حسن أن يتصل بالمطار للسماح بدخولي، لكن الخط كان غير عامل.

فجاءت البرقية عن طريق اللاسلكي عبر شفرة يُسمح لي بالدخول، بينما لحظتها كانوا يفاوضونني إلى أي بلد أحب المغادرة! فقلت لهم إلى المغرب، فهو بلد لم أره مِن قبل ولدي نقود كافية. لكن قريب مِن الظَّهيرة، وقُبيل إبعادي، أَتى أحدهم وقال: سيدنا أين جواز سفرك؟ فظننت أنه السَّفر إلى المغرب. لكنه قال لي: ستذهب إلى الدُّقي، فأعطوني تأشيرة دخول، ودخلت القاهرة.

كان دخولي ضربة قوية لوزارة الدَّاخلية، فقد دخلت عبر رئاسة الجمهورية، فوزيرها آنذاك نبوي إسماعيل كان يقول: الجن الأزرق يدخل مصر والرِّفاعي لا يدخل! وقامت المناورات الصَّحافية بين طهران والقاهرة بسبب ذلك. كان الرَّئيس السَّادات يعرف أنني إمام الشِّيعة بمصر، فلما التقيت بحسن التُّهامي قال لي: أراك ساكتاً تجاه الوضع بيننا وبين إيران، وأنت محسوب على مصر! قلت له: يمكن أن أتحدث عن شيءٍ واحد وهو ما يخصّ

السَّيد شريعتمداري، أما السَّيد الخميني ووضع الحكومة فليس لي علاقة بهما لا مِن بعيد ولا مِن قريب.

فإذا عزمتم في الحديث عن موقف شريعتمداري وهو الأول مكرر في المرجعية مع الخميني، وهذا ما يُعزز موقفكم. فقال: تحدث ما تريد عن شريعتمداري، وغداً سنرسل لك مندوب عن صحيفة «الأهرام»، وسيجري معك حديثاً خاصاً يُنشر في الصَّفحة الدِّينية، أتت «الأهرام» وتحدثت لها، وكان المشرف للصفحة الدِّينية اسمه محمد مهدي.

نُشرت المقابلة معي في «الأهرام» تحت عنوان: السَّيد طالب الرِّفاعي ممثل مرجعية آية الله العظمى شريعتمداري في الأوسط. ملأت المقابلة صفحة كاملة عن شريعتمداري، عَرّفتُ به، وقلتُ: لولا شريعتمداري ما انتصرت الثَّورة الإسلامية الإيرانية. فلولا أنه اتفق مع الشَّاه لما خرج الأخير مِن الحُكم، لأنه بلغني مِن الثُّقاة بأن الشَّاه عندما اتصل بشريعتمداري أقفل الأخير الخط بوجهه، وقال: بجا هيه، أي يا جاهل! كأنه يقول له: أنت جاهل ما عرفت تُدير الأمور، وبعد هذه المكالمة انتهى كلُّ شيء.

على اية حال، وصلت جريدة «الأهرام»، المنشورة فيها مقابلتي، إلى شريعتمداري، فاستأنس بها كثيراً، وبعد مرور شهرين بعث لي برسالة وصلتني مِن تنزانيا، بيد طالب كان يدرس بمدينة قُمَ، وله معرفة بالسَّيد شريعتمداري، فلما عزمَ على العودة

إلى بلاده زار المرجع طالباً منه ما يعينه على السَّفر، فسأله: أي طريق يسلك في عودته! فأجاب: عن طريق القاهرة. فقال له: لي غرض معك!

فلما عاد إليه حمّله هذه الرِّسالة التي سلمها لي بالقاهرة، جاء هذا الرَّجل التَّنزاني وسلمني الرِّسالة مغلقة. فتحتها وقرأت فيها شكر عظيم لي مع الاعتذار عن تأخير الرِّسالة، قائلاً: لأن رسائلنا تُراقب في البريد ولا تصلكم، فأنا اضطررت (نص قول شريعتمداري) مع هذا الشَّيخ الذَّاهب إلى القاهرة أرسلت هذه الرِّسالة إليكم، بل إن رسائلنا تؤخذ مِن البريد. كلُّ ذلك كان بعد الثَّورة.

ما حصل لشريعتمداري:

لقد مورست ضد المرجع الكبير السَّيد محمد كاظم شريعتمداري، بعد الثَّورة وفي حياة السَّيد الخميني، أمورٌ عديدة، أولها أنهم اتهموه في القيام بمحاولة انقلاب ضد الثَّورة مع قطب زاده، والأخير كان وزيراً للخارجية في أول وزارة بعد سقوط شاه إيران. وقصة ذلك إنه عندما هجموا على السَّفارة الأمريكية واحتلوها بطهران لم يكن وزير الخارجية على عِلم بذلك. فقال لهم: أنا وزير خارجية لا بد من أنني أُحاط علماً بالأَمر قبل حدوثه، كي أعرف كيف أتصرف، فلا يجوز أن أسمع بما حدث لسفارة الولايات المتحدة الأمريكية عبر الراديو، شأني شأن أي مواطن عادي آخر.

لذلك قدّم استقالته مِن الحكومة وشجب ذلك العمل. بعد استقالته أخذ يتحدث بما حصل للسفارة الأمريكية واصفه بعمل غير سياسي وضد الدبلوماسية. فمثل هذا الكلام ونحوه كان سبباً لاتهام زاده بتدبير انقلاب ضد الثَّورة. وصادف أن جماعة مِن حاشية شريعتمداري أخذوا يتحدّثون عما حصل، وضد الجمهورية وقيادتها الممثلة بالسَّيد الخميني، أو ضد ولاية الفقيه، وكان للسَّيد شريعتمداري صهر، أي زوج ابنته، اسمه أغايي أحمد عباس، وكان صديقي، وسمعته يتحدّث ضد الثَّورة والخميني في بيت السَّيد عباس كاشاني، وهناك مَن ينقل الحديث إلى الجهات الرَّسمية.

أتذكر أن في بيت السَّيد عباس كاشاني كان هناك مَن يضرب التختة رمل، أو يقرأ ما يحصل، وصهر شريعتمداري طلب ليرى متى يتم التخلص مِن الوضع القائم، وكنت حاضراً معه في ذلك المجلس. كذلك كان شريعتمداري نفسه غير مرتاح مِن الوضع بشكل عام، وسبق أن سمعته يقول: يريدون أن يجرونا إلى حرب مع الجارة العِراق!

وللتخلص مِن شريعتمداري وتأثيره، ألغوا أولاً الحزبية كي يسدّوا الطَّريق على حزبه الصاعد آنذاك جماهيرياً، ثم أصدروا حكماً على زوج ابنته أحمد عباس، بعد أن اتهموه بعلاقته مع قطب زاده. ثم تطورت التُّهمة إلى علاقة بين شريعتمداري نفسه وقطب زاده في قضية الانقلاب نفسها.

فمن الإجراءات التي اتُخذت ضده، هجومهم على مؤسسته دار التَّبليغ، وطلبوا من المرجع الكبير الظُّهور على شاشة التَّلفزيون يُعلن فيها اعتذاره، فخلعوا عِمامته وحصلت اعتداءات كثيرة عليه. كان ابنه حسن، الذي ذكرناه مِن قبل، يكتب مِن ألمانيا استغاثة لوضع والده شريعتمداري بإيران، على أن والده صار حبيس داره، ويمنعون عنه مراجعة الأطباء، وظل الحال هكذا حتى زاره الحمام وهو حبيس الدَّار.

بعد وفاته جاء وكيله السَّيد رضا الصَّدر (ت 1994)[1]، أخو موسى الصَّدر، بجنازته إلى ضريح السِّيدة معصومة بمدينة قُمَ، لكن جماعة مِن الحرس الثَّوري أخذوا الجنازة، وظلّ رضا الصَّدر منتظراً عودة الجنازة لساعات ولم يعودوا بها، بل أخذوها ودفنوها بمعرفتهم، ولم يصل عليها وكيله، فأخذ يشتمهم ويشتم جمهوريتهم الإسلامية شتم الذين كفروا، وأراد الصَّلاة على شريعتمداري تنفيذاً لوصية الأخير. كان ذلك السّنة 1985.

قبل قليل ذكرنا أن شريعتمداري اشترط على السَّيد الخميني أن لا يبت بأمر إلا بالمشاورة بين الأربعة، وعدّدنا الأسماء: شريعتمداري، والخميني، والكلبكياني والمرعشي، وعرفنا ما حصل مع شريعتمداري على يد الثورة، وها هنا نذكر موقف: الكلبكياني والمرعشي.

---

(1) له كتاب الوجيزة في سجن ولاية الفقيه، وقد اعتقل إثر وفاة شريعتمداري، وحكى قصة سجنه في هذا الكتاب.

عند رواحي إلى إيران، بُعيد الثَّورة، كنت أتردّدُ على مجالس المراجع، فجلست مع السَّيد محمد رضا الكلبكياني (ت 1993)، لأن صهره لُطف الله الصَّافي زوج ابنته الكبرى، كان صديقي، فعمل لي لقاء معه، وقدّمني بأني إمام الشِّيعة بمصر، فكان لتلك الإمامة أثرٌ في النفوس. وأنا أعلم أن السَّيد الكلبكياني يحب أن تنسب إليه الأفعال الكبيرة، فأنا بخبث قلتُ: عجيب لهذا السَّيد! فقال: أي سيد تقصد؟ فقلت: السَّيد الخميني. فقال: ماذا به؟

قلت: كيف كان يُحّرك الشَّعب الإيراني مِن خيمته وهو بباريس، ثم تحققت على يده هذه الثورة الانقلابية التي اندحر فيها نظام الشَّاه؟ بعد أن أكملت كلامي رد عليَّ بحدة، وكأنه لم يحتمل ما سمع، مع إشارة بيده: سيدنا الثورة من هنا قامت، وكررها ثلاث مرات. ويقصد أنه كان وراء الثَّورة أيضاً.

أما السِّيد شهاب الدِّين المرعشي، وكنت قد التقيته في ذلك الوقت، أي بُعيد الثَّورة بفترة وجيزة، وكنت جالساً معه في البراني، أي ديوانيته التي يستقبل فيها ضيوفه، فأخذ يشكو مِن وضع الثَّورة. قال: سيّد طالب أنا عندي مشاريع، ومكتبة ضخمة، وعليَّ التزامات ومسؤول عن مدارس دينية، وقائم بشؤون الطَّلبة فيها، وها أنا الآن في ضائقة شديدة، لأن شباب الثَّورة الإسلامية أخذوا يدفعون النَّاس للعدول عن تقليدي، يبعدونهم عني لصالح تقليد السَّيد المعروف. وكان يقصد السَّيد الخميني.

شاهدت بنفسي مثل هذا التَّحول في التقليد، عندما كنت جالساً في مكتبة بطهران، فجاءت امرأة وسألتني بالفارسية، وقد ترجم لي صاحب المكتبة ما قالته. قالت: أنا مُقلّدة لشريعتمداري، أيجوز لي أن أعدل إلى السَّيد الخميني؟! فأجبتها: لا يجوز العدول عن شريعتمداري إلى الخميني لأنه لا يوجد مسوّغ للعدول! وشرحت لها مسوّغات العدول في التَّقليد. كان صاحب المكتبة يترجم بيننا. هكذا جرت الأمور، فشباب الثّورة أخذوا يشككون بتقليد كبار العلماء ليعدلوا النَّاس إلى تقليد الخميني.

فعندما نُقابل بين اجتهاد شريعتمداري والخميني فإن الأول دخل قم وهو كان مرجعاً، بينما الخميني كان طالباً حينها مِن طُلاب السَّيد حسين البروجردي.

شريعتمداري هو الذي أنقذ السَّيد الخميني مِن حبل المشنقة، فلما عَزم نِظام الشَّاه على إعدامه شهد المرجع المذكور باجتهاده، ونوّه علانية أن هذا الرَّجل مجتهد، وفي الدُّستور الإيراني لا يُعدم المجتهد، هذا ما سمعته كثيراً في زيارتي لإيران، ومِن ثم ما قرأته في الصُّحف المصرية في مقابلة مع أخت شاه إيران أشرف بهلوي، قالت: أخي أراد القبض على الخميني، والذي أنقذ رقبته مِن المقصلة هو شريعتمداري.

لقاء مع الخميني

لما زرت إيران، بُعيد الثورة، زرت السَّيد الخميني، وكان يرافقني في تلك الزِّيارة أحد المشايخ، وقد نسيت اسمه، أتذكر

لديه مدرسة لتحفيظ القرآن، وكنت قد خدمته مِن قبل في شأن ما، فقلت له: أنا ذاهب لزيارة السَّيد الخميني، فقال: وأنا أكون في خدمتك. دخلنا إلى السَّيد الخميني، ووجدتها أسهل بكثير مِن زيارة شريعتمداري، صافحته مصافحة النَّد للند ولم أُقبل يده، وتلك قضية تُعدّ مِن الكبائر بالنسبة إلى الحاضرين في ذلك المجلس، وفي اللحظات الأولى للثورة وبروز شخص الخميني الطَّاغي.

استقبلني الرَّجل واقفاً. ومما قلته له: يا سيدنا هذه الثَّورة ليس لك فضل فيها إنما هي تدبير كونيٌّ! فأنا كنت أعرف لغته الصُّوفية، ومفردة الكونية تؤثر فيه. قلتُ: شاء الله أن تكون فكانت، وأقول لك كلمة كانت تتردد في صحف مصر، قالها رجل صحافي معروف: إن الثَّورة الإيرانية هي هبة السَّماء إلى الأرض في هذا العصر.

فهم الشَّيخ الذي رافقني خطورة الموقف بالنِّسبة إليه، وأن عدم تقبيل يد الخميني وما قلته مِن كلمات يُحسب تجاوزاً على مقام السَّيد قائد الثَّورة السَّامي، وفكّر بأننا سنؤخذ بعد انتهاء المقابلة أو خلالها، فما إن أوصلني إلى محل إقامتي قطع علاقته بيَّ نهائياً، وحتى يومنا هذا لم أره ولم يرني.

الخميني وولاية الفقيه

فكرة أو عقيدة ولاية الفقيه أيديولوجية بامتياز، طرحها السَّيد الخميني، لأنه أراد إقامة نظام مبني على أيديولوجية

شرعية. لقد جرى حديثٌ طويلٌ عن ولاية الفقيه، بمدينة مشهد الإيرانية، مع أحد أساتذتي، وكنت نازلاً ضيفاً عليه، كان ذلك بعد انفجار الثَّورة في العام 1979 بشهر أو شهرين.

قال لي السَّيد محمد كاظم مرعشي، وكنت قد درست عنده بالنَّجف، وبلكنته الفارسية الملائية: سيدنا سأذكر لك قصة، وبدأها بسؤال: أتعلم أن السَّيد الخميني ما كان يرى ولاية الفقيه؟ فقلتُ: كيف! قال: عندما كان الخميني بالنَّجف ما كان يرى ولاية الفقيه! وأضاف: كنا قد تباحثنا أنا والسَّيد أخي حتى أقنعناه بها، فاقتنع. كان يقصد أخاه سيّد مهدي مرعشي.

أما أنا سيّد طالب الرِّفاعي فلا أرى ولاية الفقيه، فالولاية للإمام فقط، أما الفقيه فله ولاية محدودة على القِصر، في القضايا الشَّرعية، لكن الولاية المطلقة التي أعطاها السَّيد الخميني لنفسه، وللفقيه من بعده، لا أراها. كان رأيي هذا سابقاً وليس الآن، ولما طرح الشَّيخ محمد جواد مغنية رأيه في عدم شرعية ولاية الفقيه المطلقة آنذاك كنت مِن المؤيدين له.

الخميني يتبنّى محاضرتي

كنت في أول أيام الثَّورة استنكر أموراً كثيرة، وأنا داخل إيران ممارسات مستنكرة كنت أراها تُمارَس أمامي، مثلاً: إذا ذُكر اسم النَّبي (صلوات اللّه عليه) يصلّون مرة واحدة، بينما إذا ذُكر اسم الخميني يصلون سبع مرات، واعتبرت هذا غلواً في

الأشخاص. كنت بأصفهان وكانت المناسبة مولد الإمام الحسين (عليه السَّلام)، في شهر شعبان.

لقد تكررت تلك الممارسة أيضاً أمامي، وهي إذا ما ذكر اسم الخميني صلوا سبع مرات، بينما صلوا مرة واحدة بعد ذِكر النَّبي. فقلت بصوت عالٍ للعلماء الذين كانوا في ذلك المجلس: أعطونا جواباً! إذا ذهبنا إلى خارج إيران وسألونا عن هذه الممارسة بما نجيبهم؟ رسول اللّه (صلوات اللّه عليه)، يُذكر وتُصلّون مرة واحدة، ويُذكر رجل لا يساوي التُّراب الذي تطأه قدم رسول اللّه بحذائه (واللّه قلت لهم بهذا النص تماماً) فتُصلّون سبع مرات! أعطوني الإجابة؟ فلا أحد منهم فتح فمه. وكان كلُّ ذلك يُنقل إلى السُّلطات.

عندما كنت بأصفهان، وكان لي صديق مدير مدرسة متوسطة أهلية اسمه عبدالوهاب طالقاني، عُيّن بعد الثَّورة محافظاً لمحافظة شهركرد، وهي مدينة بعيدة عن أصفهان بنحو ساعتين أو ثلاث ساعات في السَّيارة. ولما أتيت إلى أصفهان نزلت في دار السَّيد نور الدِّين (على ما أظن) السَّيد النُّوري، وهو أخو السَّيد مرتضى النُّوري الذي نزلت عنده عندما كنت بشمرانات. فدعا المحافظ قائلاً: إن إمام الشِّيعة بمصر موجود هنا! فقال: انتظروني ولا تتعشوا حتى آتي.

قَدّم لي المحافظ هو بدوره دعوة لزيارة محافظته، وأوصى أن يصحبني ترجماناً، كان اسمه أغايي كيهان، عُرف بهذا الاسم

لأنه يعمل في جريدة «كيهان» (العالم)، وكان يُترجم للرؤساء والملوك، ولأنه درس بالنَّجف فعربيته كانت سليمة. توجّهت مع المترجم إلى محافظة شهركُرد، حيث الطَّالقاني محافظاً هناك، وكان بيت المحافظ عبارة عن قصر شاسع، إلا أنه جعل مِن ذلك القصر مكبّاً للزبالة.

مكثت هناك يوم أو يومين، فخرجت مظاهرة، طلب مني المحافظ الاشتراك فيها، ولما خرجت مع المتظاهرين، وعرفوا أني جئت مِن مصر، أخذوا يشتمون أنور السَّادات. فقلتُ للمحافظ: أنا ليست لي علاقة بالسَّادات، أنا عراقي، وعيبٌ أن يصدر هذا الكلام منك وفي تظاهرة مؤيدة لثورتكم. ويبدو أنه أسكتهم بطريقة ما. بعدها قدموني لإلقاء محاضرة، على أن تُنقل في الإذاعة والتلفزيون مباشرة، فجاءوا بالمترجم كيهان يترجم مِن العربي إلى الفارسي. فنزلتُ نزلةً شعواء على ما يحصل في ظل الوضع القائم، حتى شخص السَّيد لم يسلم من لساني.

ما أتذكره كان كلاماً ثقيلاً، أخذت أُقدم النَّصائح لتعديل هذا الوضع. في اليوم الثاني جاءني جماعة مِن أساتذة جامعة أصفهان، والمترجم كيهان ما زال معي، وفي أثناء دخولهم كنت أسير في حديقة القصر، فلما دخلت وجدتهم يتضاحكون ضحك شعرت فيه استغراب! فقال لي المترجم: سيدنا لا تستغرب لقد حدث شيء عجيب، سأحدّثك عنه، لكن بعد أن تُجيبني عن سؤالي:

سيدنا حدّثنا البارحة ماذا قلت في محاضرتك التي بُثت عبر وسائل الإعلام! وكنت ما زالت أتذكر ما قُلت نصاً ومضموناً.

فلما انتهيت التفت إليهم قائلاً: صدقتم! والتفت نحوي موضحاً: سيدنا الحديث تحدثت به البارحة في محاضرتك جاء خطاباً على لسان السَّيد الخميني، والجماعة سمعوه وقلت لهم هذا حديث السَّيد الرِّفاعي. فسألوا: ومَن الرِّفاعي؟ هذا حديث الإمام؟! فحلفتُ لهم أنني ترجمته لك شخصياً مِن العربية إلى الفارسية قبل أن تذاع خطبة الإمام بفترة. هذا كلام كيهان أمام أساتذة جامعة أصفهان، قاله لي نصاً.

كنت ضيفاً عند عباس كاشاني وأتته رسالة مِن السَّيد أحمد الخميني، نجل آية الله الخميني، سأله فيها: هذا المصري سيّد طالب الرِّفاعي متى سيُسافر؟ أو قال له: هذا ضيفك السَّيد الرِّفاعي المصري، هذا لم يسلم مِن شتائمه حتى أبي السَّيد الإمام!

بعدها نزلت شيراز عند الشَّيخ مجد الدِّين محلاتي، فعرف محافظ شيراز وبنجر عباس في وقت واحد، بأني موجود عند محلاتي، فدعانا إلى تناول العشاء عنده، وقبلها حدّثني مجد الدِّين محلاتي قائلاً: إنه تسلّم مخابرة مِن محافظ شيراز بأننا سنتعشى في بيته. فقلت له: أنا ضيفك ولا أعرف المحافظ. فقال لي: خل يولّي نحن نتعشى هنا! فنظروا كيف أن المعمم صعدت به الدّنيا بإيران بعد الثَّورة، فمحافظ يدعوه وهو بمثل هذا الكلام

الاستعلائي. لكن المحافظ ألح في الدَّعوة، فذهبنا إليه، وكان قصره أضخم مِن قصر المحافظ السَّابق في شهركُرد، وكانت وليمة مِن ولائم الملوك.

بعد الغداء وشرب الشَّاي لاحظت أن هناك إعلاميين، فقال لهم المحافظ: إذن تذهبون إلى بيت الشَّيخ محلاتي وتسجلون حديثاً لآية الله رفاعي، ويُذاع في التلفزيون. فقلتُ له: أستاذ محافظ أكلنا عندك طعاماً فلا نريد أن نخلق لك متاعبَ أو أشياء تعود عليكم بما لا تُحمد عواقبه، فإذا تكلمت أنا ستحاسب أنت على كلامي، وهو بالتالي سيضرك. فأنا سأتكلم بمبضع جرّاح لا بلسان، أشرّح الوضع كما يُشرّح الجراح الجثة، فنصيحتي أتركني وشأني، ولا تتورّط معي في الحديث، وأنا أكره أن أكون سبباً لمضرتك. وبالفعل صرف النَّظر ولم يبعث لي إعلامياً واحداً.

لقد طالت فترة مكوثي بإيران، بُعيد الثَّورة، فقد دخلت الشَّهر الثَّالث آذار(مارس)، وبقيت حتى الشَّهر الثَّامن آب(أغسطس) 1979. عندها سألوني سيّد تأخرت كثيراً هنا، فما هي أسباب تأخيرك؟ فقلتُ: جئتُ على أساس وجود ثورة إسلامية، وإقامة دولة إسلامية، ونظام إسلامي، الآن أفتش في المدن الكبيرة، وفي كلِّ مكان، عن الإسلام لكي أراه فلم أره، ولم أسمع به، فلم أجده بعد الثَّورة. كنت أصارحهم هكذا.

قمتُ أرى ثمار الثَّورة الإسلامية في الخارج أكثر منه في داخل إيران. أما بالنسبة إلى الشيعة وأهمية الثَّورة الإيرانية فإن

جماعة الثَّورة يفكرون تفكيراً محلياً، ويعتبرون قيام الثَّورة مدّاً لهم، فالمحافظة على هذا المجد هو المهم في منطلقاتهم، وهم أمام مصالحهم يضحّون بكلِّ شيء لا يهم أمر الشِّيعة في العالم.

أتذكر أن السَّيد محمد بحر العلوم نقل إليّ مشفاهةً: إنه عندما تحدّث مع قادة الثورة الإيرانية، بعد سقوط النِّظام العِراقي في العام 2003، وما أخذ الإيرانيون فعله بالعراق، وكان حديثه مع أحد الأقطاب الكبار في الدَّولة، علي أكبر هاشمي رفسنجاني شخصياً. قال له: إن تدخّلكم يضر بشعبنا في العِراق! فأجابه رفسنجاني: أنا لا يهمني عراق أنا يهمني نظام جمهوري!

ستقتلون الصَّدر!

قلت في بداية الثَّورة الإسلامية كنت بطهران، وأتنقل مِن مكان إلى آخر مِن إيران، في يوم مِن أيام زيارتي نويت الذِّهاب إلى دار عباس كاشاني بمدينة قُم، ومثلما تقدم كان صديقاً قديماً ومِن ولادات العِراق، وقبل ذلك هاتفته، فقال لي: هنا المظاهرات قائمة، والكلُّ يصيح ويهتف تأييداً لأبي جعفر السَّيد محمد باقر الصَّدر.

وكنت أسمع الأصوات عبر التَّلفون، فهي مظاهرات طاغية. فقلت له: سيّد عباس وأنت فرحان بهذا! إنهم سيقتلون الصَّدر في هتافاتهم هذه، وسيعطون صدّام حسين المبرر لقتله، لأن ذلك يُعتبر ضرباً مِن الخيانة، على أساس أن الأمر يُقاد ويُدفع به مِن

قِبل دولة أجنبية. أما برقية السَّيد الخميني، التي يقول فيها الكثير، فكانت، على ما أعتقد، المسمار الأول في نعش باقر الصَّدر.

الفصل الخامس عشر

الخاقاني
المرجع العربي بإيران

ربَّما كشف الرِّفاعي في أماليه عن المجتهد الشَّيخ محمد طاهر الخاقاني عن سرٍّ من أسرار قيام الثَّورة الإيرانية الإسلامية، التي جُمعت بكلِّ تفاصيلها في شخص السَّيد الخميني، وإذا كان هناك ما ظهر عن دور شريعتمداري ومجتهدين آخرين، إلا أن دور الخاقاني في نجاح الثَّورة ظل مجهولاً، ومعلوم أن وقف النَّفط من الأهواز يعني لإيران شَّلل الاقتصاد، وكم مِن فاعلين في الثَّورة، مَن علماء الدِّين وغيرهم مِن القوى الاجتماعية، غيّبوا ولم يسلموا على أنفسهم منها.

بعد أن طعنهم الذين التفوا على الثَّورة في ظهورهم، فإذا كان الشَّاه لم يجرؤ على اعتقالهم أو وضعهم تحت الإقامات الجبرية، فإن الثَّورة فعلت ذلك، وبغت عليهم، فهي طعنت اليسار الذي شارك في الثَّورة، والمجتهدين الذين لولا مواقفهم ما غادر الشَّاه بلاطه.

ما كان هذا الفصل يكون لولا أن الرِّفاعي كرر اسم الخاقاني مستشهداً به، فسألته مَن يكون الخاقاني؟! فقال: «أتسأل عن رجل كان يحمل الجمهور سيارته على الأكتاف، وبه انتصرت ثورة إيران»؟ قلت: من جهلي! فقال: «إليك قصته، ودعني استهل لأشحذ ذاكرتي، ولا تُقاطعني، فالكلام في الخاقاني يستغرق كتاباً».

قال: نقل إليّ الشَّيخ سلمان الخاقاني، وهو ابن عم الشَّيخ المرجع، إنه مِن ثلاثين عاماً لا يوجد أحد يحسن اللغة الفارسية

سواي بالمنطقة، وذلك بحكم علاقاتي مع العجم في الصَّوب الآخر مِن المحمرة. فمثلاً كانت هناك دار معروضة للبيع مِن فارسي إلى عربي أو بالعكس، ففتشوا عن مترجم يترجم بين الطَّرفين فلم يجدوا أحداً إلا الشَّيخ سلمان الخاقاني. قال: عبرتُ إلى هناك وقمتُ بالتَّرجمة.

أما الآن فقد غلبت الفارسية على الأبناء والأحفاد، ذلك بعد أن فُرضت اللغة الفارسية في دوائر الدَّولة والمدارس، مِن زمن الشَّاه، حتى إن أحدهم، مِن أبناء عم الشَّيخ محمد طاهر الخاقاني بدّل لقبه مِن خاقاني إلى حُقاني، كي يُسير أموره على أساس أنه فارسي، وكان جالساً معنا في المجلس، ويتحدث العربية بصعوبة، بينما يتحدث الفارسية بطلاقة وهو العربي.

كان العرب بإقليم الأهواز يتوقعون مِن الثَّورة السَّماح لهم بإظهار ثقافتهم ومنحهم حقوقهم القومية؛ لكن للأسف استمر الوضع كما هو عليه، لذا صارت عندهم حساسية مِن الوضع الجديد. لقد مُنعوا مِن إصدار جريدة أو مجلة، وافتتحوا نادياً عربياً لكن الافتتاح جرى بحساسية قومية مفرطة. انتبه الشَّيخ محمد طاهر الخاقاني إلى هذا الوضع، باعتباره هو الزَّعيم الرُّوحي لبلاد الأهواز، فدفعه ذلك إلى السَّفر إلى مقابلة قائد الثَّورة السَّيد الخميني، وعرض مطالب الشَّعب العربي عليه لتلبيتها.

يومها كنت ضيفاً عند السَّيد عباس كاشاني، المتقدم ذِكره، فقيل لي: وصل الشَّيخ محمد طاهر الخاقاني واستقبله النَّاس بمدينة

قُمَ، ولأنه تربطني صِلة سابقة به ذهبت إلى زيارته، ووجدته نزل في دار ولده الشَّيخ محمد الخاقاني بالصَّفائية، حيث الدُّور الجديدة. ما كنت أرغب في أن يأخذ السَّيد عباس كاشاني عِلماً بزيارتي للشَّيخ الخاقاني، لأن مجلسه مرتاداً مِن قِبل نقلة الأحاديث أو الجواسيس، أو المخابرات الإيرانية، الخاصين بالسَّيد أحمد الخميني، نجل السَّيد الخميني، وكنت أعرف تمام المعرفة مَن يتردّد على المجلس.

توجهت إلى الصَّفائية، ومسبقاً أعلم أن الشَّيخ محمد طاهر الخاقاني كان بحراً في علم أُصول الفقه لا يُشقّ له غبار، وليس له نظير، وحتى السَّيد الخميني ليس نظيراً له في هذا المجال العلمي، فهو يعتبر نفسه تلميذ الأقطاب الثَّلاثة بالنَّجف: أغا ضياء العراقي، الشَّيخ محمد حسين الأصفهاني، والشَّيخ محمد حسين النَّائيني، بمعنى أنه كان مستوعباً لعلم أُصول الفقه مِن هؤلاء الكبار.

ذهبت بمفردي، ولكثرة سيارات الزَّائرين لم أعرف مكان الدَّار، لكن كثرة السَّيارات أمام الدَّار صارت علامة لي إلى غايتي في الوقت نفسه، فعندما رأيت الازدحام أمامها بينما بقية الدُّور ليس أمامها هذا العدد مِن السَّيارات، فأيقنت أنها الدَّار المقصودة لا غيرها. فطرقتُ الباب، وما أن فُتحت إلا وعِمامة الخاقاني بانت لي. كان الشَّيخ كفيفاً، فقالوا: له: سيّد طالب الرِّفاعي هنا، ففرح كثيراً، وأجلسني إلى جانبه، وتناولنا الغداء معاً.

نظرتُ في الوجوه العربية، التي حوله، وإذا بينهم مَن لا يحبّه، وكنت أسمعهم يتحدثون ضده ونحن كنا بالكويت، وهم مِن المعممين، فقلت في نفسي: لا يا مسكين الشَّيخ طاهر. فأنا أعلم كم كان الشَّيخ بسيطاً وطيباً، والسِّياسة ليست كاره أو شأنه، إنما هو رجل علِم ومعرفة. كان من عادته أنه لا يحتسي الشَّاي إلا بعد قيلولة الظَّهيرة، وكان حاضراً السَّيد علي الأوساني، وقد تغدّى وخرج، وأظن كانت له عادة عند الشَّيخ فأخذها وسار، وأعني مبلغاً مِن المال، فبقيت أنا جالساً، وهؤلاء (الحبربش)[1] جالسين.

لولاه ما نجحت الثَّورة

كان للشَّيخ محمد طاهر الخاقاني (ت 1985)[2] دور كبير في نجاح الانقلاب بإيران، أو الثَّورة الإسلامية، سمّها ما شئت، وأنا أميل إلى تسميتها بـ«الانقلاب»، وهذا هو اسمها بإيران رسمياً. كانت له مساهمة عملية في نجاح ما حدث، لأن النِّفط الإيراني ينبع مِن عبادان، وعبادان والمحمرة مكان واحد، فبأمر مِن الشَّيخ الخاقاني يتوقّف عمال النَّفط عن العمل، وهذا ما كسر ظهر نظام شاه إيران. أغلب العمال كانوا مِن العرب، وهناك عشائر عربية، والخاقاني نفسه مرجع عربي كبير.

---

(1) كناية يستخدمها العراقيون كثيراً تعبّر عن حواشي النَّاس أو الذين لا عمل لهم أو المتملقين.

(2) مِن قبائل بني خيقان أو خيكان العربية.

لقد توقّف عمال النِّفط بعبادان عن العمل تضامناً مع الثَّورة بمناطق إيران الأُخر، بل قامت التَّظاهرات أيضاً بإقليم الأهواز تضامناً كافة، وقد سُجل هذا الموقف للشَّيخ الخاقاني، وعند وجودي بإيران، في أول أيام الثَّورة، كنت أسمع عن الجهد الكبير لهذا المرجع في إنجاح الثَّورة، فهناك مناطق مختلطة مِن عرب وعجم، بينما منطقة الشَّيخ الخاقاني كانت عربية صِرفة، فالعجم غير موجودين فيها.

مطالب الخاقاني للخميني

كان ذلك اليوم وعهده مع السَّيد الخميني، والموعد قبل الغروب بساعة، واللقاء حُدّد بساعة فقط. فقلت في نفسي: ماذا سيطلب الشَّيخ الخاقاني مِن قائد الثَّورة، والرَّجل لا يُجيد أولويات السِّياسة، فربَّما دخل في مجادلات في علم الأُصول وعلمِ الفقه، إنما هذا شأن سياسي وفيه تطلعات شعب، ففكرت أن أُهيئ له المطالب التي يُقدّمها للخميني، فكتبت أربعة عشر مطلباً، وكل مطلب يُشكّل مادة للحوار. لم أتذكر منها شيئاً سوى التَّأكيد على عروبة المنطقة كبند جوهري في إثبات حقوق أهل المحمرة وعبادان والأهواز كافة.

استيقظ الشَّيخ الخاقاني، وجلس إلى جانبي على فِراش واحد فوق الأرض، فهمست بإذنه: كتبتُ أموراً أودّ عرضها عليك، فإن وجدتها مناسبة أعرضها بدورك على السَّيد الخميني، وأُريد

عرضها عليك بمفردك. فقال لبساطته وبصوت مسموع: ليس بين هؤلاء القوم سرٌّ.

فانفضح أمري وأنا أعرفهم تمام المعرفة لا يسمعون كلمةً إلا وسعوا بها إلى الجهات الرَّسمية. على أي حال، اضطررت أن أقرأها عليه، وكلما قرأت بنداً وجدته فرحاً به، يحرك جسمه وكأنه يحاول الرَّقص طرباً. فلما انتهيت قال لي: مِن أين الله بعثك لي، وهذا ما يجب أن أطرحه على الخميني اليوم.

ذهب وقابل الخميني، وما إن خرج مِن داره حتى اتصل بيَّ قائلاً: أبشّرك السَّيد وافق على أغلب البنود بكل ارتياح، وليس سوى أحدها توقف السَّيد عِنده. وأردف قائلاً: أنوي العودة إلى المحمرة فمهمتي انتهت، وأُريدك أن تأتي معي. فقلت له: لا أجد لي عملاً هناك، ويكفيني الحر بمدينة قُم، فكيف الحال بالأهواز حمارة الصَّيف.

لكنه أتاني في اليوم الذي التقيته وقدم البنود إلى الخميني، وأنا في دار عباس كاشاني، يرافقه جماعة مِن قُم، جلس وشكرني وقال: جئت بطلب! لا أخرج مِن هذه الدَّار إلا أن تعطيني كلمة بأن تأتي معي إلى المحمرة! وقد حاولتُ الاعتذار، لكنه أقسم عليَّ بالزَّهراء، فوافقت على الذِّهاب معه، وأن السَّفر سيكون الغروب مِن اليوم نفسه.

استأجر قطاراً خاصاً يذهب بنا مع حاشيته إلى المحمرة، ووصلنا في الموعد المحدّد إلى المحطة، لكن بعد قطع مسافة

ليست بعيدة عن قُم توقف القطار كثيراً، ووصل خبر في منتهى السُّوء، بأن النَّفق الذي سيمرُّ فيه القطار ملغوم، وبقينا ننتظر، وكنا بين أمرين إما عودة القطار مِن حيث انطلق، وإما ننتظر حتى زوال العارض. كنا جالسين في المقصورة أنا والشَّيخ وولده. فقلت للشَّيخ: إن الانتظار مؤذٍ لي، فسأنطق الشَّهادتين وأنام، وأخذت ألاطفه: فهل أنت تأخذني إلى سياحة، ليس وراءك سوى الموت! صعدت إلى سريري في القاطرة ونمت!

تحرك القطار بعد تأخر طويل، امتد مِن الفجر وحتى السَّاعة الحادية عشرة ظهراً، وتوقف من بعد في محطات عدة، وكان مِن المقرر أن يصل قُبيل الفجر إلى الأهواز، وهناك خرجت المدينة عن بكرة أبيها لاستقبال الشَّيخ، لكن الانتظار الطَّويل، مِن الفجر وحتى الساعة الحادية عشرة ظهراً، أدّى إلى تفرق المستقبلين، ولم يبق منهم إلا القليل.

هنا خمّنت بأن تأخير القطار كان مقصوداً كي لا يتم هكذا استقبال للشَّيخ محمد طاهر الخاقاني، فظهور شخصية مثله فيها تبعات على أصحاب الأمر بطهران. فلما وصلنا الأهواز وجدنا فلولاً مِن النَّاس أخذوا بالهوسات، فأطل الشَّيخ عليهم مِن النافذة، وبعد التَّوقف نحو ربع ساعة تحرك القطار إلى المحمرة.

وصلنا المحمرة حوالى السَّاعة الواحدة ظهراً، فوجدنا بشراً كثيرين، كلّهم خرجوا لاستقبال الشَّيخ الخاقاني، ولا أُبالغ إذا قلت:

إنهم رفعوا السَّيارة عن الأرض، وكنا وحدنا فيها، حملوها إلى قريب المسجد وأنزلوها، وشعرتُ أن عجلاتها أخذت تفتل في الهواء، كان المستقبلون لا يُحصون عدداً. عندما نزلنا مِن السَّيارة، متوجهين إلى باب المسجد، اعتذرت له بأني لا أستطيع دخول المسجد إلا بعد الاغتسال، فذهبوا بي إلى دار صهر الشَّيخ، وبقيتُ هناك حتى اللَّيل، بعدها ذهبنا إلى دار الشَّيخ وتعشينا وعدنا.

معركة النادي العربي

كنت أستمعُ إلى ما يُقال في المجلس عن النَّادي العربي في صوب المحمرة الآخر، بأن الجنرال مدني، وهو محافظ البلد، له موقفٌ ضد النَّادي وما يُعقد فيه مِن لقاءات ثقافية واجتماعية بالعربية، فشعرت أن الوضع قد وصل إلى حدٍ مِن التَّأزم، وأرى أن الموقف سينفجر مع حكومة المنطقة ومحافظها الجنرال مدني في أي لحظة. عدتُ إلى دار صهر الشَّيخ ونمت هناك، وإذا عند الفجر أتاني السَّيد محمد، صهر الشَّيخ، وقال لي: لا تقمْ إلى الصَّلاة، فالرّصاصُ أخذ ينطلق، كان ذلك في صيف 1979 تماماً.

بالفعل أخذ الرَّصاص يئزُّ فوقنا، فنزلت مِن السَّرير إلى الأرض، كي لا تصيبني رصاصةٌ تائهةٌ، وطلبت مِن صاحب الدَّار استطلاع ما يحدث، فذهب وعاد إليّ قائلاً: سيّد انفجر الموقف، وهناك قتلى مِن الصَّوبين! فصليت ثم فطرنا، وحاولت الذِّهاب إلى دار الشَّيخ محمد طاهر الخاقاني، لكن مضيفي امتنعَ، لأن الرَّصاص أخذ ينهمر بكثافة، وهو يقول لي: الموقف صعب!

صار الموقف الرَّسمي المحلي إجمالاً، ضد الشَّيخ الخاقاني، بينما في الأمس رفع الجمهور سيارته عن الأرض، فحسبت ما يحدث ما حدث لمسلم بن عقيل بالكوفة نفسه. قال لي صهره السَّيد محمد: علينا الذّهاب عبر الأزقّة، كي نتجنّب خطر إطلاق الرَّصاص والازدحام، فوصلنا إلى دار الشَّيخ الخاقاني، ووجدته جالساً والرَّصاص يتوجه إلى داره، فجُرح مَن جُرح مِن حرّاسه. وحصل أن توفيت أخته في تلك السَّاعات، وفاةً طبيعيةً، وواجهوا صعوبةً في تجهيزها ودفنها.

كنت أراه يتصل، عبر التَّلفون، بآية الله محمود الطَّالقاني (ت 1979) وآخرين، ثم أخذ أزيز الرَّصاص يشتدّ على داره، وكأنهم يقصدونه وللضغط عليه. سمعته يقول لمَن حوله هازئاً: «إذا قُتلنا أنا والسَّيد ادفنونا في قبر واحد». فالتفتُّ إليه قائلاً: «أتيتَ بي للونسة وإذا بك تريد تدفني وياك! سأخرجُ مِن دارك»! اتصلت بالشَّيخ سلمان الخاقاني، وقلت له: تعال على وجه السّرعة، هذا ابن عمك يريد أن يدفني معه! وصل سلمان، وطلبت منه أن يأخذني معه. استأذنت مِن الشَّيخ ولم يكن له عذرٌ بتأخيري عنده. بقيت استقصي الأخبار مِن دار سلمان، وكان يخرج إلى ديوانيته وأمكث أنا في مكتبته أطالعُ الكتب، ولم أجلس في المجلس مع مَن يزوره مِن النَّاس.

في اليوم الثَّالث، قال لي الشَّيخ سلمان: لدينا ضيفان قادمان مِن طهران اليوم، ويريدان اللقاء بك شخصياً! فاستغربتُ الموقف،

وانتظرناهم لكنهما تأخّرا، وبعد الغداء أتيا ونحن نحتسي الشّاي، فعرّفا بنفسيهما، وهما مِن ولادات النَّجف. فقلت لهما: ماذا تريدان! قالا: نريدُك أن تحلّ المشكلة ما بين الشَّيخ الخاقاني ومحافظ المحمرة مدني. فسألت بدهشة: أنا أحلّ القضية؟! قالا: نعم. وبحسب ما أخبراني بأني أُحرّكها وأني أوقفها، ونريد منك حلاً لها.

فقلت: هل أنتما متأكدان أن محافظ المحمرة يُنفّذ كلَّ شيء يُطلب منه؟ أجابا: لدينا أوامرَ رسمية بذلك. فقلت: المحافظ غبي لأنه صعّد الأمر مع الشَّيخ محمد طاهر الخاقاني إلى هذا الحد. بينما كانت المشكلة تُحلُّ بتقبيل اليد ليس إلا. ونحن المعممين تستطيعون الضحك علينا بقبلة اليد ومظاهر الخضوع والطَّاعة، فهو لو أتى إلى الخاقاني وجلس بين يديه لانتهى الأمر.

فقالا: هل تعتقد أن القضيةَ سهلةٌ إلى هذا الحد؟ قلت: نعم: إنها سهلة جداً. اذهبا إلى المحافظ الجنرال مدني واطلبوا منه أخذ موعد مع الشَّيخ الخاقاني، وأول ما يدخل يأخذ يده ويقبلها، ويقول له: «يا أبتي أفعل ما تأمر فستجدني إن شاء اللّه مِن الطَّائعين». وبالفعل حصل ذلك، ووافق الشَّيخ على استقبال المحافظ، لأنه يريد الحل، لكن أراده بطريقة تحفظ له منزلته.

بعدها رفع الشَّيخ عيسى الخاقاني، أخو الشَّيخ محمد طاهر الخاقاني، سماعة التِّلفون يبشرني بما حصل، وأن المحافظ يريد زيارته. فقلتُ له: سيأتي مأموراً، أمْلوا عليه كلَّ شيء فسيستجيب، إنها فرصتكم، وليضع الشَّيخ محمد طاهر حذاءه على رأسه. فقال:

ومَن أعلمك بذلك؟ قلت: لا عليك. انتهى الأمر بزيارة المحافظ ومراضاة الشَّيخ.

فالقضيةُ وما بها أن الشَّيخ محمد كاظم، نجل الشَّيخ محمد طاهر الخاقاني، شارك في نشاطات النَّادي العربي بالمحمرة، ولأن النَّادي يُنظم برنامجاً عربياً فالنِّظام الجديد لم يتحمّله، فطلبوا غلقه بالحال، إلا أن أصحاب النَّادي طلبوا تأجيل ذلك ليلةً واحدة، بينما المحافظ أصرّ على غلقه بالحال، فحدث ما حدث.

اتصال صدّام بالخاقاني

كان مِن عادة الشَّيخ محمد طاهر الخاقاني أن يتناول الغداء مع زوجته العلوية، لكن ما دمنا عنده يشاركنا الغداء، وكان التَّلفون في غرفة زوجته، فرنّ جرس التَّلفون ودخل وأخذ يتكلم بالعربية، ولم أميّز الحديث، فالباب كان مغلقاً، فعاد إلينا بعد انتهاء المكالمة، وجلس إلى جانبي، فقال لي: أتعرف من أين كان التَّلفون؟ قلت: لا أعرف. قال: صدّام حسين كان يتكلم معي شخصياً مِن بغداد.

وأضاف، كان يقول لي: سنبعثُ لك طائرةً فتهيّأ أن تأتي إلى العِراق، لتكون الخميني المضاد هنا! فسألني الشَّيخ الخاقاني: ماذا ترى؟ قلت: أقول ما قاله الله في كتابه: (وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا)[1]. فهذه إساءةٌ لك، فهو صدّام الذي لا توجد بينك وبينه مشتركات. فقال: وأنا أرى هكذا. فانتهى الأمر عند هذا الحد.

---

(1) سورة الكهف، آية: 51.

غادرت بعدها المحمرة إلى شيراز، ثم إلى قُم، فسمعت بعض الهمهمات ضد الشَّيخ الخاقاني، وكنت مدعواً في بيت كاظم الحائري، وكان معنا محمد علي التَّسخيري، فتناول الأخير الخاقاني بما لا يُليق. قائلاً: الأعمى! فقلتُ: ماذا به الأعمى، وهو كان سبب انتصار ثورتكم، لمّا عمل على وقف النِّفط مِن الأهواز تضامناً معكم. أنسيتم هذا! وقلت أيضاً: الأعمى الذي لا يعجبك خابره صدّام حسين شخصياً ليبعث إليه بطائرة خاصة، ليجعله خميني ضد الخميني ورفض العرض. وقال: لا أُريد أن تدخل جهةٌ أجنبيةٌ بيني وبين أبناء وطني!

مصير الخاقاني

حقيقة الثَّورة الإسلامية لم تنصف الشَّيخ محمد طاهر الخاقاني، مثلما لم تنصف المجتهدين الذين مرَّ بنا ذِكرهم، وتحدثت عن محنهم مع الثَّورة، فقد حُجز في داره بالمحمرة، وجرت عليه مضايقات، وهو ضرير. وبعدها حُمل إلى قُمَ ووُضع تحت الإقامة الجبرية حتى وفاته السَّنة 1985، مثلما حدث لآية الله العظمى محمد كاظم شريعتمداري، وآية الله حسين منتظري. بينما في الأشهر الأُولى مِن الثَّورة لم تكن هناك سُلطة وبوجود الخاقاني وسطوته استقر النِّظام.

ذكرت ذلك وأنا لا أخاف سوى ربِّي، فهذه أمانةٌ تاريخية لا بدَّ مِن قول الحقيقة.

الفصل السَّادس عشر

صلاتي على شاه إيران

قلت للسَّيد الرِّفاعي: هناك أمران وعدتني بالحديث بهما، فقد أجّلنا ما يخص صلاتك على جنازة شاه إيران، مع أنك نوّهت عنها في ما تحدثت به عن مصر، لأنها واحدةٌ من مفاصل حياتك، فقد ثلبك الثَّالبون وتغير عليك الأصدقاء، وأصبحت هدفاً تصوّبُ إليه السِّهام، وكانت الثَّورة في عزِّها والشَّاه كان في الدَّرك الأسفل. والأمر الثَّاني: كنت وكيلاً للمرجعية فأكثرت عليك، إلى حد الإلحاح المزعج، في الحديث عن الحقوق المالية، أو الخُمس، كيف يجمع وأين يذهب، مع أنك لست مِن الخازنين، ولا ممَن تحمل إليهم الأموال، والقصد معرفي بحت، لا لغرض آخر.

فقال: «أما قصتي مع جنازة شاه إيران والصَّلاة عليه، فمشهورة، فماذا تريد أكثر مما كُتب»؟! قلت: ما كتب كان خالياً مِن التفاصيل، ومِن عبير شهادتك شخصياً. كيف طُلب منك، وكيف كانت مواجهتك مع تلك الجنازة غير العادية، وذلك الموقف الاستثنائي؟! قال: «سأتكلم وبالتفصيل». فقلت والأمر الآخر؟ قال: «ماذا»؟ قلت: الحقوق! قال: «بعد لدينا الكثير، وفي أمرها شؤون واعتبارات كثيرة، أبعثها إليك كتابةً».

لكني شعرت أنه عذر مِن الأعذار، وبدأ يسرد كيف واجه الشَّاهنشاه، أو ملك الملوك، وهو جنازة، يشرف على غسله وتكفينه، وكيف لو مات والتَّاج على رأسه كم مِن الأساطين يتدافعون للصَّلاة عليه! وكان آخر الفصول. قال: «أَسجلت هذا

النقاش»؟ قلت: لا. قال: «لأنه ليس الشّاهد». وهي عبارة يُعبّر فيها عن إطنابه في مقدمات الموضوعات ومستهلاتها.

قال: عندما توفى شاه إيران بالقاهرة، كان ضيفاً عند الرَّئيس محمد أنور السَّادات، وكان الوقت رمضان، وعلى ما أتذكّر في منتصف رمضان، أو الرابع عشر منه، السَّنة 1980. حينها دُعيت لمقابلة وزير الأوقاف المصري، زكريا البري، فقال لي: أتيتُ إليك في طائرة الرَّيس، سماحتكم غداً تصلون بنا صلاة الجنازة، جنازة شاه إيران. سألته متهرّباً: السَّيد الرَّئيس يقول كذا؟ قال: نعم! هو أرسلني إليك. وبعد أن آخذ الجواب منك أعودُ إليه في الطَّائرة نفسها! ولكم تقدير الأمر.

قلتُ: يا شيخ زكريا هل هناك مِن داعٍ أن طالب الرِّفاعي يُصلّي على شاه إيران، وهنا شيخ الأزهرِ ومفتي الجمهورية موجودان. فلماذا هذه التَّفرقة بين شِيعة وسُنَّة، فأي رجلٍ مسلم يمكنه الصَّلاة ويؤدّي الفرض، أو هذه الشّعيرة! التفتُ إليَّ قائلاً، ومِن العادة أن يدعوني بمصر الشَّيخ لا السَّيد: يا شيخ طالب جئتك رسولاً يحملُ رسالةً مِن السَّيد رئيس الجمهورية، والجواب بنعم أو لا. لا تدخل معي في بحث علمي، وهذا ما قلته لا دخل له في موضوع الرِّسالة! فقلت: قل للسِّيد الرَّيس الشَّيخ الرِّفاعي يقول: نعم أُصلي. بعد أن وجدتُ لا مجال للرَّفض. هذا، وطلب مني إخبارهم ماذا يحضرون لجهاز الجنازة، بحسب المذهب الشِّيعي وهو مذهب شاه إيران نفسه.

عدت إلى البيت أنتظر وقت السُّحور، فكان الوقت مثلما تقدم وقت صيام، تناولت طعام السُّحور، وها أنا مساهراً أترقّب موعد صلاة الفجر، وإذا بالسيارات تقف أمام الدَّار، فصاحت زوجتي بلهجتها المصرية عليَّ: تحضّر أتوا لك! ودخلوا مجموعة مِن كبار الموظفين والضّباط برتبهم الرَّسمية. فقلت: أهلاً وسهلاً، سنصلّي الفجر معاً هنا! فقالوا: لا، سنصلي معك في مكان آخر. هيّئ نفسك لتأتي معنا. فذهبتُ معهم مباشرة، وأنا بلا نوم، إلى مستشفى المعادي، وكنت متوضِئاً، والشَّمس بدأت تبزغ، فصليت في حديقة المستشفى.

أمام جنازة الشَّاه

بعدها دخلتُ في مكان رُميت فيه جنازة أمامي مِن المستشفى، وإذا بها جنازة الشَّاه، فكنت أعرفه مِن صوره. لم أجد عليه أي تغيير، وكان بكامل صحته، وكأنه كان نائماً. فأتوا بقماش كثير، قُلتُ لا داعي لها، فأعطيتهم قياسات الكفن، وبقيت شاهداً على التكفين كي يكون بطريقة صحيحة، وبحسب مراسم المذهب.

كان أحدهم يحمل قطناً كثيراً أيضاً، فسألته مستغرباً: ما هذا؟ فأجابني: كي يُحشى في دبره! فقلت: لا داعي لذلك فللميت حُرمة، كحرمة الحي، وهو ليس مبطوناً ليُحشى دبره! أشرفت على مراسم التَّغسيل والتَّكفين، ووضعوه في النَّعش أو التَّابوت.

فقلت لهم: انتهت مهمتي، هل هناك شيء آخر أقوم به؟ فقالوا: نعم: اركب، فأتت بي السَّيارة إلى قصر عابدين، وهو قصر

رئاسة الجمهورية في زمن أنور السَّادات، وكان القصر الملكي في عهد الملك فاروق. دخلت القصر والشَّمس أخذت تشرق وتعلو، وشعرتُ أن عندهم أوامر في الإبقاء عليَّ عندهم، وأن السَّادات وعد بصلاة شيعيةٍ على جنازة الشَّاه، مثلما طلبت ذلك أُسرته، فكانت فرح بهلوي، زوجة الشَّاه، تؤكد ذلك، بأن تكون الصَّلاة على جنازة زوجها على مذهبه الشِّيعي.

كنت محتاجاً للنوم، فكنت البارحة مساهراً، مِن لقاء وزير الأوقاف إلى المستشفى، ولم أمكث إلا قليلاً في البيت وهي ساعة السُّحور. لحظتها رأيت الشَّيخ أوس الأنصاري، فناديت عليه، وكان يرتدي ثياب الأفندية، وهو خريج المعاهد الأزهرية، وكنت مِن قبل أعرفه مِن ثيابه الدِّينية. فسألني: مَن أتى بك إلى هنا يا شيخ رفاعي!

قلت له: القصة كيت وكيت! وكان معه محمد تيمور، وهو ابن تيمور باشا الأديب والكاتب المعروف، وكان أحد المسؤولين، فقلت للشيخ الأنصاري: قل للأستاذ تيمور أن يذهبوا بي إلى مكان الصَّلاة على الجنازة، وكنت مطلوباً للصَّلاة لا للتشييع! فقد فكرت في ذلك كي أخلص مِن التَّشييع وما فيه مِن إرهاق، لي وما تبثّه الكاميرات مِن مشاهد حيَّة عبر التَّلفزيون، وأنا مرصود مِن العيون بسبب عِمامتي.

فنفّذ ما طلبت منه، وحضرت سيارة نوع جيب عسكرية نقلتني إلى مسجد علي الرِّفاعي، مكان المقبرة الملكية، حيث

يُصلى على جنازة الشَّاه، ويُدفن هناك. جلستُ هناك على كرسي مِن الكراسي، وكان مختلفاً عن بقية الكراسي، فيبدو متميّزاً بشكله وأناقته، لكنها لحظاتٌ وجاء محمد تيمور، وهو رئيس التشريفات مثلما تقدّم، فأرسل إليّ أحدهم ليقول: اختر لك كرسياً آخر، فهذا كرسي الرَّيس! فقلت له: متى يأتي الرَّيس سأسلمه الكرسي، فسكتوا وتركوني جالساً.

بقيت أنتظر ساعات طويلة، والصَّحافيون يمرّون عليَّ ويحومون حولي، ويسألون ولا أُجيب أحداً منهم، وكأني أُصبت بالخرس. اقتربت الظَّهيرة، وإذا صوت الموسيقى الجنائزية يصدح، فوصلت الجنازة، يتقدّم موكب التَّشييع الرَّئيس محمد أنور السَّادات، فنهضتُ مِن الكرسي الخاص به، وجاء واحتضنني، فقلت له: أنا تعبان وصائم يمكن أستريح عشر دقائق حتى يكتمل التَّشييع! فنادى: خذوا مولانا إلى داخل الجامع. فأتوا ركضاً ألوية وعمداء وأدخلوني الجامع، ماسكين بيَّ كأنهم يحملونني.

دخل وفد التَّشييع الرَّسمي، بينهم أنور السَّادات، والرَّئيس الأمريكي الأسبق نيكسون، وملك اليونان، ولم أنهض لهم فكنت متكئاً على الحائط، وكان حضور إيراني كبير مِن كبار شخصيات العهد الملكي. فلاحظت السَّادات قد سأل مَن حوله: أين إمام الصَّلاة؟ فقالوا له: القاعد هناك. فرمقني بنظرة، وقال: مولانا تفضل صلي بنا.

كنت أعرف عدداً مِن الكلمات الفارسية، ومِن العادة أن يستأذن المصلي مِن ذوي الجنازة، فاستأذنت مِن ولده الأكبر، فتلقّفها أنور السَّادات، وكان يقف قريباً، وكان هو الآخر يعرف كم كلمةً فارسيةً، فقال: تفضل مولانا للصَّلاة. فعزيت ابن الشَّاه، قلت له: ولدي فلان كذا وكذا، أي ما يُقال عادة في العزاء.

تقدّمتُ للصَّلاة، ولا بدَّ من أن تكون خمس تكبيرات، بحسب المذهب الشِّيعي[1]، التَّكبيرة الأولى: الشَّهادة للّه بالوحدانية، ولمحمد بالرِّسالة والصلاة عليه وآله. الثَّانية: الصَّلاة على محمد وآل محمد. الثَّالثة: الدُّعاء للمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم

(1) معروف أن تكبير أهل السُّنَّة في صلاة الجنازة أربع تكبيرات. قرأت في الكامل في التَّاريخ لابن الأثير (ت 630 هـ) أن الصَّلاة على جنائز الخلفاء العباسيين، مع أنهم يُعدون مِن أهل السُّنَّة، في الأُصول والفروع، خمس تكبيرات، مثلما هو عند الشِّيعة الإمامية، جاء في الرِّواية: «في هذه السَّنة (393 هـ) في شوال منها توفى الطَّائع لله المخلوع ابن المطيع لله، وحضر الأشراف والقُضاة وغيرهم دار الخلافة للصَّلاة عليه والتَّعزية، وصلى عليه القادر بالله وكبر عليه خمساً، وتكلمت العامة (الحنابلة) في ذلك فقيل: إن هذا مما يُفعل بالخلفاء، وشيع جنازته ابن حاجب النُّعمان، ورثته الشَّريف الرَّضي(أحد كبار علماء الشِّيعة) فقال: ما بعد يومك ما يسلو به سالي ومثل يومك لم يحظر على بالي»(الكامل، بيروت: دار صادر 2008ج 9 ص 175).

وعندما توفى كبير المعتزلة في زمانه أبو الهذيل العلاف (نحو 227 هـ)، صلى عليه القاضي المعتزلي أحمد بن أبي داؤد، حسب رواية الوزير ابن يزداذ أن ابن أبي داؤد كبر على جنازته خمساً (ويُعلل فقهاء الشِّيعة تكبير خمس تكبيرات على الجنازة بأنها تكبيرة واحدة من كل صلاة من صلوات اليوم الخمس)، وقد برر ابن أبي دؤاد ذلك، بقوله: «إن أبا الهذيل كان يتشيع لبني هاشم فصليت عليه صلاتهم»(الأسدآبادي، فضل الاعتزال، تحقيق فؤاد سيد. الدار التونسية للنشر 1974 ص263).

والأموات. الرَّابعة: الدُّعاء إلى الميت، فبقيتُ متردّداً ماذا أقول! فجرى على لساني بعد معاناة داخلية: اللهم أن هذا المسجّى بين أيدينا عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، خرج مِن ملكه وسلطانه، فأصبح فقيراً إليك، أسيراً بين يديك، إن عاملته بما هو أهله فهو أهل لذلك، وإن عاملته بما أنت أهله فأنت أهل التَّقوى والمغفرة، الله أكبر. أما الخامسة فأمرها سهل: قراءة سورة الفاتحة.

الإشراف على الدَّفن

نزلت إلى السِّرداب كي أُشرف على الدَّفن، وأراد أصحاب الكاميرات مِن الإعلاميين النُّزول معي، إلا أن أنور السَّادات رحمني منها، فقد قال: احتراماً للميت ممنوع نزول وسائل الإعلام، وهناك لقنت الشَّاه تلقين الميت بحسب الطَّريقة المعروفة: ربك ونبيك وإمامك إلى غير ذلك. كان العديد مِن أصحاب القضويات، أي عمائم القضاة مِن أهل السُّنَّة، موجودين في الصَّلاة وبقية المراسم.

فُدفن وخرجت مِن السِّرداب، فأتى الإيرانيون يسلّمون عليَّ، إلا أنه بعد الانفلات مِن الصَّلاة لم يستسغ بعضهم الدُّعاء في التَّكبيرة الرَّابعة، فأخذوا ينظرون إليّ بشزر، وأحدهم تمتم بالفارسية وسمعته بأذُني: أغايي مبعوسه خميني! أي أنا كنت مبعوثاً مِن الخميني!

جاء ولد الشَّاه الأكبر، وهو ولي العهد في زمن حكم أبيه، علي رضا وسلّم عليَّ بالفارسية، وأتى الجنرال ابن زاهدي، وهو

زوج ابنة الشَّاه وسلّم عليَّ أيضاً. عِقب ذلك أخذت الصُّحف تنشر الخبر، فكانت انعكاساته شديدة عليَّ مِن قِبل الشِّيعة بالذات، الذين مع الثَّورة، واتُخذت مواقفَ ضدي، لكني لم أكترث لها، لأني عملتُ واجبي الشَّرعي.

محاولة قتل

نشرت صُحف إيرانية في مشهد تحت مانشيت: «أغايي رفاعي كافر أيست». أي السَّيد الرِّفاعي كافر. جلبها لي أحد أصحابي وسلّمتها إلى المباحث المصرية واحتفظوا بها، فقد كانت التُّهمة خطيرة، وربَّما تكفّل جاهل ما بتنفيذ ما جاء في تلك الصحيفة، لذا لا بدَّ مِن الحذر. لقد حصلت ردة فعل قوية ضدي، وظلّت قائمة لسنوات، فأتذكّر أنه عند وفاة السَّيد الخميني (صيف 1989) أقام السِّيد مرتضى القزويني مجلس فاتحة في المناسبة، وكنت جالساً، فكان هناك شلة مِن الإيرانيين.

قال لهم السَّيد مرتضى وعلى مسمع مني: هذا السَّيد طالب الرِّفاعي الذي صلّى على جنازة الشَّاه! فتحسسوا ضدي، فقام أحدهم وأخذ سكيناً وخرج، وسمعت الجلبة في خارج المجلس، وإذا بهذا الشَّاب يريد طعني والآخرون يمسكون به، ومنهم الدُّكتور السَّبع الذي أخذ السكين منه وطردوه مِن المجلس. فقلت لمرتضى القزويني: ما وجدّتَ عنواناً تعرّفني لهؤلاء إلا أني صلّيت على شاه إيران، وهذا كان قبل تسع سنوات مضت؟ وشحنت هؤلاء الإرهابيين ضدي! فقال: ما فعلتُ ذلك! فقلت له: سمعتك بإذني!

مواقف مِن الأقربين

لما صلّيتُ على جنازة شاه إيران (1980) أُخذ ضدي موقفاً غاية في الشِّدة، وغاية في التنكّر مِن الأصدقاء قبل الخصوم، وأنا على يقين لو أن الشَّاه مات وهو في ملكه، صاحب التَّاج، وأوصى أن يُدفن في تربة النَّجف، أول مَن سيتقدم للصَّلاة عليه هو السَّيد محسن الحكيم، ولا يسمح لغيره أن يُصلي عليه. فقلت حينها: مِن سوء حظ الشَّاه أن أُصلّي عليه أنا، ومن سوء حظي أني صلّيتُ على جنازته وهو مجرّدٌ مِن المُلك، معزولٌ من السُّلطة، فلو كان متوفياً وهو ملك لما تمكّنتُ مِن الصَّلاة عليه مأموماً وليس إماماً!

وقف ضدي كثيرون، ومنهم معارف لي للأسف، مثل السَّيد كاظم الحائري، والسَّيد محمود الشَّاهرودي، المعروف بمحمود الهاشمي، الذي صار رئيساً للسلطة القضائية بعد حين بإيران، وكان الاثنان مِن تلامذة السَّيد محمد باقر الصَّدر. أتذكّر أن الحاج كمال علوان كان مقيماً بلندن، والآن يقيم بلبنان، ويتردّد عليَّ بين فترة وأخرى آنذاك، وكان يسمع ما يُقال بي «ما قاله مالك في الخمر»، مثلما يُقال في الأمثال. في مرة مِن المرات: قلت له: أنا مشتاق وأريد زيارة الإمام الرِّضا، والسَّيدة المعصومة بقُم. فقال: الله الله في نفسك سيدنا، الذين سيقتلونك هم أصحابك وليس غيرهم! فنصحني ألا أذهب.

بعثتُ برسالة إلى السَّيد كاظم الحائري بيد أحد الأشخاص، وما إن قال له حامل الرِّسالة إنها مِن السَّيد طالب الرِّفاعي أخذتهُ

حالة مِن الهستيريا ضدي، قائلاً: لا أستلم رسالته! فقال له السَّيد عباس زيني، وكان حاضراً: ما به سيّد طالب يرجع إليك في الاحتياط، يقصد في شأن فقهي.

ثم تسلّم الرِّسالة وقرأها، وكنتُ وضّحت له فيها بأني لم أكن مختاراً في الصَّلاة على شاه إيران. فكتب لي جواباً: إذا كان هذا وضعك لماذا لا توضّح الصُّورة. فأجبته: مهما كانت عليَّ مِن مؤاخذات في صلاتي على شاه إيران فإني صلّيت على جنازة رجل مسلم، والصَّلاة على المسلم واجبة مهما كان حاله! فأجابني: هذا كافر ولا تقول مسلماً! فالقضية على ما يبدو سياسية وليست دينية.

فلما عُقد مؤتمر مؤسسة آل البيت، وكان متولّيها السَّيد مهدي الحكيم ونائبه السَّيد محمد بحر العلوم، وكانا مِن الذين أخذا موقفاً ضدي، فسألني كمال علوان: هل ستحضر مؤتمر آل البيت! فقلت: سأفكّر أحضر أو لا أحضر لا أدري الآن! فقال لي: لا تحضر لأنك ستواجه ما لا تحب، ومن أصحابك! فقلت: لو أردتُ أن أذهب سأذهب، ولا يستطيع أحدٌ أن ينبسَ بكلمة ضدي، وأنا أعرفهم جبناء في مثل هذه المواقف. أجبته بهذا النَّص: «لا أشرّفهم بحضوري، فلستُ خائفاً وإنما لا أريد إعطاءَهم شرف حضوري». كنت آنذاك بلندن، وهذا في العام 1985، وقد أشرت لجزيئة مِن اللقاء في حديث سابق.

في هذه الأثناء حصلت ما يشبه المعجزة لطالب الرِّفاعي، أن تقدّم عباس كاشف الغطاء بخطوبة لابنه فاضل، وهو طبيبٌ

جرّاح مِن كريمة حمدي نجيب رحمة، التَّاجر المعروف. كانت زوجة كاشف الغطاء عرفت بوجودي بلندن، وتريد أن يتمّ عقد ولدها على يدي، وقالت: نريد التبرّك به، فهو عالِمنا عندما كنا بالقاهرة. وكان في إتمام العقد ما يشبه المنافسة، فعادة يميّزُ بين العلماء أو المعممين الحاضرين، فكان مهدي الحكيم حاضراً والسَّيد محمد بحر العلوم، حتى مصطفى جمال الدِّين عندما عرف بحضورهما فقال لي: قد يحصل شيءٌ لا يعجبك! فربما فُضّل عليك ابن سيد محسن الحكيم، أو ابن بحر العلوم.

بالفعل في يوم العقد حضرا الحكيم وبحر العلوم، وقد سبقاني إلى مكان العقد، ولعلهما عرفا بأني سأقوم بالعقد، فدخلت وكان وقت الصَّلاة الظُّهر، فأتاني السَّيد مهدي الحكيم قائلاً: «راح يمكن ما تلحق على وقت الصَّلاة فقم وصل»، وكان يعرف أن العقد يتمّ بعد دقائق، بحسب ما هو متفق، وأراد إبعادي ليُتم العقد هو، والغاية أنه عندما يسألون أين طالب الرِّفاعي! فيتبيّن عدم وجودي فيأخذ المبادرة أحد الاثنين: الحكيم أو بحر العلوم، والثَّاني لا يتقدّم على الأول.

لكني أجبت السَّيد مهدي هناك وقت باقٍ لإتمام الصَّلاة. فأنا عارفٌ: «حرامي الدُّواب يعرف حرامي الهوش»، مثلما يُقال في المثل. ونحن هكذا نتبارى في دواخلنا، فجاء عباس كاشف الغطاء، والد الذي يُعقد له، وقال والجميع كانوا جالسين: سيّدنا طالب الرِّفاعي تفضّلْ إلى إتمام العقد. فرأيت الحاضرين

واجمين ساكتين كأن على رؤوسهم الطَّير. كيف تجاوز مهدي الحكيم ومحمد بحر العلوم! فكان لي رهان مع مصطفى جمال الدِّين على اتمام العقد مِن قِبلي[1]. فكسبتُ الرَّهان.

خامنئي ليس ضدي

بعدها بأعوام طويلة، أي في العام 1999، حصل أن ذهبت إلى السُّويد لأحضر جنازة ولدي، الذي مات باصطدام سيارة، ولما حصلتُ على الفيزا حضرتُ ووجدْتُهم قد دفنوه، فقانون تلك البلاد لا يسمح بالتأخير لأكثر مما هو مقرر. فذهبت إلى هولندا، وكنت أتحرّك بوثيقة سفر أمريكية، فلا يوجد لديَّ جواز سفر عراقي. فلما وصلت إلى هولندا قلت أذهب إلى سوريا ما زالت قريبة. مكثتُ فيها نحو أربعين يوماً، وكنت أتجول في شوارع السَّيدة زينب، وكان سكني هناك.

فجاء أحدهم سلم عليَّ ومعه كان معاون الملحق الثَّقافي في السَّفارة الإيرانية محمد علي أذرشب، وكنت أعرفه سابقاً فهو مِن مواليد كربلاء، وكنت قد درّسته، لكن نسيته فذكرني، فدعوتهم إلى الغداء في اليوم الثَّاني، فجاء معاون الملحق وطلب جواز سفري! فقلت لماذا؟

قال: لك دعوة مِن السَّيد القائد، يقصد السَّيد علي خامنئي،

---

(1) قد لا يدرك غير المعممين، أو علماء الدين، معنى هذه الحكاية، لكنها ذات مغزى كبير بين أصحاب العمائم، وصاحب المذكرات كان متألماً مِن الموقف ضده، ففي تلك المحنة كسب كسباً معنوياً.

تُرتب لكم زيارة إلى إيران على حِساب الدَّولة. كان ذلك في حزيران (يونيو) 1999. فتعجبت شديد العجب! أن علي خامنئي، وليّ الفقيه ومرشد الجمهورية الإسلامية، يدعو طالب الرِّفاعي على حساب الدَّولة الإيرانية! فقلت للملحق: هل نسيتم القضية؟ أقصد صلاتي على جنازة شاه إيران.

فاستغرب مِن استغرابي، وسأل أي قضية؟ وقال: أقسم وجدك رسول اللّه، أني كنت في مجلس خاص مع السَّيد القائد، وكان اثنان مِن رفاقك في المجلس، وهما كاظم الحائري ومحمود الشَّاهرودي، وكان بيد القائد كتاب اسمه «التَّقريب بين المذاهب الإسلامية» لرجل وهّابي. وكان السَّيد يورق ويقرأ، وكلَّ ثلاث أو أربع دقائق يقول: لا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم! ولا أحداً يرد عليه. وكنا جالسين، فالتفت إليه أحد أصحابك قائلاً: ما هذه الحوقلة، وما هذا التَّرجيع! فقال: هذا السَّيد واللّه مظلوم! السَّيد رفاعي واللّه مظلوم!

لما سمع الجالسون باسمك، قالوا: كيف مظلوم! فقال: هذا الوهّابي في كلِّ خمس أوراق يشتمه ويتعدّى عليه. فهذا السَّيد لولا أنه لم يترك أثراً بمصر ما تعدى عليه هذا. وعندها مدحك الصَّاحبان، لكنهما قالا: إلا كذا وكذا! فسأل القائد: ماذا كذا وكذا؟ فقالا: سيدنا أنت تعرف. فقال: لا أعرف! فقالا له: الصَّلاة على ذلك الملعون (يقصدان شاه إيران)! فقال: واللّه ما عمل إلا بواجبه الشَّرعي، وهذه مظلومية ثانية للسَّيد رفاعي.

قلت لمعاون الملحق الثَّقافي الإيراني: كثّر اللّه خيرك، أن عرّفتني بهذا الموقف، وأن السَّيد علي الخامنئي على دين ويعرف تقوى اللّه، وأنه لا ينقاد إلى الغوغاء. واعتذرت له مِن عدم تمكني مِن تلبية الدَّعوة حالياً، لكني وعدته بتلبيتها في وقت آخر.

أربط هذا الموقف بموقف آخر، حدث في العام 2005. ذهبت إلى زيارة الإمام الرِّضا بمشهد مِن إيران بلا دعوة، ولما قمت لأخذ الفيزا الإيرانية أعطوني فيزا شرف، ولم يأخذوا مني الرُّسوم المعتادة، وأن القنصل في السَّفارة الإيرانية بأبو ظبي عرف بأني المصلّي على شاه إيران، وكنت في زيارة لابنتي أم فارس المقيمة بأبو ظبي. أخذ أحد معارفي جواز سفري إلى السَّفارة الإيرانية وشرح لهم ظروفي وأعلمهم بأني صلّيت على الشَّاه، فقال القنصل له: سنمنحه فيزا شرف! هكذا حصل معي. فذهبتُ إلى إيران وزرت المراقِد والتقيت ببعض أصحابي القدماء، وعدتُ وكانت تلك سفرتي الأُولى بعد صلاتي على جنازة شاه إيران.

الصَّلاة على الشَّاه بركة

في السَّفرة الثَّانية كان القنصل نفسه موجوداً في سفارة إيران بأبو ظبي، ومنحني الفيزا، وذهبت هذه المرة إلى قُم لزيارة السَّيدة معصومة، أخت الإمام الرِّضا، مباشرةً. بمدينة قم لي أصدقاء كثيرون منهم الدُّكتور عبدالجبار الرِّفاعي، وهو ابن مدينتي ومعرفة سابقة، فجاء لزيارتي.

كذلك زارني السَّيد جواد الشَّهرستاني، ممثل مرجعية السَّيد علي السِّيستاني بإيران، وقد دفع تكاليف الفندق عنّي جزاه اللّه خيراً. أقام لي الشَّهرستاني دعوةً مهمة جداً، حضر فيها أهل الأدب والشِّعر، فقيل فيها بحقي: «يا هلا بضيف أبو هادي يا هلا... يا هلا بسيدنا الرِّفاعي يا هلا». ليس هذا الشَّاهد.

فالشَّاهد هو أن صحفياً إيرانياً مهماً، ومدير صحيفة مهمة نسيت اسمها، عندما سمع عنّي ومَن أنا طلب أن يجري حواراً معي، فقيل له: ستجلب مشاكلَ لنفسك في هذا الحوار، لأن طالب الرِّفاعي هو الذي صلّى على جنازة شاه إيران!

فأجابهم قائلاً: لهذا أريد أن أجري حواراً معه، وهذا هو المطلوب! كان ذلك في تموز (يوليو) 2006. ثم قال: إن الإيرانيين لو يعلمون الآن بمدينة قُم هو الذي صلّى على الشَّاه لمزّقوا ثيابه وأخذوها قطعاً للتبرك به، بعد ما حصل لهم في الثَّورة الإسلامية، أي إن الصَّلاة على الشَّاه تحوّلت بعد حين مِن نقمة عليَّ إلى بركة لي، ويا سبحان مقلّب الأحوال. بالفعل أتى هذا الصُّحفي وأجرى معي حواراً مطوّلاً لثلاث ساعات، تكلّمت فيه بصراحة مطلقة. ليس عندي خبر أُنشِر الحوار أم لا.

انتهى تحرير أمالي الرِّفاعي

20 كانون الثَّاني (يناير) 2012

أبو ظبي - لندن - الكويت

الفهارس

فهرس الأشخاص

(أ)

فهرس الأماكن

(ج)

(ح)

(د)

(ر)

(س).

(ش)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)